رُزقتُ الحلال

رواية



سارة محمد سيف

رُزقت الحلال

سارة محمد سيف

إسم الكتاب : رواية رُزقت الحلال .

المؤلف : سارة محمد سيف .

الناشر : عصير الكتب للنشر الإليكتروني .

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

مؤسسة جرافيكس لاند للأعمال المكتبية

Graphiclandblog@gmail.com

Facebook : Grafx Land

رزقت الحلال

- رواية -

سارة محمد سيف

إلى كل من رأى أن خطأه لا يغتفر

وأنه ما عاد هناك طريق للعودة

فلتعلم ..

أن أبواب التوبة دائماً مفتوحة على مصراعيها

لا تقفل ساعة أو تستريح حيناً

فإذا أدركت خطأك وأين مربطه ..

فقاومه .. وعالج داءك بيدك وقوتك التي وهبها الله لك

فلتكن حراً من كل قيد وأسر

فلقد خلقت حراً .. فلتعش حراً

لم تخلق عبداً لشهوات .. بإرادتك تروضها حتى تخرج في مكانها ووقتها المناسب.

أنت تملك عقلاً .. يتحكم بعالم كامل

فكيف لا يتحكم في شهوة ؟!

تذكر دائماً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله

فكلما شعرت بالضعف فلتطلب القوة من المولى

ستجده وراءك يدفعك للأفضل فمن تقرب منه شبراً تقرب إليه ذراعاً

الظلام الحالك يسود الأجواء، وقد رُفع أذان العشاء منذ ساعات، من المؤكد أن الناس نيام في هذه الأوقات، لإنها إحدى قرى الصعيد، بالتحديد داخل محافظة سوهاج.

المعروف في صعيد مصر وبالأخص بتلك القرية، أن الناس يذهبون إلى أسرتهم بعد صلاة العشاء ليستيقظوا عند الفجر في كامل النشاط؛ مزاولين مهنة الزراعة والحرث التي تُمثل مهنة أغلب القاطنين بها أو البعض الأخر فيما يخص الأثار والسياحة.

تسللت فتاة تتشح بالسواد من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها، تتلفت حولها بقلق لتتيقن من خلو الطريق ثم أسدلت وشاحها الذي به درجة من الشفافية يسمح لها برؤية موطئ قدميها، أغلقت باب المنزل الداخلي خلفها بهدوء، تتوجس إيقاظ حارس البوابة الذي يغط في سبات عميق.

حاولت أن تكتم ضحكاتها على صوت شخيره الذي ينافس صوت صافرة القطار في الإزعاج، تقدمت من البوابة الرئيسية وقبل أن تغادر توقفت لحظات ثم استدارت عائدة إلى الحارس، أسندت خصرها بيدها ولوت شفتيها من أسفل الحجاب قبل أن تبتسم ابتسامة خبيثة تعبر عن نيتها الطفولية، اقتربت منه على مهل رافعة طرف التلحيفة الموجودة حول عنقه ووضعتها على وجهه لتخفي كلا أنفه وفمه، رغم ثقلها إلا إنها بدأت بالإهتزاز إثر تأثير تتابع أنفاسه المصاحب لشخير مرتفع الضجة.

تراجعت مسرعة قبل أن تخونها ضحكاتها فيلتغي الموعد الذي جازفت من أجله في الخروج من منزلها بتلك الساعة.

عبرت البوابة الرئيسية وأغلقتها خلفها بهدوء ولكن تركتها مفتوحة قليلاً حتى تستطيع العبور إلى الداخل مجدداً حين عودتها، وبمجرد خروجها حثت قدميها على المسير بسرعة.

****

فُتح باب الشقة بهدوء وتسلل الظل إلى الداخل على أطراف أصابعه محاولاً عدم إحداث أي ضوضاء أو جلبه قد تتسبب في إيقاظ حرمه المصون من نومها، فإذا حدث وأفاقت من سباتها سيقضي المتبقي من الليل في جدال عقيم ينتهي بغضب كل منهما من الأخر ويجعل حياتهما أكثر تعكيراً.

انتشر الضوء في كل أنحاء الشقة معلناً فشله في التسلل خفية إلى الداخل دون أن تشعر به زوجته، فيبدو أنها كانت جالسة بانتظاره تتوعد له بليلة طويلة من الصراخ .. هذه هي عادتها منذ عدة أشهر، تجعل حياتهم كالجحيم في الأرض.

تنهد بصوت مرتفع يحاول أن يستعد نفسياً لما هو قادم بينما نهضت من مقعدها ووقفت أمامه بملامحها الغاضبة التي تسببت في إختفاء أي أثر لجمالها البديع، فقد تحولت زرقة عينيها الرائقة إلى قطعة جليد يتوعد بالدمار كما جمعت شعرها فوق رأسها مبعثرة بضع خصلاته كأنها تعلن استعدادها لمعركة ضارية.

بدأت الحديث مضيقة بين عينيها: كنت فين يا فادي ؟

أجابها بثبات: ف الشغل

- لحد الساعة إتنين بعد نص الليل ؟

- الشغل عايز كدا أقول لا ؟

- أومال لو كنت موظف ف الشركة مش صاحبها كنت عملت إيه ؟

تنهد صابراً: ما هو عشان أنا صاحبها باتأخر فيها

تكلمت بسخرية: لما حضرتك تشتغل للساعة دي، يبقى بلاها موظفين أحسن وأشتغل فيها لوحدك

- نجلاء، اقصري الشر أحسن، أنا جاي تعبان ومافيش خُلق للخناق

- ومين قال إننا بنتخانق؟ دا بس مجرد كلام، هو أنت لسه شوفت خناق

- ما أنا بأمهدلك عشان ما تدخليناش في مرحلة الخناق دي

- طب شغل واحد معاك تاني .. يشيل من عليك حمل الشغل دا كله ع الأقل يوفرلك ساعتين تلاته راحه

- أنا مش بأمن لأي حد وبعدين دا شغل مهم ما ينفعش حد غيري يعمله ... عن إذنك بقى أروح ارتاح شوية

- أه، عشان تنزل من النجمة وأصحى مالاقكش كالعادة

زفر بقوة قائلاً بتعب: تصبحي على خير يا نجلاء

ابتعد عنها متجهاً إلى غرفة النوم لكنها أوقفته بكلماتها الجارحة التي تُذكره دائماً بأنها هي السبب فيما هو فيه الآن: أنا كتير بأندم إني خليت بابا يديك الفلوس اللي فتحت بيها الشركة دي

استدار إليها نصف إستدارة وحدثها من فوق كتفيه: أول ما الشركة تقف على رجلها ويبقى معايا سيولة هأرجع لبابكي كل قرش أدهوني بالفايدة كمان لو تحبي

ابتسمت ساخرة: وهو أنت فكرك أنك لما ترجعله الفلوس يبقى خلاص مالوش جميل عليك ؟

بدأ الغضب البارد يلتمع في عينيه: ومين قالك إني ناكر للجميل ؟، إنتي اتكلمتي عن الفلوس وأنا بأطمنك أنها هترجعله تاني مش هأكلها عليه يعني

- أنت عارف كويس إن بابا مش بيفرق معاه الحاجات دي

ثم تابعت ببطء: مادام أنا مبسوطة

حدق بها بتركيز متسائلاً: وإنتي مش مبسوطة ؟

عقدت ذراعيها وأدرات ظهرها قائلة بحزن: وهأنبسط إزاي يعني وأنت بتجيلي بعد نص الليل وبتمشي الصبح بدري ومش قادرة أقعد معاك ساعة على بعض

اقترب منها وأمسكها من كتفيها مديراً إياها لتواجهه، قال مبتسماً بحب: طب أنا مش بأشتغل عشان أظبط حياتي أنا وإنتي ؟، عشان تعيشي مرتاحه واللي تطلبيه يجيلك على طول

وضعت يديها على صدره العريض ونظرت إلى عينيه السود قائلة بدلال: أنا عايزاك أنت مش عايزة أي حاجه تانية

اتسعت ابتسامته وغمزها: يعني عندك استعداد ما تغيريش عربيتك كل سنة وتبطلي تروحي للكوافير ٣ مرات في الأسبوع وما تشتريش كل شهر دولاب هدوم كامل وما تسافريش برا ؟

زمت شفتيها بطريقة جعلته يكتم ضحكته بصعوبة بينما أجابته على استحياء: بص العربية مش مهمه والسفر بردو مش ضروري أوي بس اللبس والكوافير أنا ما أقدرش أعيش من غيرهم .. أنا مش بأعمل حاجه في يومي غير إني أهتم بلبسي وشعري

أمسك ذقنها بين أصبعيه: يبقى تستحمليني شويه، أظبط الأمور وأثبت رجلي في العالم اللي أنا دخلته دا وبعد كدا هأفضل معاكي لحد ما تزهقي مني

تنهدت بقلة حيلة: وهو أنا ف إيدي حاجه غير إني استحمل واستنى ؟

ضمها إلى صدره حيث أصبحت دقات قلبه تصل إلى مسامعها: أه لو تعرفي بحبك قد إيه .. عمرك ما هتقلقي للدرجة دي

لفت يديها بقوة حول عنقه وهي تدفن رأسها بين طياتها: أنا بحبك أكتر مما تتخيل، حبي ليك مالوش حدود وهو دا اللي بيخليني هاتجنن عليك، وبخاف عليك من أي واحدة ممكن تاخدك مني

قبل وجنتها النضرة هامساً: إنتي مافيش منك أصلاً، فيه حد يسيب الأصل وياخد صورة ؟

همست بحنق: فيه ناس بتحب الرمرمه !

ضحك مبعداً إياها عن صدره: وأنا ف نظرك رمرام يا ست نجلاء ؟

هزت كتفيها: مش عارفه بقى

وضع يداً أسفل ركبتيها واليد الأخرى إلتفت حول خصرها ثم قام بحملها متجهاً إلى غرفتهما الخاصة، همس في أذنها هائماً: أنا بقى اللي هأعرفك

ابتسمت بخجل وقد عقدت ذراعيها خلف عنقه باحكام، هذا حبيبها الذي فضلته على جميع الرجال، فقط من دق قلبها من أجله.

****

طرقت بالهاتف على كفها في قلق، رفع زوجها نظره من فوق أسطر الكتاب المشغول في قراءته متنهداً: أنا نفسي أفهم إنتي بتقلقي نفسك ليه ؟ الراجل بيتأخر ف شغله مش عيب وبنتك بتقلق زيادة عن اللازم

ثم أضاف مازحاً: وحسب اللي أنا شايفه هي مش جايباه من برا

تنهدت: ما أنت سمعت صوت البت كان عامل إزاي، فضلت تعيط لحد لما دموعها نشفت، أكيد في حاجه أكبر من إنه اتأخر عليها

- يعني هيكون في إيه أكتر من كدا ؟

وضحت بهدوء قلق: يمكن يكون عارف واحدة عليها

اعتدل في جلسته وظهر على ملامحه الغضب: استغفري ربنا يا سمية، إن بعد الظن إثم، الواد ما شوفناش منه العيبه وقمة في الأخلاق، قوليلي حاجه واحدة عملها تخليكي تظني فيه كدا

أشاحت بيدها حيرة في أمرها: مش عارفه بقى أهو اللي جه ف بالي

عاد يستغرق في كتابه بعد أن قال لها: اهدي يا سمية وعقلي بنتك بدل ما تشغليها أكتر، وبعدين إنتي عارفه بنتك أكتر من أي حد تاني، يعني دي تعمل العامله وتقول مش أنا .. فهميها تتعامل إزاي مع جوزها وسيبيهم سوا وياريت ما تتدخليش بأكتر من كدا خليها تعتمد على نفسها، هي هتفضل عيله لحد امتى ؟، وكمان إحنا مش هنفضلها العمر كله

أومأت موافقة فكل كلمة قالها زوجها لديه بها كامل الحق، وضعت هاتفها على المنضدة المجاورة وأمسكت بالمصحف تتلو آياته لتهدأ قليلاً ويخف قلقها.

بعد مرور دقائق معدودة، سمعت سمية المفتاح يدور في قفل الباب ويدخل ولدها الأكبر وقد ظهرت عليه ملامح الإعياء.

شهقت بفزع واتجهت إلى ابنها بقلب مفجوع: مالك يا حمزه ؟، وشك مخطوف كدا ليه ؟

حاول أن يرسم ابتسامة وإن كانت باهتة على شفتيه، قال يُطمئن والدته: مافيش حاجه يا ماما، أنا بس ما نمتش من يومين فعشان كدا تعبان

اقترب الأب مردداً: حمدالله ع السلامة يا ابني

ثم أضاف عندما رأى مظهره: بلاش تتعب نفسك زيادة في الشغل

سمية بحنان: اطلع خد دوش سخن عقبال ما أجهزلك لقمة تاكلها

حمزه بإرهاق: لا ما تتعبيش نفسك هأنام على طول عشان مسافر الصبح بدري لقنا

سمية بفزع: أنت لحقت ترجع من دمياط عشان تروح قنا !، يا حمزه مش كدا حرام عليك نفسك، ربنا هيحاسبك عليها وعلى اللي بتعمله فيها

لاحظ الأب إرهاق ولده وعدم قدرته على الحديث فأنهى الحوار: روحي إنتي حضري الأكل عشان ياكل وأنت روح استحمى وتعالى كُل

ثم أضاف بحزم عندما لاحظ بوادر اعتراضهما: اعملوا اللي بأقولكوا عليه من غير مجادلة وكلام كتير

تنهد حمزه ثم إتجه إلى غرفته ينفذ أمر والده بينما نظرت سمية إلى زوجها في ألم: هو هيفضل يقتل ف نفسه كدا لحد إمتى ؟

- إدعيله إنتي بس إن ربنا يريح باله ويهدي سره

- ما أنا بأدعي دايماً بس من ساعة البت اللي ما تتسمى دي وهو حاله اتقلب وبقى بيشتغل كأنه بينتحر، ربنا ينتقم منها

زجرها زوجها: خلاص يا سمية، ما تدعيش على حد كفايه إنك تدعيله هو بس

تنهدت متجهة إلى المطبخ: حاضر يا أحمد أديني سكت أهو

عاد أحمد إلى مقعده وتابع قراءة كتابه داعياً لابنه بصلاح الأحوال.

****

وقف أسفل شجرة المانجو الضخمة يفرك يديه ببعضهما ثم يرفعهما بالقرب من فمه لينفث فيهما أنفاسه لعلها تبعث بعض الدفء، رأته من على بعد وهو يسير ذهاباً وإياباً، تبسمت وهي تقترب هامسة: أسفة لو اتأخرت عليك بس عقبال ما عرفت أخرج من البيت واتأكدت إنه الكل نام

اقترب منها متناسياً برودة الجو وابتسم: ولا يهمك أنا مستعد أقف ١٠٠ سنة من غير ما أزهق أو اشتكي المهم إني هأقابلك

ابتسمت بخجل، حاول أن يرفع الحجاب ليظهر وجهها لكنها نفرت إلى الخلف في فزع، قال مهدئاً: ما تخافيش أنا بس كنت عايز ارفع الطرحة دي عشان أشوف وشك .. ما تعرفيش وحشني قد إيه

تلفتت حولها بقلق ثم رفعت الحجاب مظهرة وجهها الذي أضاء بسبب ضوء القمر المسلط عليه فبدت كحورية قد هبطت من الجنان، رغم أنها من أقصى الصعيد إلا أنها تمتلك بشرة بيضاء ناعمة كالأطفال بسبب قلة تعرضها لضوء الشمس - فمن غير المسموح لها الخروج إلا في أضيق الحدود- عيونها البنية تلألأت نتيجة للحب الممزوج بسحر ضوء القمر كذلك البسمة الناعمة على شفتيها الكرزيتين؛ كل ذلك أضفى عليها سحراً خرافياً.

همس لها ولهاً: وحشتيني

نظرت أرضاً بخجل قائلة بصوت بالكاد سمعه: بس ..، ماينفعش اللي أنت بتقوله دا

ابتسم: طب طمنيني عنك .. أخبارك إيه ؟

هزت كتفيها: عادي زي كل يوم

أردفت بقلق: أنت طلبت تشوفني هنا وفي الوقت دا عشان تسألني على أخباري ؟

تنهد: لا، بس كنت عايز أقولك إني طلبت إيدك من أبوكي

لمعت عينيها بسعادة: وإيه اللي حصل ؟

- رفضني

سألته بحزن: ليه ؟

- عشان يتيم وماعنديش لا أب ولا أم، شغلي مش ثابت يعني إنهارده بأشتغل بس بكره يا عالم

- بس دي أرزاق بإيد ربنا، وأهلك مالكش يد ف موتهم

- قولي لأبوكي الكلام دا مش ليا أنا

زفرت بقوة: دا على أساس إني لو قولتله هيغير رأيه يعني

تابعت وهي تنظر له برجاء: طب وهنعمل إيه دلوقتي ؟

اقترب منها ولكن عندما لاحظ تراجعها تنهد متوقفاً: مافيش غير حل واحد

سألته بلهفة: وإيه هو ؟

أجابها لهجة قوية كأنه لا يوجد أمامهما حل أخر: إننا نهرب سوا يا حياه !

****

انهى عشاءه دون أن يشعر بأي مذاق خاص له، كل شيء أصبح بلا طعم منذ اكتشافه حقيقة من أحبها قلبه، تنهد بقوة لقد تسببت في كرهه جنس النساء بأكمله، لم يعد يثق بأي امرأة سوى والدته .. حتى شقيقته لا يثق بها أيضاً مما يراه يحدث بينها وبين زوجها، يتعجب في كثير من الأحيان من قدرة فادي على تحمله لشقيقته، تلك المدللة التي ما تنفك تذكره بجميل والدها عليه، إذا كان في محله لكان تخلى عنها منذ أمد.

أفاق من أفكاره على صوت دقات خجلى على باب غرفته، اتجه ليفتح الباب فوجد شقيقته الصغرى بملامحها الطفولية التي يشوبها بعض الخوف.

نزل لمستواها وأمسك ذراعيها، ابتسم متسائلاً: إيه اللي مصحيكي لحد دلوقتي يا مي مي ؟

تجمعت الدموع في مقلاتيها بغزارة وهي ترفع ذراعيها عالياً لتريه مدى كبر ما رأت عيناها الصغيرتان، فهم أنها رأت ما أفزعها فابتسم بحنان وضمها إلى صدره: ما تخافيش، أنا معاكي.

نظرت إليه بشك ولاحظ هو نظرتها تلك فعقد حاجبيه متسائلاً: إنتي عندك شك إني أقدر أغلب العو وأخليه هو اللي يخاف مني ؟

أومأت مؤيده لكلماته، أبعدها عنه واقفاً في مكانه واسند جبينه بقبضة يده كعارضين كمال الأجسام أو كما يفعل بعض المصارعين قبل صعودهم لحلبة المصارعة.

نظر إليها وسألها بتحدي: لسه عندك شك بردو ؟

ابتسمت بسعادة وهزت رأسها مخرجة أي شك كان متواجداً بها، حملها بين ذراعيه وتوجه بها إلى خارج الغرفة ولكنها أبت ذلك متشبثة بباب غرفته.

نظر إليها متعجباً سلوكها، تبادلا النظرات قليلاً فأدرك مدى خوفها الذي يشتعل بداخلها جاعلاً إياها ترفض النوم بمفردها، تنهد بثقل: عايزة تنامي جنبي يعني ؟

أومأت بتردد، قبل رأسها ووضعها في سريره ثم اندس إلى جوارها وظل يداعب خصلات شعرها الذهبية حتى غطت في سبات عميق.

بعدما تأكد من استغراقها في النوم اعتدل في نومته عاقداً ذراعيه أسفل رأسه وعينيه تتأملان السقف في شرود، بدأ يتحدث بصوت مرتفع:

- تعرفي إني بأثق فيكي إنتي كمان، يمكن عشان بريئة ولسه الدنيا ما لوثتكيش زي غيرك، ياااااه لو تفضلي بريئة ونضيفه من جوه كدا على طول ... هههههههه بس دا مش ممكن، مافيش واحدة بريئة في الدنيا دي، كلكوا خاينين ومايهمكوش غير مصلحتكوا.

ارتفع أذان الفجر معلناً اقتراب سطوع شمس يوم جديد ، نهض ليتوضأ ويأوي إلى فراشه بعد أداء فرضه حتى يستطيع تحمل تلك المسافة التي تفصل بين القاهرة وقنا بالإضافة إلى بدءه العمل فور وصوله.

****

دلفت حياه إلى غرفتها متنهدة فقد مرت هذه الليلة بسلام دون أن يتم اكتشاف أمرها ، ولكن فرحتها لم تدم ...

- كنتي فين يا حياه ؟

شهقت حياه في فزع: زهرة ؟

نظرت إليها زهرة بحنق: أيوه زهرة، ما جاوبتنيش كنتي فين ؟

تنهدت حياه براحه فالحمدلله أنها شقيقتها زهرة وليست أي شخص أخر، إنها كاتمة أسرارها وصندوق أفعالها ، بدأت في نزع الحجاب من فوق رأسها مظهرة شعرها المموج في حركات منتظمة، لقد كان شعرها يشبه شعر أغلب نساء الصعيد.

كررت زهرة سؤالها غاضبة: ما تنطقي، كنتي فين؟

حياه بهدوء ولا مبالاه: كنت بأقابل شادي

استهجنت زهرة فعلتها وعبرت عن ذلك قائلة: بتقابليه ف ساعة زي دي ؟، دا الفجر أدن، لا دا إنتي أكيد اتجننتي !

لوت حياه شفتيها: اللي يشوف كدا ما يقولش إنك كنتي عايشه سبع سنين في القاهرة وإنك خريجة طب

ضحكت ساخرة: يعني اللي بتعمليه دا عمايل واحدة خلصت ألسن السنة اللي فاتت؟

- مالها تصرفاتي بقى ؟

- يعني إنتي مش شايفه عمايلك ؟ حد يعمل اللي إنتي عملتيه دا ؟ .. ما فكرتيش لو حد من أهل البلد ولا من إخواتك أو أبوكي شافك هيجرا إيه ؟

إرتمت على المقعد المجاور لها وقالت بحزن: طب كنت أعمل إيه ؟ كان لازم أشوفه

جلست زهرة على طرف الطاولة أمامها وأجابتها بتعقل: لو عايز يشوفك كان جه لبابا وطلبك منه مش يشوفك بالطريقة دي

- ما هو طلب يشوفني عشان كدا

- إزاي يعني ؟

- بابا رفض أنه شادي يتجوزني

سألتها بهدوء: ليه ؟ إيه السبب ؟

أجابتها باستنكار: عشان شادي شغله مش ثابت ومش ف مكان واحد وكل يوم ف بلد شكل، كمان عشان أهله متوفيين

- إنتي مش ملاحظه إنك بتظلمي بابا ؟ .. إنتي عارفه كويس أوي بابا بيحبنا قد إيه ومستعد يعمل المستحيل عشان سعادتنا، كفايه إنه خاطر وخلانا نروح الجامعة ف القاهره وهو كان استحاله يخلينا نبات ليلة واحدة برا البيت حتى لو كان عند حد من أعمامنا

- طب ليه ؟ ليه مش عايزني أتجوز شادي ... أنا بأحبه يا زهرة

- وبابا يعرف منين إنك بتحبيه ؟

- يعني تفتكري أقوله ؟

- لا طبعاً ! إنتي اتجننتي ؟ .. مهما كان تحضر بابا بس ف الحاجات دي هيفضل صعيدي

- يووووه بقى، حيرتيني معاكي !

- طب إنتي وشادي بيه وصلتوا لإيه في الكلام ؟

ترددت حياه في أن تخبر شقيقتها الكبرى عن عرض شادي ولكنها حزمت أمرها بالنهاية وأطلعتها: عايزنا نهرب سوا

انتفضت زهرة صارخة: نعم ياختي ؟

لحقت بها حياه ووضعت يدها على فم شقيقتها متوسلة بصوت هامس: أبوس إيديك وطي صوتك

تمالكت زهرة نفسها وأزاحت يدها: وإنتي قولتيله إيه ؟

- قولتله مش هينفع، ما اقدرش أعمل كدا مع أهلي

- ومالك بتقوليها وإنتي زعلانه كدا ؟ .. ما دا الصح واللي المفروض يتقال

- ما هو زعل مني وافتكر إني مش باحبه وإني مع بابا ف رفضه ليه

- خلاص هو حر ف تفكيره، أصلاً واحد بالتفكير دا وبعد عرضه ليكي أنكوا تهربوا سوا يبقى ما يستاهلش ومش بيحبك أساساً

استنكرت حياه غاضبة: هو عشان عايز يتجوزني بأي شكل يبقى ما بيحبنيش ؟

ربتت على كتفها مهدئه: لا ، عشان مش عايز يتعب ولا يواجه عشانك، لو بيحبك فعلاً هيبقى عايز ياخدك في النور وقدام كل الناس، هيحارب عشان يوصلك مهما كان التمن .. بس هو اختار الطريق السهل، بس سهل ليه هو ونسي إنه بكدا بيسوء سمعتك وهيضر عيلتنا والله أعلم ممكن يعمل إيه ف بابا ..

- بس هو بإيده إيه يعمله يعني ؟

- بسيطة، يسيب الشغل اللي مش ثابت دا ويشوف شغلانه ثابتة وقتها بابا مش هيعترض

- طب وأهله؟، يستعير أهل مثلاً ؟

- لا يا ستي مش هتوصل لدرجة الإستعارة، هو بابا قصده بس إنه مالوش كبير يتكلم معاه يعني مين اللي هيتفق معاه ف أمور الجواز والذي منه

- هو يعني صغير ؟

- ماحدش قال إنه صغير بس هي الأصول كدا، وبعدين لما تحصل بينك وبينه مشكلة المفروض يبقاله كبير يتكلم بابا معاه وقتها، حد يعرف يجبلك حقك منه

- لا إن شاء اللّه مش هنحتاج حد، ومش هنزعل من بعض

ابتسمت شقيقتها بحنان: إنتي طيبة أوي يا حياه

شردت بعيداً وهي تتحدث كأنها تحادث نفسها: اسمك مش لايق عليكي، بريئة وطيبة أوي عكس الحياه اللي مليانه شر وكره وبلاوي

افاقت إلى نفسها وتابعت بجدية: الجواز مش كله عسل وحب زي ما إنتي فاكره، إنتي نسيتي ماما اللّه يرحمها وخناقها مع بابا كل فترة ؟ .. أهو بابا أطيب وأحن راجل في الدنيا وكان بيتخانق مع ماما اللي مافيش ست متفهمة زيها .. فما بالك إنتي الطايشة المتهورة وسي شادي بتاعك دا !

عقدت ذراعيها بضيق: قصدك إيه يعني بالكلام دا يا ست زهرة ؟

ضحكت زهرة ضحكة خافتة: قصدي أقولك إنه الحياه مش وردي زي ما إنتي فاكره

نظرت زهرة إلى الساعة المعلقه على حائط الغرفة الزهري: يلا روحي صلي الفجر والحقيه بقى، أنا كنت جايه أصلاً عشان أصحيكي تصلي

لثمت وجنتها بحب واحترام: ربنا يخليكي ليا يا زوزو

ضحكت زهرة: ماشي يا بكاشه ..أوعي خليني أروح أحضر الفطار

- ماشي، هاصلي وأجي أساعدك

- طيب يا ستي كتر خيرك

كادت أن تغلق الباب خلفها عندما إلتفتت إلى حياه كأنها تذكرت شيئاً: حياه

انهت لف حجابها استعداداً للصلاة ثم وجهت نظراتها إلى زهرة: نعم ؟

رفعت سبابتها محذرة: أوعي تفكري تسمعي كلامه والأحسن ابعدي عنه خالص .. أنا ماكنتش بارتاحله بس بعد اللي قاله دا أن مابقتش أطيقه

أضافت غامزة قبل أن تغلق باب الغرفة خلفها: ماتنسيش اللي بيحب بجد مش بيفكر حتى يأذي اللي بيحبه ... واقتراحه دا لو عملتي بيه هيدمرك مش هيأذيكي بس! .. خلي الكلام دا حلقة ف ودنك

شردت حياه حزينة، هي لم تحب غيره ويبدو أنها ستحرم منه، قررت أن تنفض هذه الأفكار خارج رأسها وقد صفت ذهنها ووقفت في خشوع بين يدي اللّه، فدائماً كانت زهرة تخبرها أن قلوبنا بيده وأرواحنا ملك له لذلك هو وحده القادر على إزالة همومنا وإرسال الراحة إلى بالنا.

***

جلست قرفصاء على سجادة الصلاة بعد إنتهاءها من صلاة الفجر تحمل بين يديها كتاب اللّه تتلو آياته بصوت ترهف له القلوب، مظهرة روعة كلماته التي تجعل القلب يدق إما شوقاً لذلك النعيم المذكور والوصف البديع لجنة الصابرين المتقين أو رهبة وخوفاً من عذاب النار.

ظلت على هذا الوضع حتى أشرقت الشمس، أغلقت مصحفها مصدقه ونهضت تؤدي ركعتي الشروق.

بعد تسليميها رفعت يديها ابتهالاً لربها تقول بقلب خاشع ونفس مكلومة ولكنها راضية: يا رب، يا رب، أنا عارفه أنه كل اللي بيحصل معايا دا قدري ومشيئتك وأنا ما اعترضتش ولا هاعترض ف يوم، أنا عارفه أنه "لو علمتم الغيب لأخترتم الواقع"، كل حاجه بتحصلنا مكتوبة ودا قدرنا، كل حاجه بسبب ولسبب، يا رب أنا على طول باترجاك ترجعلي بنتي، بنتي اللي ما شوفتهاش من خمس سنين، اللي مش عارفه ليها مكان ولا عارفه عنها حال، بس أنا متأكده إنك مش ناسيني ولا ناسيها، يا رب أحميها وأحفظها، وقفلها ولاد الحلال وأبعد عنها ولاد الحرام، خليها تكون قريبة منك تحكيلك وتفضفضلك، احفظها من كل سوء وكل شر.

توقفت أخر كلماتها على طرف لسانها فقد لجمتها عن الخروج تلك الدموع اللؤلؤية التي بدأت في الهطول؛ ليس اعتراضاً ولكن حزناً لذكرى ما حدث منذ خمس سنوات عندما فقدت ابنتها.

دار مقبض الباب ليسمح بدخول سيدة قد بلغ منها الكبر عتياً وترك الزمن بمشاكله ومصاعبه أثره على ملامح وجهها ليخفي شبابها الذي كان في يوم من الأيام وترك محله تجاعيد وحزن تشفق عليه النفوس.

- بتعيطي ليه بس يا حنان ؟

مسحت حنان دموعه ورسمت بسمة على ثغرها: مافيش يا تيته، تحبي تفطري جبنة قريش لوحدها ولا أحطلك عليها زعتر زي كل يوم ؟

تابعت ناهضة تطوي سجادة الصلاة: ما تنسيش تاخدي الدوا بتاعك عقبال ما أجهز الفطار

تنهدت الجدة وهي ترى حفيدتها تتجه إلى المطبخ، برغم ما حدث وما يحدث معها ما تزال كما هي، لم تقهرها الدنيا ولم تُركعها صدمات الحياة، وما يدل ذلك إلا على حسن تربية ابنتها الحبيبة لتلك الفتاة.

تلاشت ابتسامتها التي ظهرت عند تذكرها لابنتها المتوفاة، لقد ظنت أنها وحيدة وقت وفاة ابنتها قبل سبعة عشر عاماً شعرت وقتها بالقهر والحزن، اعتقدت لفترة أنها اغضبت اللّه في شيء ما، اقترفت ما تسبب بحرمانها من ابنتها الوحيدة، لكنها فجأه أدركت أن اللّه لم يتركها وحدها تعافر في هذه الحياة بل مد عمرها لتبقى سنداً لحفيدتها حنان.

كانت حنان في المرحلة الثانوية عندما فقدت والديها معاً في حادث غرق العبارة أثناء عودتهما من العمرة، قبلها رفضت حنان أن يؤجل والداها تلك الفريضة من أجل امتحانات الثانوية العامة التي تصادفت أن تكون في نفس الموعد، ظلت تحوم وتدور خلفهما تحاول اقناعهما حتى اقتنعا بالنهاية ورضيا بما شاءت، رفض الطبيب سفر الجدة لأي سبب فجاء ذلك راحة لوالدة حنان "فاتن"، فسوف يكون هناك من يهتم بحنان خلال سفرها.

لكن شاء اللّه وأمره نافذ أن تغرق العبارة التي كانت تحمل فاتن وزوجها أثناء طريق العودة، أحست وقتها بأن الدنيا قد أنهرت ولن تعود كما كانت، أصابتها نوبة قلبية عند سماعها الخبر المفجع.

لمع في ذهنها ثبات حنان وقتها، كانت تبكي بهدوء دون أن تصرخ أو تعترض حينها حسدتها على ثباتها وفي الوقت ذاته خافت عليها أن تكون الصدمة سبباً في وقوعها أسيرة المرض.

بعد مرور أيام العزاء، استيقظت ليلاً لتتناول الدواء عندما سمعت صوت يخرج من الحجرة التي تقطنها حنان.

اقتربت بهدوء ونظرت عبر فتحة الباب الذي لم يكن موصداً، وجدتها تجلس كما رأتها قبل لحظات ، تفترش سجادة الصلاة وبين كفيها المصحف تتلو آياته بصوتها العذب.

دخلت إليها متسائلة: إيه اللي مسهرك لحد دلوقتي يا حنان ؟

- صدق اللّه العظيم .. مافيش يا تيته بأصلي قيام وقولت اقرأ قرآن وادعي لبابا وماما بالرحمة

- تعيشي وتفتكري يا حبيبتي

جلست بجانبها أرضاً وتابعت: إنتي بتكتمي جواكي ليه ؟ .. أنا عارفه إن موتهم صعب عليكي ومش عليكي لوحدك عليا أنا كمان بس طلعي اللي جواكي دا بأي شكل كسري أو صرخي .. أي حاجه بس بلاش اللي إنتي عاملاه ف نفسك دا!

- طب دا هيفيدهم بإيه ؟، مش لما ادعيلهم هيبقى أحسن ؟ .. عارفه يا تيته .. ف مرة سمعت شيخ ف خطبة الجمعة بيتكلم عن تصرفات الناس بعد موت ناس عزيزة على قلبهم، وقتها قال إن الدموع والعياط دا بيفيدنا إحنا عشان بيطلع اللي جوانا بس هما هيستفادوا إيه ؟، مش لو دعينالهم أو عملنا صدقة جارية باسمهم أحسن ؟، كمان قال إنه الصويت وحالة الضياع اللي بتحصل لبعض الناس دي وخصوصاً من ولادهم دا بيكون سبب في عذابهم لإنه بكدا هما ما فهموش ولادهم معنى الموت وإنه لكل أجل كتاب .. وأنا مش عايزة أكون سبب في عذابهم.

أكملت بتأثر: ماما كانت بتسمع معايا الخطبة دي وخلتني أوعدها إن لو حصلهم حاجه ما أعملش كدا وإني ادعيلهم كتير ويفضلوا على لساني ف كل دعاء.

خجلت الجدة من نفسها؛ حفيدتها التي تعتبر طفلة تتصرف هكذا أما هي فشعرت بأن الدنيا قد انتهت ولن تستمر مجدداً.

ربتت على كتفها سألتها بتردد: إنتي حاسه بالذنب إنك إنتي اللي أصريتي عليهم إنهم يسافروا ؟

أطرقت حنان قبل أن تقول بهدوء: أنا كنت حاسه بكدا ف الأول بس لما ماما جاتلي ف الحلم إحساسي دا راح

بتعجب استفسرت: شوفتيها ف الحلم ؟

- أيوه، جات وقالتلي إني ما أزعلش وما أحسش بالذنب .. بالعكس إني المفروض أفرح لإني كنت السبب ف إنهم ماتوا بعد العمرة بعد ما غسلوا

نفسهم من الذنوب وماتوا قبل ما يرجعوا يعملوا ذنوب تاني، قالتلي إنهم كانوا هيموتوا ف المعاد دا مهما اختلفت الطريقة، وإنها تموت بعد العمرة أحسن ما تموت وه في سريرها وذنوبها لسه على كتافها.

أفاقت على الواقع حين نادتها حنان لتتناول فطورها، اتجهت إلى مائدة الطعام وهي تبتسم، لقد كانت حنان نعمة فاتن من بعد اللّه -عز وجل- إليها، عادت لوعيها وإدراكها ما تملك في مقابل ما خسرت، خسرت ابنتها ولكن عوضت بحفيدة بارة بها تحبها أشد الحب .. فالحمد لك يا اللّه كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

****

لحقت حياه بأختها في المطبخ، زهرة بالنسبة لها والدتها التي فقدتها منذ سنوات والأخت التي تحب مداعباتها والجدال معها بالإضافة إلى الصديقة التي تحمل أسرارها، إنها شقيقتها الكبرى ولكن لم تفكر في فارق السن بينهما فقد كانت دائماً كأنها توأمها.

طلبت منها زهرة بينما تقوم بتقطيع الخضراوات أن تذهب لتتأكد من استيقاظ الجميع بداية من والدهم وصولاً لأصغر أشقائهم.

همت بصعود الدرج عندما وجدت والدها يهبطه على مهل، ركضت في إتجاهه وقبلت وجنتيه باسمة: صباح الخير يا أحلى بابا

ابتسم الأب بحنو: صباح النور يا حياه، أومال فين إخواتك ؟

- زهرة فالمطبخ بتحضر الفطار وأنا هاطلع أصحي الباقيين

- طيب يلا روحي صحيهم بسرعة عشان ورايا شغل كتير

- من عنيا، أنت تأمر بس يا روقه وأنا عليا أنفذ

ضحك قائلاً: إيه روقه دي يا بنت ؟، هو أنا من سنك ؟

تأبطت ذراعه وهبطت معه الدرجات المتبقية قالت بجدية: أنا أخاف أمشي معاك ف الشارع يفتكروك خطيبي يا روقه وتقطع نصيبي

سحب ذراعه منها قائلاً بصرامه: روحي صحي إخواتك

رفعت كفها في تحيه عسكرية وقالت بإقتضاب مصطنع: علم وسينفذ

انطلقت تصعد الدرجات بسرعة، ابتسم والدها بعد انصرافها لكنها تلاشت عند تذكره من طلب يدها قبل يوم.

حدثت نفسها بصوت هامس أثناء صعودها: مش معقولة هأكلم بابا بزعل، أي نعم هو رفض إني أتجوز اللي بأحبه بس هو مايعرفش إني بأحبه، وبعدين لسه قدامنا فرص كتير مش من أول مرة هأزهق، كمان لو بابا عرف إني عايزاه ما أعتقدش هيرفض يعني دا بيحبني أوي وعايزني سعيدة بأي شكل .. يوووه بقى ربنا يستر ولساني ما يتسحبش من مكانه ويخليني أقول لبابا كلمة تزعله .. وهو اللي عمره ما زعلني قبل كدا! .. بس بقى بس، لما أروح أشوف الناس اللي نايمه دي وأنا اللي مانمتش ساعتين على بعض .. إهئ إهئ .. أنا بايني أتجننت ولا إيه ؟؟ هههه

دفعت الباب على نحو مفاجئ وصرخت سائلة: ظبطك بالجرم المشهود، بتعمل إيه عندك يا عم أنس ؟؟

انتفض أنس على إثر الصدمة وعندما رآها هتف بغضب: يا بنتي إنتي مش هتبطلي الأسلوب بتاعك دا ؟؟

وضعت يديها في خصرها: بنتك والأسلوب بتاعي ؟ .. أنت مش شايف إنك خدت عليا أوي يا سي أنس ولا إيه ؟

- أووووف بقى، إنتي إيه اللي جابك ؟

- جيت أقولك إن الفطار جاهز

عاد يجلس أمام حاسوبه قائلاً بعدم اهتمام: طيب طيب، روحي وأنا جاي وراكي

علقت مستهزئة: أه، على العشا مش كدا ؟

قال بملل وهو يضرب على لوحة المفاتيح كاتباً بضعة كلمات: يا ستي قولت جاي

اقتربت منه بهدوء وبدأت تقرأ ما كتبه من فوق أكتافه دون أن يشعر بها ظناً منه أنها غادرت الغرفة وأخيراً.

هتفت بصدمة: أنت بتحب يا أنس !

ارتعشت يديها الممسكة بالفارة وأغلق الصفحة التي كان يجري بها الدردشة بسرعة لكن ظهره ظل في مقابل وجه شقيقته.

أدارته ناحيتها وجلست على طرف الفراش تسأله بهدوء: مين دي ؟

لعلمه عن إصرار أخته وأنها لن تتركه حتى تعلم الحكاية بتفاصيلها وأيضاً خوفاً من إخبارها لوالدهما تحدث ببطء ونظره لا يتزحزح عن حذاءه المنزلي: واحدة

- ما أنا عارفه إنها واحدة، حد قالك إني فاكراها واحد ؟، قصدي عرفتها إزاي .. اسمها إيه .. تعرفها منين

- اسمها داليا وعرفتها من النت

- من النت ؟ إزاي يعني ؟

- عادي، اتعرفت عليها من الفيس، شوفتها ف جروب وكانت تعليقاتها وكلامها بيعجبني، حسيت تفكيرها نفس تفكيري بعتلها أدد وهي قبلته وبدأنا نتعرف على بعض

- إمممممم ... قولتلي

وبعد صمت لثواني معدودة مرت على أنس كالسنوات، سألته: دي عندها كام سنة بقى ؟

تردد قليلاً قبل أن يقول باستسلام: ٤٠

- نعم ؟؟؟؟

لوى شفتيه وقال هازئاً: أنا عارف إنك مش هتفهميني

- دي قد عمرك أربع مرات يا ابني، أفهم إيه بس ؟؟؟

توقفا عن الكلام عندما سمعت والدها يطلب منهم الإسراع حتى لا يتأخر عن عمله، نهضت من مكانها وأمرت أخيها: روح صحي محمود وأنا هاروح أشوف عصام

تبعها للخارج وقبل أن تتركه لترى شقيقها الأخر نظرت إليه متوعدة: وهنتكلم في الموضوع دا تاني بس لما نبقى لوحدنا

ابتعدت عنه، وجدت شقيقها عصام يقوم بفرز بعض الأوراق على الأرض، أخبرته أن موعد الإفطار قد حان فترك ما بيده ونزل بصحبتها.

سألته بصوت يشوبه الحزن أثناء نزولهما الدرج: لسه مصمم تسافر ؟

ابتسم ولكن إذا تم اعتبارها ابتسامة من الأصل: فات الكتير ما بقى إلا القليل .. كلها كام شهر وأخد الدكتوراه وأجي أقعد على قلبكوا بعد كدا

- يعني دي أخر مرة تسافر فيها؟

- قولي يا رب

- أنت بتوحشني أوي يا عصام

ضمها إلى صدره: وإنتي بتوحشيني أكتر، بس هانت إن شاء الله

أبعدها رافعاً نظارته الطبية ويفرك عينيه ليمحو الدموع المتجمعة بداخلها: بس بقى، عجبك كدا ؟، هتخليني أعيط والحاج يفتحلي موال

مرت من أمامهما زهرة وهي تحمل طبقاً في يدها: حياه روحي هاتي طبق العيش والمخلل من المطبخ وأنت يا عصام يلا بسرعة بابا مستعجل

عصام: طيب، أديني رايح أهو

****

عندما لم يجدها تنام إلى جواره نهض يبحث عنها ، كانت تضع الطعام فوق المائدة وهي تتحدث إلى نفسها بصوت هامس لم يكد يتبين فحواه.

أخذ يقلب كفيه: لا حول ولا قوة إلا باللّه، إنتي اتجننتي يا سمية ؟، بتكلمي نفسك ع الصبح كدا ليه ؟

ضغطت على أسنانها: وهو أنا طول ما ورايا ابنك وبنتك دول هارتاح أبداً، ما أنا لازم أتجنن

أمسك كفها وأجلسها على الأريكة جالساً بجوارها: إيه اللي حصل ؟

تنهدت: صحيت لاقيت حمزه مش ف أوضته ولا البيت كله ومي مي نايمة على سريره .. اتصلت بنجلاء مش بترد وقلقانه عليها

- نفسي أعرف إنتي غاويه تقلقي نفسك ليه ؟، إحنا جوزناها عشان نقلق عليها أكتر م الأول ؟

- أنت ما كنتش شايف حالتها إمبارح كانت إزاي؟

- أيوه، بس مش يمكن تكون كلمت جوزها وعرف يهديها والموضوع اتقفل؟، هي بتكلمك عشان تفضفض عن اللي جواها لكن مادام المشكلة اتحلت تكلمك ليه؟

- عشان تطمني ع الأقل

- يمكن نايمة، ما إنتي عارفاها بتنام لحد الضهر ويادوب الساعة لسه ٧

- معاك حق، طب والبيه التاني ؟

- ما هو قالك إنه هيسافر بدري

- كدا حتى من غير فطار ؟

- هو أصلاً واكل متأخر، لو جاع هيجيب حاجه ياكلها ابنك عنده ٣٠ سنة يعني مش عيل صغير

- مالحقتش أشبع منه

- شغله وظروفه كدا، إدعيله إنتي بس

- هو بس لو يلاقي بنت حلال كدا وتدخل قلبه أكيد هيرجع يستقر تاني بدل ما هو كل يومين ف بلد شكل كدا

- إن شاء الله هيلاقيها، بس لما يجي الأوان المناسب

ثم أضاف مازحاً: وبعدين مش كفايه عليكي أنا ومي مي ؟ .. دا أنا هاموت من الجوع، يلا بقى كملي الفطار بقى عشان هفتـــــان

- هههههههههههه طب اقرأ الجورنان عقبال ما أخلص

****

اجتمعت العائلة حول مائدة الإفطار ولكنها لم تكن مائدة السفرة بل "طبلية" الطاولة المعتادة في الريف والصعيد، توجد أثنتان ملتصقتان منها حتى تستوعبهم جميعاً.

تنهد أنس بملل: أنا نفسي أفهم أنت ليه يا بابا بتحب تقعد ع الطبلية مالها تربيزة السفرة يعني؟، ع الأقل نبقى قاعدين مرتاحين بدل ما إحنا مزنقين ف بعض كدا

فاروق: يا ابني مافيش أحلى م اللمه دي، أيام ما كنت عايش ف القاهرة عرفت قيمة الطبلية ولمت العيله دي وأنت مسيرك تحسها ف يوم من الأيام

محمود: معلش يا بابا سيبك منه دا عيال وما يفهمش حاجه، ربنا يهديه

أنس بغضب: مين دا اللي عيل يا سي محمود ؟

وضعت حياه قطعة جزر في فمه قائلة بنبرة تحذيرية: أنت تخرس خالص

نظر أنس في الطعام الذي أمامه صامتاً، تسأل فاروق: أومال فين عيشه يا محمود ؟

محمود: تلاقيها مع الولاد ، صحيوا من تلاته الفجر وما ناموش لحد دلوقتي

فاروق: ربنا يكون في عونها حاكم العيال مش سهلة فما بالك بقى بتوأم

حياه ضاحكة: ومش أي توأم يا بابا، دول محمد ومصطفى، يعني الشقاوة كلها

أقبلت عليهم عائشة متخذة مكانها إلى جوار زوجها: صباح الخير

ردد الجميع: صباح النور

ثم أضاف فاروق: ناموا ولا لسه ؟

تنهدت بتعب: أخيراً يا بابا، دول طلعوا عيني واحد ينام التاني يصحى لحد لما بجاش فيا حيل وهأموت من النُعاس

فاروق لائماً: ما إنتي اللي مش راضية تخلي حد ياخد باله منهم معاكي، يعني معاكي بنتين ف البيت ومش مخلياهم يساعدوكي

عائشة: أنا باحب أخد بالي من ولادي بنفسي، كنت فاكرة الموضوع هيبجى سهل بس شكلي إكده هأرجع ف كلامي هههههه

محمود مقهقهاً: ما كان م الأول، لازم تعذبي نفسك يعني ؟

عائشة وهي تحاول فتح عينيها بصعوبة: بقالي كام يوم مش بأنام إلا ساعتين بس لحد ما خلااص حاسه أنه هيجرالي حاجه

أسرعت حياه: بعد الشر عليكي يا عيوشه، بصي سلمى هتجيلي إنهارده هأخليها تاخد واحد وأنا أخد واحد ونريحك منهم شوية، وإنتي روحي ناميلك كام ساعة، إيه رأيك ؟

عائشة بفرحة: حبيبتي يا حياه، ربنا يخليكي ليا

زهرة: إيه وأنا ماليش ف الحب جانب ولا إيه ؟

محمود بحب: دا إنتي الحب كله، دا كفايه إنك شايله البيت على كتافك

نزع عصام نظارته الطبية وهو يدعي محو دمعة خيالية: ترى اتأثرت لحظة أبكي

وكزته زهرة في ذراعه: أنا اللي هأخليك تبكي بجد

عصام مقهقهاً: خلاص خلاص حرمت يا سيادة الريس

حياه: ألا صحيح يا عصام ... هو أخبار خديجة إيه ؟

تنهد بقوة وظهر الحزن على ملامحه: ربنا يستر ... مضايقه مني

فاروق بقلق: خير يا ابني ؟

عصام الدين: أبداً يا حاج، عشان موضوع السفر ودراستي بره

محمود: هانت كلها كام شهر وترجعلنا بالسلامة وماعدتش متعتع من هنا تاني

زهرة: ما تقلقش يا عصام، أنا هابقى أروح أزورها وأتكلم معها، ما تشلش أنت هم

قبل عصام يد أخته: ربنا يخليكي ليا يا أحلى أخت في الدنيا

قطع تلك اللحظات العاطفية الحديث الذي دار بين حياه وأنس.

أنس: سيبيها

حياه مخرجة لسانها: لا مش هأسيبها .. سيبها أنت

أنس بعند: لا هتسيبيها

فاروق متعجباً: في إيه منك ليها ؟

حياه بنبرة طفولية وهي مقطبة الجبين: مش عايز يسيبلي أخر بطاطساية ف الطبق يا بابا !

أنس: ما إنتي اللي خلصتي البطاطس كلها أصلاً، مستكترة عليا بطاطسايه

حياه باستفزاز: ما هو كان قدامك حد كان قالك ما تاكلش، أما عجيبة

أنس: هو إنتي حد يقدر عليكي ف الأكل، دا إحنا قربنا نعيش في مجاعة بسببك

حياه: سيب البطاطساية يا أنس أحسنلك

ثم أضافت ببطء وهي تغمزه بعينيها: ولا أقووول وأنت عارف هيحصل إيه لو قولت

خشى أنس أن تفضح سره أمام والده وأشقاءه فسحب يده في خوف، تناولتها حياه أخيراً وبدأت تأكلها باستمتاع حقيقي وكأنها أجمل قطعة بطاطس في العالم، مستلذة بإغاظته أكثر من طعمها.

تسأل عصام مستغرباً انسحاب أنس بتلك الطريقة: هو إيه اللي أنس خايف تقوليه ؟

توتر أنس بشدة ولكن حياه غمزته قائلة بلا مباله: أبداً، أصل قبل كدا أخدت منه أخر تفاحة بردو ... بس بطريقتي الخاصة، وهو ما كانش عايز حد يعرف

ضحك الجميع على سلوكهما الطفولي، حياه في الثالثة والعشرين من العمر ومع ذلك تتصرف كطفلة في عقدها الثالث فقط، ومع ذلك تبقى هي قطعة من قلب كل واحد منهم.

ظلوا يتناوشون سوياً، يضحكون ملئ أفواههم والفرحة تعشتش فوقهم.

ابتسم فاروق بسعادة فهذه هي عائلته التي سعى هو وزوجته -رحمها الله- إلى تأسيسها وجعلها يداً واحدة لا تفترق، نقل نظره بينهم في فخر، لقد أحسن تربيتهم وزرع في قلوبهم الأخلاق الحميدة، كان الدعاء الوحيد الذي يصر عليه في كل الأوقات وأثناء صلاته أن يبعد عنهم الشيطان ويظلوا متحدين دوماً.

****

استيقظت حوالي الساعة الحادية عشر والربع، تحسست النصف الأخر من السرير الذي يحتله زوجها لكنها لم تجده كما أن المكان بارد يدل على نهوضه منذ زمن.

تمطأت بشدة وهي تنهض من السرير بكسل، اتجهت إلى طاولة التزينة وجلست أمامها تعيد ترتيب شعرها، لاحظت تورم بسيط في شفتيها مما جعلها تتذكر ما حدث بينها وبين زوجها الليلة الماضية.

ابتسمت بسعادة، ففادي هو حب عمرها ولكن في الفترة الأخيرة بدأت تشك في تصرفاته نتيجة ما اكتشفاه منذ عدة شهور، بعد زواج لم يدم أكثر من ثلاث سنوات لم يرزقهما الله خلالهم بأطفال؛ اتجهت نجلاء إلى الأطباء لتكتشف أنه ليس باستطاعتها الإنجاب ... على الأقل خلال الفترة الحالية.

تذكرت رد فعل فادي وقتها، لقد ضمها قائلاً أنه لا يهتم ما دامت هي معه، عرضت عليه تطليقها والزواج بأخرى فنهرها قائلاً ماذا يفعل بطفل لا يحمل دماءها.

رغم وقوفه بجانبها وصبره على عقمها، إلا أنها بدأت في تناول بعض العقاقير التي وصفها الطبيب، وكان الشك يأخذ منها مأخذه، تحبه لدرجه جنونية لا تتخيل معها أن يكون لغيرها حتى عندما عرضت عليه الزواج بأخرى كان تدعو داخلها أن يرفض بشدة فمهما كان هو حب عمرها، قد يكون تصرفها فيه أنانية ولكن الحب في نظرها لا يخلو منها.

استيقظت من عالم ذكرياتها على رنين هاتف المنزل، ركضت مسرعة علّه يكون حبيب قلبها، لكن لم تستطع إخفاء الخيبة في صوتها عندما سمعت صوت والدتها القلق.

- آلو .. يا نجلاء

- أيوه يا ماما

- فينك يا بنتي قلقتيني عليكي، مش بتردي على موبايلك ليه ؟

- معلش يا ماما كنت نايمه ولسه صاحيه دلوقتي

- طب طمنيني، حصل إيه مع جوزك؟

- الحمدللّه يا ماما ، كله تمام

- الحمدللّه طمنتيني .. طب مش ناوية تيجي ؟

- مش عارفه .. هاشوف ظروفي كدا وأقولك

- ماشي يا حبيبتي، خلي بالك من نفسك

أغلقت الخط مع والدتها واتجهت إلى المطبخ تعد كوباً من الكابتشينو الذي تعشقه، ثم عادت به أمام طاولة الزينة تتفحص ملامح وجهها.

إنها ذات بشرة بيضاء كالحليب الصافي، عيونها زرقاء كزرقة السماء في صباح يوم رائق أما شعرها فكان يميل إلى الإشقرار مع حفاظه على درجة من البني الفاتح، كان اهتمامها الأكبر منصباً على رأسها فهي لا تحب النظر إلى جسدها لأنه ممتلئ بعض الشئ مما يجعلها تشعر بالخجل منه.

وقفت أمام المرأة تتأمل شكلها في ثوب النوم وكيف يبدو جسدها، كانت تبدو به فاتنة لكنها لم تعترف بذلك بل تنهدت بحزن وفتحت خزانتها.

استعدت للخروج وارتدت حجابها الأنيق وملابسها المحتشمة ثم تناولت مفاتيحها وهاتفتها ووضعتهم في حقيبة تحمل نفس لون ملابسها، وانطلقت في طريقها خارج المنزل.

****

سار على أطراف أصابعه متلفتاً حوله في قلق، تطلع على الدرج ولم يجد أحداً فبدأ يتسحب رويداً رويداً يحاول ألا يصدر صوتاً يلفت إليه الانتباه.

فجأه شعر بيد توضع على كتفه والصوت الذي كان يحاول الهرب من سماعه يسأله: على فين ؟

التفت إليه بتوتر: أبداً كنت بأتمشى

حياه بسخرية: بتتمشى وأنت بتستخبى ورا الكراسي والستاير ؟ وعلى طراطيف صوابعك ؟

سعل قليلاً حتى يجعل كلماته تخرج من جوفه واضحة: دي طريقة جديدة

- إمممم قولتلي .. طب يا أبو طريقة جديدة في كلام بينا لازم يخلص، قدامي على أوضتك

أشارت له حتى يسير أمامها فإنصاع مجبراً ... جلسا متجاورين وحياه تنظر إليه بينما ينظر هو أرضاً.

بدأت تنهال عليه باسألتها مستقصية عن معلوماته التي يملكها عن تلك السيدة الأربعينية، أخبرها أنها مطلقة ولديها طفلان أحدهما في سنه والأخر في بداية الثانوية.

- يعني عمرها يخليها تنفع تبقى مامتك، أنت إيه اللي خلاك تعمل ف نفسك كدا ؟ أنت فاكر أنك كدا بتحبها ؟

- أومال إيه ؟

- أنس يا حبيبي، أنت أصغر واحد فينا وأقل واحد أتمتع بحنان ماما –اللّه يرحمها-، ماما ماتت وأنت عندك ست سنين، أنت ما حبتهاش الحب بتاع واحد وحبيبته لا أنت حبيتها حب الابن ومامته بس عشان سنك صغير فمش قادر تفرق بين الإتنين

- طب لو زي ما إنتي بتقولي كدا دي مشاعري طب وهي ؟

- هي ولادها معاها ولا مع طليقها ؟

- لا معاه لكن بيزوروها كل فترة

- أديك قولتها بنفسك، هي كمان ولادها مش معاها ومش عارفه تديهم الحنان دا لكن أنت موجود فبتديهولك أنت

- مش عارف بقى

صفعته على وجهه مازحة: ما تلويش بوزك دا ف وشي

- ما أنا مش عارف أعمل إيه دلوقتي

- اللي تعمله إنك تبعد عنها، لإنك طول ما أنت موجود هتبعد عن ولادها لإنها لاقت اللي يكون محتاج لحنانها وحبها فمش هتدور على ولادها اللي

أكيد هي حاسه إنهم مش محتاجينها، خليها تدور عليهم بدل ما تحس بعد كدا بالذنب إنها بعدت عنهم وتشيل نفسك الذنب دا.

أكملت: وأنت ركز في دراستك عشان تدخل ثانوية عامة زي ما أنت عايز ومنها على كلية هندسة زي ما مخطط، بلاش التعارف بتاع النت دا يا أنس، اللّه أعلم الناس اللي فيه بيبقوا إزاي وغرضهم إيه

- ماشي يا ست حايويه

- إيه حايويه دي ؟

- دلعك، ما إنتي اسمك مالوش دلع بقى، والجيش قالك اتصرف!

نظرت له بمكر: بقى الجيش قالك اتصرف ها ؟

رأى بريق عينيها ففهم مقصدها، بدأ بالركض في جميع أنحاء المنزل وهي تلاحقه، خرجت زهرة تصرخ بكليهما.

- بس بس إيه الدوشه دي ؟؟، دلوقتي محمد ومصطفى يصحوا وهيبقى يوم مش فايت

توقف أنس عن الركض، ضرب رأسها بكفه: أوبس، تصدقي نسيت لا أنا مصدع لوحدي مش ناقص

حياه بصوت هامس: معلش يا زيزا العتب ع الذاكرة بقى

أنس مداعباً: بقى بتعيبي على حايوية وبتقولي زيزا ! .. ربنا يشفي

- ماله زيزا يعني ؟؟؟، اسم اللّه على اسمك اللي مقطع الدلع ياخويا

زهرة: بس منك ليها، أنتوا ناقر ونقير على طول كدا ؟

ثم التفتت إلى حياه: أنا هاروح أشوف خديجة وأجي، وإنتي خلي بالك من محمد ومصطفى هما نايمين بس خلي عينيك عليهم عشان عيشه بتريح شويه

حياه: ما تخافيش، سلمى زمانها جايه وهنقعد معاهم لو صحيوا ما تخافيش

استدارت زهرة إلى أنس: وأنت يا أنس روح ذاكر بقى وسيبك من اللعب دا، أنت ناسي إنك إعدادية ولو ما جابتش مجموع مش هتدخل الثانوية

أنس: طيب طيب، أنتوا هتذلونا ولا إيه، أديني طالع

نادته حياه: ما تنساش اللي اتفقنا عليه ... ها ؟

أومأ موافقاً ثم صعد إلى غرفته، غادرت زهرة المنزل، واتجهت حياه إلى غرفتها تحاول الإتصال بحبيبها فقد بات الجو هادئاً.

****

دلفت حنان إلى الفصل المسئولة عن تدريسه مادة التربية الدينية، هي لا تلقنهم الدين فحسب ولكن تعلمهم كيف يكون الدين جزء لا يتجزأ من حياتهم؛ شاملاً ألفاظهم وسلوكهم.

لقد تخرجت من كلية التربية لتصبح معلمة، هذه كانت أمنيتها حتى تُحول التعليم من عقوبة يهابها الأطفال إلى فسحة ينتظرونها من وقت إلى أخر، فالتعليم متعة لمن عرف كيفية تحويله من مجرد مواد دراسية

مملة رتيبة إلى مواد شيقة تلتصق بالأذهان بمجرد سماعها لا أن تتحر من العقل بمجرد كتابتها في ورقة الإمتحان.

كانت ترتدي ثوباً أبيض يعلوه سترة رمادية وحجاب أبيض، ترتدي في أغلب الأوقات نفس ألوان ملابسهم حتى يشعروا أنها قريبة منهم وإليهم.

ما إن دخلت حتى توقفوا عن الحديث ووقفوا في احترام لدخولها، وضعت دفاترها فوق الطاولة المخصصة لها ورسمت ابتسامة غاية في الجمال تحمل لهم الكثير من الحب والحنان.

ألقت السلام وبعد أن ردوه، جعلتهم يجلسون وبدأت في دخولها بموضوع اليوم لكن بطريقة مختلفة كعادتها في كل مرة.

- قبل ما أدخل كنتوا بتتكلموا مع بعض، صح ؟

أومأ الجميع في موافقة، تابعت: كل واحد بالدور كدا يقولي كان بيتكلم ف إيه .. هنبدأ بيك أنت يا وائل

وقف ونظر حوله في توتر ملحوظ فهمت سبب توتره؛ فطلبت منه الجلوس وانتقلت إلى الذي يليه وهكذا.

وقفت فتاة ذات ضفائر بنية وقالت: كنت بأقول لنسمة إن ماما هتعملنا إنهارده بط وأنا مش بأحبه وهي قالتلي إنه مامتها هتعملها فراخ وأنا باحبها، وكنا عايزين نبدل سوا إنهارده عشان كل واحدة تاكل اللي بتحبه.

انتاب الجميع موجه من الضحك مما جعل الفتاة ورفيقتها تشعران بالخجل، أوقفت الضحك بحزم قائلة: أنا مش شايفه حاجه تضحك بالعكس، هما

حلوا المشكلة بطريقة حلوة جداً، يعني بدل ما يقولوا إحنا مش هناكل اتفقوا يبدلوا سوا بحيث كل واحدة تاكل اللي تحبه، بجد أحيكوا يا بنت على فكرتكوا

وبدأت بالتصفيق يلحق بها البقية بعد أن حولت سخريتهم إلى إعجاب، شعرت الفتاتان بالفخر وجلست كل منهما مرفوعة الرأس.

عادت المعلمة حنان إلى الحديث: اللي نسمة وألاء قالوه دا مش عيب، بس العيب على اللي ما اتقالش

نظرت إلى وائل وكل من لم يستطع الإجابه: أنت ما جاوبتش ع السؤال تحب أقولك ليه ؟ ... عشان كنت بتتكلم عن غيرك صح ؟

نظر وائل إلى يديه المضمومتين وقد أحمر وجهه خجلاً، أكملت بهدوء: مش وائل بس اللي عمل كدا، كل واحد قام واتكسف يتكلم أكيد كان بيتكلم عن حد غيره

إلتفتت إلى السبورة وتناولت قطعة طباشير، كتبت بخط كبير يراه الجميع "الغيبة" بينما تتابع حديثها: ودي يعني تتكلموا عن حد مش موجود وفيه فرق بينها وبين النميمة

ثم أضافت "النميمة" إلى جوار الأخرى واتجهت إلى شرح الحديث لتستوعبه عقولهم: الرسول ﷺ سأل الصحابه إذا كانوا يعرفوا معنى الغيبة .. فقالوا إن الله والرسول هما اللي يعرفوا .. فشرحلهم الرسول ﷺ أنك تتكلم عن أخوك وحش وتقول عيوبه والأخ هنا يعني مش أخوك

من باباك ومامتك لا الأخ يعني أي حد بس قال عليه أخ عشان يوضح أنه حتى لو أقرب الناس ليك وتربطك بيه أي صلة ما ينفعش تعمل كدا.

رفع وائل يده مستأذناً بالحديث، سمحت له فقال: بس أنا ما اتكلمتش عنه بكلام مش فيه أنا كنت بأتكلم عنه بحاجه الكل عارفها فيه يعني مش حاجه جديدة

ابتسمت بهدوء وأجابته: نفس سؤالك دا الصحابه سألوه للرسول ﷺ وقتها رد عليهم وقال: لو كانت فيه يبقى أغتبته يعني اتكلمت عنه في غير وجوده ولو ماكانتش فيه تبقى بهته يعني اتكلمت عليه بالباطل وافتريت عليه وفي الحالتين أنت ارتكبت ذنب كبير.

سألتها ألاء: هي الغيبة وحشة أوي كدا يا أبلة حنان ؟

ردت عليها بهدوءها: ربنا شبه اللي بيغتاب حد كأنه ماسك اللي بيتكلم عنه دا وعمال ياكل في لحمه وهو ميت

رأت الاشمئزاز على وجوههم فتابعت: شوفتوا عملتوا إزاي؟، أنتوا بقى كل مرة بتتكلموا عن حد وتغتابوه كأنكوا بتعملوا كدا.

سألها طالب أخر محتاراً: وطب العمل دلوقتي يا أبله ؟

نسمة: طب يا أبله ربنا هيسامحنا ؟

ردت عليها زميلتها: إن الله غفور رحيم

ابتسمت حنان: صح يا ندى، ربنا فعلاً بيغفرلنا، مش إحنا اتفقنا قبل كدا إنه ربنا بيحبنا أوي وبيخاف علينا خالص؟، يبقى أكيد هيسامحنا

وائل: طب وأعمل إيه عشان يسامحني ؟

حنان: تستغفر ربنا وأهم حاجه ما ترجعش تعمل كدا تاني

هتفت طالبة أخرى: أومال هنتكلم ف إيه يا أبله ؟؟

ضحكت حنان: هو مافيش حاجه تتكلموا فيها غير أنكوا تجيبوا سيرة الناس ؟، ممكن تتكلموا ف مادة من المواد ، أو تقولي مثلاً طريقة جديده لعلاج مرض، أو العلماء وصلوا لإيه، تعلمي غيرك إنه يذكر اللّه فيه مليون حاجه غير الغيبة.

أضافت مكملة شرح الدرس: بس فيه ست مواقف ما تعتبرش غيبة

الأول: التظلم ، يعني تروح وتشتكي للقاضي أو في البوليس مثلاً إن فلان عمل فيك كذا ، أو سرق منك كذا

التاني: المساعدة في تغيير حاجه غلط، يعني تروح لفلان تقوله دا فلان بيعمل كذا وكذا وأنت اللي ف إيدك تساعده وتبعده عن دا

التالت: الاستفتاء، يعني تطلب النصيحة من حد فتروح تحكيله دا حصل كذا كذا .. أعمل إيه ؟

الرابع: التحذير، يعني سمعت مثلاً واحد بيقول إنه هيروح يضرب فلان، فتروح أنت لفلان دا وتقوله خلي بالك دا عايز يضربك، أو تروح لفلان دا وتقوله بلاش تشتري من الراجل الفلاني أصل حاجته وحشه، أو لما يسأل الأب مثلاً عن واحد عايز يتجوز بنته ساعتها تقوله الحقيقة عشان ممكن حياة البنت توقف على كلمة منك بس تقول كلمة الحق.

الخامس: إنه يكون الشخص دا بيعمل الحاجه الوحشه دي في العلن وقدام الناس، يعني مثلا بيضرب الفقرا وقتها ممكن تذكره بده بس ما تقولش صفة تانيه مش معروفة فيه

السادس: التعريف، يعني تقول فلان الأعمى أو الأحول، بس تكون صفة فيه وما تكونش بتقولها عشان تتريق عليه أو تقلل من قيمته

في الحالات السته دول ما تعتبرش غيبة

سأل أحد الطلاب: طب إيه هي النميمة يا أبله ؟

- النميمة بقى إنه الواحد ينقل كلام سمعه من واحد للتاني عشان يوقع بينهم، يعني مثلا أنت سمعت إنه وائل بيقول إن سعيد دا كداب فروحت لسعيد تقوله دا وائل بيقول إنك كداب ساعتها سعيد هيروح لوائل ويتخانق معاه عشان قال عنه كدا وتوقعهم ف بعض

نسمة: ودا عقابه إيه يا أبله ؟

حنان: مش هيدخل الجنة عشان الرسول ﷺ قال: "لا يدخل الجنة نمام"

سفقت بيديها قائلة بنشاط: يبقى إنهارده هنبطل نعمل إيه ؟

قال الجميع في نفس الوقت بحماس: هنبطل غيبة وهنبطل نميمة

هتفت حنان سعادة: شاطرين، يلا بقى نقرأ الحديث اللي بيمنعنا عن الغيبة

بدأت تقرأ والأطفال يرددون خلفها:-

"قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته."

****

جلست حياه إلى جوار صديقتها سلمى التي جاءت لزيارتها والكدر يعلو وجهها، سألتها سلمى عن سبب حزنها فروت لها ما حدث بينها وبين شادي ثم حديثها مع شقيقتها زهرة.

نصحتها سلمى أن تتبع نصيحة أختها مضيفة: زهرة معاها حق وبعدين هي أكبر منك وتعرف عنك

تنهدت حياه: شادي زعلان مني عشان رفضت، ولما جيت أكلمه قفل معايا بسرعة بس وعدني هيجرب مع بابا تاني

سلمى بغضب: وإنتي تكلميه ليه أصلاً؟ دا لو خطيبك ما ينفعش، إنتي أكيد جرا لعقلك حاجه يا حياه !

حياه بحنق: أوف بقى، سيبك مني، المهم إنتي عامله إيه ؟

سلمى مدعية عدم الفهم: الحمدللّه

سخرت منها: ما أنا عارفه ياختي، قصدي على عريس الغفلة، جه ولا لسه ؟

- أه جه إمبارح

- اتكلمتوا ؟

- أيوه

- يا بنتي ما تنطقي مرة واحدة إنتي لازم تنقطيني!

تنهد وبدأت تروي لها ما حدث، علقت حياه عندما انتهت من الحديث: يعني متجوز واحدة تانية ؟، وإنتي هتبقي رقم إتنين ف حياته، ووافقتي على كدا؟

سلمى شاردة: لا ما وافقتش، بابا رافض أصلاً لحد دلوقتي بس هو لسه عندنا لحد ما يديه بابا رأيه النهائي وكمان أخته ناهد بتحاول هي وصاحبه محمد مع بابا

نظرت لها حياه بترقب: وإنتي إيه رأيك ؟

أدارت رأسها بعيداً: مش عارفه

- إزاي يعني ؟

سلمى: أنا صليت استخارة قبل ما أقبله بس ...

نهضت من مكانه وجلست أمام صديقتها متسائلة بفضول: بس إيه ؟

- بس أول ما شوفته ما أعرفش حصلي إيه، حسيت إنه قلبي أتاخد مني، كأنه طار وسابني وراح له، اتكلمت معاه قليل وما كنتش عايزة الوقت يفوت

أطلقت حياه صفيراً مرتفعاً: أوعى بقى، وقعتي يا سلومتي ولاحدش سمى عليكي

ضربتها سلمى على ذراعها: بس بقى، إنتي بالذات ما أسمعش حسك

قاطعهما صوت بكاء التوأمين، تنهدت حياه: يلا قدامي ياختي ، أهو تدربي ع العيال شويه هههههه

سلمى: فزي قدامي، صحوبيه تقصر العمر صحيح

صعدتا وقد استولى عليهما الضحك.

****

غادرت حنان الفصل بعد إنتهاء وقت حصتها، قابلتها صديقتها ورفيقتها في المدرسة وسارتا سوياً في اتجاه غرفة المعلمات.

- الأطفال بيحبوكي أوي يا حنان، تقريباً ماحدش بيغيب ف الفصل يوم حصة الدين بتاعتك

ابتسمت حنان: عشان أنا كمان بأحبهم، ما تنسيش يا هالة إن الأطفال بيحسوا باللي يحبهم

ضحكت هالة: قصدك إننا مش بنحبهم ؟

حنان مسرعة لإصلاح سوء الفهم: مش قصدي واللّه، بس ما تنكريش إنكوا - مش هأقول كلكوا- لكن أغلبكوا بيجي المدرسة ويدخل الحصص بس عشان المرتب بتاع أخر كل شهر مش عشان عايز الولاد يتعلموا وأنهم يحبوا المدرسة.

هالة: خلاص يا نونه مالك اتعصبتي كدا ليه ؟، أنا كنت بأهزر معاكي

وصلتا إلى غرفة المعلمات، اتجهت كل منهما إلى مكتبها، سحبت حنان كتاباً من درج مكتبها وفتحته أمامها دون أن تقرأ منه حرفاً، لقد اتخذته وسيلة تخفي شرودها.

إنها تحب الأطفال لأنها تراهم تعويضاً عن ابنتها المفقودة، لقد منعها زوجها من العمل فهو لا يحب أن تعمل زوجته، أطاعته لأنها أحبته بعمق تخلت عن حلمها بأن تصبح معلمة من أجله ولكن بعد فقدانها لطفلتها كذلك إنفصالها عنه عادت تبحث عن حلمها من جديد كطريقة تخرج بها من قوقعة حزنها وقسوة آلامها.

نفست في طلابها الصغار الحنان والحب الذين كانا من حق ابنتها، بدأت تشعر بالراحة وكذلك التعويض عن جرحها.

تنهدت خارجة من ذكرياتها واستجمعت شتات أفكارها لتصب تركيزها على الكتاب الممسكة به وانشغلت بقراءته حتى انتهى اليوم الدراسي فضبت أغراضها وغادرت منطلقة إلى منزلها.

****

طلبت المصعد وانتظرت هبوطه، رأها حارس البناية فاقترب منها وألقى التحية، ابتسمت وردت تحيته وسألته عن أخباره وأخبار زوجته وأيضاً أطفاله.

شكى لها من شقاوة الأطفال وعدم اهتمامهم بدراستهم كذلك المعلمين الذين لا يهتمون سوى بمن يأخذ معهم دروساً خصوصية مهملين البقية، كاد أن يبكي ولكنه تماسك على قدر مستطاعه.

- والله يا ست حنان لو معايا ما كنت اتأخرت واصل .. بس دول سبع عيال ومش ملاحج

شعرت بالحزن على حاله: معلش يا عم إسماعيل، لو الولاد محتاجين أي حاجه خليهم يطلعولي وأنا مش هاتأخر

صمتت قليلاً ثم أضافت: وأبقى ابعتلي صفوت عايزاه .. ماشي؟

حاول تقبيل يدها ولكنها تراجعت: ربنا يخليكي يا ست هانم، حاضر أول ما يرجع هاخليه يطلع

- طب عن إذنك بقى يا عم إسماعيل

كادت أن تصعد عندما أوقفها مسرعاً: صحيح يا ست حنان، فيه ظرف جه لشجة جنابك وكنت لسه هأطلعه للحاجة

استلمت منه الظرف وحيته صاعدة إلى شقتها.

دلفت إلى الداخل وقلبت الظرف بين كفيها لتجده يخص زوجها السابق.

جاءت الجدة ورأت ما تحمله في يدها: إيه الظرف دا ؟

- دا جاوب كان جاي لخليل

تأففت الجدة: يووووووه بقى، إحنا مش هنخلص؟، دا بقاله أربع سنين ناقل من هنا ولسه بيجيله جوابات ؟؟

تأملت الظرف ثم فتحته لتتأكد: دا تقريباً يخص الشركة اللي كان عايز يشتغل فيها في السعودية ودي كان باعتلها من زمان ودا الرد بتاعها .. كانوا قايلين إنهم هيبعتوا له لما يبقى فيه مكان فاضي عندهم

نظرت لها جدتها وحذرتها: أوعي تقوليلي إنك هتروحي تديهوله !

- أومال فتحته ليه ؟، ما هو ما دام مهم هاوديهوله لو كان مالوش لازمه كنت طنشت أو قولتله على التليفون

- طب اتصلي بيه خليه يجي ياخده ولا إنتي غاوية حرقت دم ؟

- عادي يا تيته، أنا كدا كدا خارجه هأروح أودي الشهرية بتاعت الصدقة

- تعيشي وتفتكري يا حبيبتي

تمعنت في ملامحها ثم قالت بحنو: وحشك ؟

أدارت حنان ظهرها وقالت بتوتر: إيه اللي بتقوليه دا يا تيته، دا واحد متجوز ومخلف من مراته كمان

أمسك جدتها بذراعها: بس دا ما يمنعش إنك لسه بتحبيه ووحشك

تجمعت الدموع بين جفنيها وقالت بصوت متهدج: ما بقاش ينفع يا تيته

ضمته جدتها إلى حضنها وشاركتها دموعها: معلش يا حبيبتي ... إن اللّه مع الصابرين، ربنا هيعوضك خير قريب

ظلت على هذا الحال حتى هدأت، استحمت وبدلت ملابسها ولكنها قررت سماع نصيحة جدتها وهاتفت خليل ليأتي ويأخذ رسالته، أخبرها أنه سيمر عليها بعد أن يُنهي عمله.

سمعت طرقاً على الباب أرتدت إسدالها وفتحت لفتى في السابعة عشر من عمره ببشرة قمحية: أهلاً يا صفوت أخبارك إيه ؟

- الحمدللّه يا ست حنان ... أبويا قالي إنه حضرتك عايزاني خير ؟

- عايزاك تكتبلي أسامي المدرسين اللي عايز تأخد عندهم درس

- ليه ؟

- بص يا صفوت أنت مش عيل وأبوك كمان مش صغير وكفايه عليه هم لحد كدا، أنا هأكلم المدرسين وأتفق معاهم على دروسك والفلوس من جيبي

حاول الإعتراض ولكنها أوقفته: عارفه هتقول إيه، بس اعتبرهم سلفه، أنت ثانويه عامة وكلها سنة وتدخل الجامعة ولما تشتغل بشهادتك هاخد منك الفلوس دي، اعتبرها دين يا سيدي ماشي؟

- بس ...

- ما بسش، أبوك قلقان عليك وهو كفايه عليه اللي هو فيه فخلينا نخف عنه حملك ع الأقل، أنا كلمتك أنت عشان أنت راجل والموضوع يخصك، أبقى قول لأبوك بمعرفتك بقى ولا تحب أنا أقوله ؟

- لا أنا هأقوله .. كتر خيرك يا ست حنان مش عارف أشكرك إزاي

- يلا يلا، ركز في مذكرتك وجيب مجموع كبير وبكدا تكون شكرتني فعلاً

- حاضر، مش هأخلي حضرتك تندمي إنك ساعدتيني

- إن شاء اللّه

- عن إذن حضرتك

- اتفضل

أغلقت الباب ودخلت لتستعد للذهاب إلى الجمعية الخيرية التي تدفع بها صدقة جارية لوالديها عن طريق كفالة الأيتام وغيرها من دروب الخيرالتي تشارك فيها باسمهم أو باسم ابنتها.

****

كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً عندما دق الباب فاتجهت الجدة لتفتحه هاتفة: كل دا يا حنان ؟؟ أنا القلق كان هيموتني

توقفت عن الكلام عندما رأت ذلك الرجل الذي بدأ يخالط شعره الكاحل بعض البياض، صاحب بنية قوية وعيون سوداء، سألها متعجباً: هي حنان مش هنا ؟

عقدت ذراعيها: وأنت مالك ومالها ؟، أظن كل اللي بينكوا أنتهى من أربع سنين من ساعة ما طلقتها وأتجوزت غيرها

تنهد خليل محاولاً تفادي الجدال مع السيدة العجوز: هي راحت فين ؟

تناولت الظرف من فوق الطاولة المجاورة للباب وسلمته إليه قائلة: أنت جاي عشان دا وأديني أدتهولك خده وروح بقى

أضافت: وياريت تبقى تقولهم إنك غيرت عنوانك، عشان مش كل شوية يجلنا جواب لحضرتك

عند تلك اللحظة وصل المصعد لتهبط منه حنان ضاحكة برفقة جارهم وطفله الذي لم يتجاوز الخمس سنوات.

داعبت حنان خصلات شعره الناعمة: ما تنساش تشرب اللبن وما تتعبش بابي معاك

طلب منها الجار برجاء: أه وصيه عليا يا حنان عشان مطلع عيني

نظرت إلى الصغير قائلة: لا نادر شطور وبيسمع الكلام ومش هيزعلك، صح يا ندوره ؟

أومأ نادر بطاعة: أيوه يا ماما حنان

ضمته حنان عندما سمعت كلمة "ماما" من فمه الصغير: حبيبي يا نادر، يلا روح مع بابي بقى

حيا والد نادر برأسه جدتها وكذلك ضيفها الذي مازال واقفاً على الباب رغم استغرابه من رؤيته فهو يعرف أنه زوج حنان السابق.

أمسك بيد ابنه ودخل شقته، ألتقت نظرات حنان مع الشرارات الصادرة من عيني خليل، اقتربت منه وحيته بابتسامة صغيرة: أهلاً ... إزيك يا خليل ؟

أطلعتها جدتها: أنا اديته الجواب بتاعه خلاص

أومأت حنان وقالت لخليل: طب عن إذنك

همت بالدخول إلى الشقة ولكنه أمسك ذراعها بإحكام وقال من تحت ضروسه: مين دا ؟

نظرت إلى يده الممسكة بذراعها مندهشة: سيب إيدي

تركها مكرراً سؤاله: مين دا ؟

نظرت إلى باب الشقة المقابلة حيث أشار: دا جارنا، دكتور بدر

- وسكن من إمتى ؟

أجابته مستغربة أسئلته: بقاله ٣ سنين من ساعة ما مراته ماتت نقل هنا

تحدث بسخرية: اااه قولتيلي، يعني بيدور على عروسة

هتفت بغضب عندما فهمت تلميحاته: لا ما قولتش حاجه، أنا وهو جيران وبس، كمان بأحب نادر ابنه جداً

ثم أضافت: وحتى لو فيه حاجه كدا دا شيء ما يخصكش، أنت بنيت لنفسك حياة جديدة ومستخسر فيا أعمل زيك ؟؟؟

خليل غاضباً: وهو أنا اللي كنت دمرت اللي ما بينا يعني؟؟ ... ولا إهمالي هو اللي ضيع بنتنا مننا ! ... ما تردي !

ترقرت الدموع بعينيها لم تجب على أسئلته بل دلفت إلى الشقة وأغلقت الباب في وجهه بقوة، انزلقت أرضاً تبكي وجدتها تنظر إليها في شفقة؛ فما تكاد تبدأ جروحها في الإلتئام حتى يظهر ما يعيد فتحها من جديد كأن لا فكاك لها من مخالبها.

غادر خليل نادماً على ما قال، ولكن ماذا يفيد الشاه سلخها بعد ذبحها ؟؟!

****

مرت عدة أشهر، تزوجت صديقتها المقربة سلمى من ياسين وغادرت معه إلى القاهره حيث يسكن، متقبلة العيش مع زوجته الثانية، آهٍ كم يجعلنا الحب نتقبل أمور لم تكن تخطر بالبال، لم نكن لنقبل بها إذا سمعنا عنها .. نستهجنها إن أخبرونا أننا سنفعلها.

كرر شادي تقدمه للزواج من حياه لكن والدها كرر رفضه، حاولت زهرة معه لكنه لم يقتنع بأن هذا هو الزوج المناسب لابنته بينما خافت حياه

أن تحدثه فيفهم أن هناك إتفاق بينها وبين شادي أو علاقة ما .. فقررت الإنتظار في حين تدفع شقيقتها للحديث معه لكن بلا أمل.

فقدت حياه بعد فترة قدرتها على الصبر والتحمل وتحدثت مع والدها ليتأزم الوضع بينهما وترتفع أصواتهما في المنزل مما جعل الجميع يجتمعون ليروا ما يحدث.

- يعني إنتي تعرفيه!، خرجتي معاه من ورايا يا حياه ؟؟

توترت حياه ولكنها أجابته بصراحة: أعرفه يا بابا، بس ما قبلتوش غير مرتين تلاته بس

زاد غضبه: واللّه عال وعملتي إيه تاني يا بنت يا محترمة

- واللّه يا بابا ما فيه حاجه إحنا بس اتكلمنا كلمتين وهو قال إنه هيجي يطلبني منك مش أكتر

صفعها والدها بقوة لدرجة أسقطتها أرضاً وأدمت شفتيها: بقى بعد التعب اللي أنا وأمك تعبناه فيكي تيجي إنتي تمرمغي اسمنا ف الطين ؟؟؟

ركضت زهرة تمسك يده باكية تحاول أن تكبح غضبه: يا بابا واللّه ما حصل حاجه

إلتفت إليه والدها بغضب: وهو إنتي كمان كنتي عارفه ؟؟ ... يعني أنتوا شايفني كيس جوافة بقى وما بقاش ليا لزمه

أقبل عليهم محمود: مين قال كدا يا حاج ؟، إيه اللي جرا ؟

نظر إليه والده: أنت كنت تعرف إن أختك على علاقة بالواد بتاع فوج البحث العلمي عشان الأثار اللي في الجهة القبلية من البلد ؟؟

نظر إلى والده وأخته بعدم فهم: لا أبداً، هو في حاجه زي كدا ؟؟

هتف بصوت أرتجت له أركان المنزل: دا اللي قالته الهانم بلسانها دلوقتي

لم يستطع محمود التماسك أيضاً أمام ما سمع فأتجه إليها وهي مازالت مطروحة أرضاً وجذبها من شعرها: بقى إنتي يا حياه اللي تعملي كدا ؟؟؟

ركضت إليه زوجته عائشة تحاول إبعاده عنها ولكن قبضته كانت تشتد أكثرعليها، صرخت حياه متألمه: واللّه مش زي ما أنتوا فاكرين، أنا كلمته كلام عادي واللّه

صرخ بها محمود: وكنتي بتقابليه إمتى وإنتي أصلاً ما بتخرجيش من البيت ؟؟

أكمل: كنتي بتنيمينا في العسل وتخرجي من ورانا تقابليه يا هاااانم ؟؟؟

صفعها: ما تردي !!

أجابته بصوت متهدج يحمل الكثير من الألم: كنت .. كنت بأقابله ... بالليل بعد ما تناموا

رفعت ذراعيها أمام وجهها متفادية الصفعة القادمة، قبل أن يتفوه أياً منهم بكلمة وضع الأب يده فوق قلبه متألماً وأوشك على السقوط.

صرخت زهرة: بااااااااباااااااا

ترك محمود أخته وأتجه إلى والده يسنده إلى أقرب مقعد بينما انتلقت زهرة تهاتف الطبيب وعائشة تعاون حياه على النهوض وتقودها إلى غرفتها.

دخل عصام عائداً للتو من منزل خطيبته بعد أن أخبرته زهرة بأن الأمور أصبحت على ما يرام وقد تفهمت خديجة موقفه.

دلف خلفه أنس فبعد أن انتهى من درسه اتجه إلى أصدقائه ليلعب كرة القدم مما جعله يتأخر عن موعده.

كانت تمر بهذا البيت عاصفة شديدة، ظنها الجميع وقتها أكبر المصائب فلم يعلم أحد منهم أن القادم أعظم بل يجوز أنه الأسوء على تاريخ هذه الأسرة التي كانت -يوماً ما- من أسعد الأسر مجازياً، لأن السعادة أمر نسبي يختلف من أسرة إلى أخرى بل من شخص إلى أخر، فالبعض يجدها في المال والبعض في راحة البال وغيرها من وجهات النظر.

****

انهارت في غرفتها تبكي سوء ظن عائلتها بها، نسيت أن والدها رغم دراسته بالقاهرة وإقامته هناك عدة سنوات إلا أن دمه ما يزال دماً صعيدياً أصيلاً، رجل شرقي يقتله أن يُطعن في شرفه، هذا الشرف الذي يحيا ويموت حفاظاً عليه.

لقد ضغطت على موطن ألم كل رجل ليس فقط صعيدياً بل أيضاً شرقياً مسلماً، ما جرحها حقاً أن والدها وشقيقها ظنا بها السوء، لقد انعدمت ثقتهما بها تماماً.

دخلت عليها عائشة والحزن يبرز من ملامحها: إنتي كويسة ؟

اتجهت إليها حياه بلهفة: بابا عامل إيه دلوقتي؟

- الضاكتور لسه ماشي من عنده، صحته مش عال واصل، كانت هتچيله چلطة بس الحمد للّه الضاكتور لحجُه هو محتاچ راحه وإن مافيش حاچه تزعچه مش أكتر وهيبجى كويس إن شاء اللّه.

جلست حياه على طرف فراشها تبكي بحرقة، ضمتها عائشة تحاول التخفيف عنها، اندفع الباب مفتوحاً على مصرعيه نتيجة دفع محمود له بشدة أوشكت على كسره، دلف وعينيه تقدحان شراً.

أمر عائشة بالخروج وقال لحياه: إنتي هتفضلي محبوسه هنا وحسك عينك تفكري تخرجي وإلا قسماً باللّه العظيم لأكسر رجلك وأرميكي لكلاب السكك اللي عشقتيلي واحد منهم !

غادر ساحباً زوجته معه بعد أن أخذ منها هاتفها وأي وسيلة قد تحاول الوصول بها إلى شادي، سمعت حياه دوران المفتاح في الباب، لقد انتهى بها الأمر سجينة غرفتها.

****

مرت أربعة أيام، بدأ فيها فاروق يتعافى ولكن ببطء شديد لا يلحظ، كان البيت يسوده الحزن على ما وصل إليه الأمر.

توقفت حياه عن الحياة، لا تتناول إلا بضع لقيمات تساعدها على العيش لعدة دقائق وربما ساعات لا غير.

أشفقت زهرة على عذاب أختها لكن لم تستطع فعل شئ، أضطر عصام أن يسافر إلى أمريكا كما رتب حتى ينهي موضوع رسالته أملاً في إنتهاء الوضع قبل أن يستطيع أخذ أجازة.

دخلت عائشة إلى غرفة حياه تحاول أن تشجعها على تناول غداءها بينما حياه لا تفكر إلا بالغضب مما يفعله والدها وشقيقها بها.

ظلت تفكر أن الجحيم أفضل مما هي فيه، لم يحاول أياً منهما التحدث إليها أو فهم حقيقة الأمر منها، غضبها وحنقها عليهما يزداد يوماً عن يوم.

سمعت عائشة بكاء الصغيرين فتركت حياه متحسرة على حالها، لم تلحظ أنها نسيت هاتفها المحمول فوق الفراش فقد كانت تتحدث به قبل أن تدلف إلى حجرة حياه وذهب ولديها بعقلها وتركيزها.

لمعت عيني حياه ببريق مفاجئ وأمسكت الهاتف تدق أزراره متصلة بمن فرقوها عنه وقد حفظت أرقامه عن ظهر قلب: ألو

أتاها صوته ليعيد الدموع إلى عينيها بعد أن ظنت أنه أصابها الجفاف: ألو

- حياه ؟

- أيوه أنا ، إزيك ؟

ضحك بسخرية: دا قصدك بعد ما أخوكي هددني إني لو ما مشتش من هنا هيقتلني ولا بعد ما ضربني علقة لسه خارج بسببها من المستشفى؟؟

صرخت بفزع: إيييه؟؟ هو عمل فيك إيه ؟

- لا أبداً ضربني علقة موت بس

- أنت كويس ؟

- لسه أهو شوية رضوض بس، قولتلك مافيش فايده وإننا نهرب دا أحسن حل ما صدقتنيش !

- أنا أسفة

- المهم إنتي عملوا فيكي إيه ؟

- حبسوني في الأوضة مش بيخرجوني منها

- صحيح دا تليفون مين ؟

- دا موبايل عيشه مرات أخويا

- أها ، طب هتعملي إيه دلوقتي؟

- مش عارفه

- أنا هأقولك عرضي دا لأخر مرة .. أهربي معايا

- بس ...

- أنا مش هأصر عليكي أصلاً الكلام بعد اللي حصل دا مالوش داعي، لو عاجباكي أوي بهدلة أهلك ليكي وحبستك دي براحتك، بس ع العموم إنهارده الساعة ٩ بالليل أنا راجع القاهرة تاني، لو غيرتي رأيك إنتي عارفه مكاني ... سلام

- ألو ... ألو ... شادي !

نظرت إلى الهاتف بعد أن أدركت إغلاقه للخط، ظلت تفكر مرراً في عرضه، هل تقبل أم لا؟، لقد ظن بها أهلها الأسوء رغم أنها رفضت الهروب معه ولكن ما جدوى رفضها، لقد أبى والدها إعطاءه فرصة كما منعها شقيقها أن تمارس أبسط الأمور مكتفين بحبسه فقط، لا يخاطبها في حبسها سوى عائشة التي تأتي إليها خلسة في عدم وجود محمود حيث يمنعها من الحديث إليها .. وزهرة التي ما عاد حديثها يُترك أي أثر في نفسها، وأنس ذلك الطفل الذي يدخل ليرى حالتها فيسرع بالمغادرة مخفياً الدموع التي تتجمع في مقلاتيه.

حزمت قرارها، سترحل عن هذا المنزل حيث لا يقدرها أحد، لقد أصبح هذا المنزل كالجحيم، لم يراع أحد مشاعرها ولا سعادتها فلماذا تراعيهم هي؟، نهضت تضب بعض الأغراض في حقيبة صغيرة وتفكر في طريقة للتغلب على أسرها.

لم تعلم ما ينتظرها من هوان، وأن الجحيم في منزل أهلها أفضل من الجنة في بعدهم، لم تفكر لحظة في قرارها وأن الجحيم الحقيقي هو ما تستعد

له الآن بكل حماس، أوِ لو يسبق الإنسان الحاضر بعقله مُفكراً بعواقب الأمور قبل إرتكابها لكان وفر على نفسه عذاباً وحمى نفسه من مُر الهموم، لكن بالنهاية يحدث ما كُتب له الحدوث فلا يقف أمام القدر مخلوق، فقد شاء اللّه وأمره نافذ لا نملك أمامه شيئاً سوى أن يجنبنا اللّه الندم الملعون.

****

تقلبت حنان في سريرها لا تستطيع النوم، تحارب الأرق منذ ساعات ولكنه يأبى الإنهزام، جلست في فراشها وبدأت تسرح في ذكرياتها التي لا تتوانى عن العودة إليها بكل فرصة.

كانت في السنة النهائية عندما حضرت زفاف صديقة لها، هناك في ذلك الزفاف حيث قابلت خليل، حاول التقرب منها ولكنها صدته، حادثها دفعته، تغزل بها فنهرته، كل ذلك وهي تخفي عنه بين ثنايا قلبه أنها عشقته.

ظل يحوم ويدور حولها حتى علم عنها كل صغيرة وكبيرة، في النهاية تقدم لخطبتها وعندما أطلعتها جدتها على طلبه كادت تفقد وعيها من السعادة.

وافقت عليه بعد أن استخارت ربها، فهي تستخيره في كل صغيرة وكبيرة في حياتها؛ فكيف لن تفعل في أهم قرار مر عليها في ذلك الوقت ؟!،

إزداد حبها له كلما عرفته أكثر، تزوجا وعاشا في منزل منفصل عن جدتها وكان هو يتيم الأبوين.

بعد زواجهما بعدة أشهر تعبت جدتها من الوحدة وعدم وجود من يتابعها وتثق به، حينها أقنعت حنان زوجها بالإنتقال والعيش مع جدتها وبعد ذلك بفترة اكتشفت حملها.

كادت أن تحلق .. لا لا إنها حلقت بالفعل عندما تأكدت من الخبر، سترزق بمولود من حبيبها، ذلك الذي سرق قلبها سيهبها الله منه ذرية ونسخة عنه، صلت عدة ركعات شكراً لله على هبته لم يوقفها سوى إرهاق قدميها وإجبار خليل لها على إلتزام الراحة التامة والهدوء اللازم.

لقد غمرته السعادة الشديدة، لم تره يوماً بهذه السعادة، يا تُرى هل شعر بذلك أيضاً عندما علم بحمل زوجته الأخرى؟

تذكرت كيف مرت الأيام سريعة وأنجبت طفلتها، مرت أربعة أعوام حتى أتى ذلك اليوم المكلوم .. يوم عيد ميلاد صغيرتها.

صحبتها معها لتشتري ما يخص الحفلة فجدتها أصابها الزكام ولا تستطيع رعاية نفسها فكيف بطفلة صغيرة .. توسلت لخليل أن يحضر هو الأغراض لكنه رفض.

- طب خد إنهارده أجازة وجيب الحاجه مافيهاش حاجه يعني دا يوم

- عندي شغل كتير يا حنان مش فاضي

أنهى إرتداء حذاءه واتجه للخارج حيث تلعب طفلته، قبلها بحب ونظر إلى حنان مقترحاً: خديها معاكي، بنوتي حبيبتي مش بتتعب ماما مش كدا ؟

هزت رأسها نفياً بحركة طفولية: تؤ ... مامي حبيبتي أنا

ضحكا معاً، قبلته حنان مودعة: أصلاً شكله مافيش حل غير كدا

ألبستها وأخذتها برفقتها إلى التسوق، بدأت تختار الأشياء وهي تجلس في عربة التسوق حتى وصلت إلى قسم المحاسبة وقفت تحاسب الموظف، سلمته المبلغ المطلب واستدارت تحمل الأغراض وتنظر إلى المكان الذي كان ابنتها تحتله ولكنها لم تجدها !

ظلت تبحث عنها حولها بعينيها ولكنها لم ترها، سألها الموظف إذا كان هناك خطب ما، فأخبرته عن إختفاء ابنتها .. أسرع يطلع الأمن وظلوا يبحثون عنها.

اتصلت بخليل باكية تسرد عليه ما حدث وفقدانها أثر ابنتهما، أتى إليها مسرعاً لكن لم يضف مجيئه شيئاً سوى اللوم والضغط على أعصابها أكثر.

عادا إلى المنزل بعد ساعات من البحث المتواصل دون أدنى نتيجة، تكاد هي تنهار من الحزن، صرخ بها: إنتي إزاي تسيبيها تغيب عن عينيك ؟

- واللّه يا خليل هما ٣ دقايق بس واللّه

- ٣ دقايق لطفلة كانهم ٣ ساعات، دا إهمال منك

- طب كنت هأعمل إيه يعني ؟، ما أنا كان لازم أحاسب الكاشير

- المفروض إنك أم ومتعودة تتصرفي، أومال الأمهات اللي في الدنيا بيعملوا إيه وبيحفظوا على ولادهم إزاي ؟!؟

- ما أنت لو كنت قعدت معاها اليوم دا أو كنت جبتلي الطلبات ما كانتش حاجه من دي حصلت !

- إنتي عايزة تلبسيني أنا المسئولية يعني؟

- لا عايزه ألبسهالك ولا حاجه بس عايزاك تعرف إني زي ما غلطت أنت كمان غلطت

نظر إليها بغضب ثم تركها ورحل.

ظلت بينهما حالة من الصمت حتى مر عام على إختفاء ابنتهما ولم يتم العثور على أي أثر لها، كانت تقضي يومها في الدعاء لها، تطلب من اللّه أن يحميها ويحفظها، يوقعها بطريق من يحبها ويخاف عليها.

وفي يوم جاء خليل طالباً منها إجراء حوار عاجل، أخبرها أنه لم يعد يستطيع، لقد تعب من حياته معها، لا يقدر على النظر في وجهها دون أن يتذكر ما حدث لطفلتهما، أنها السبب في ضياعها.

أنتهى الحوار بإطلاقه عليها يمين الطلاق لتصلها في اليوم التالي ورقة طلاقها مؤكدة ما حدث في قبلاً.

بكت وأنهارت أكثر .. عاونتها جدتها على الخروج من الأزمة، شجعتها على البحث عن حلمها الذي تخلت عنه بإرادتها، كان حسناً أنها طاوعتها؛

لقد وجدت ملجأها بين الأطفال فكانت ترى في كل طفلة ابنتها وفي كل طفل الولد الذي تمنت أن تنجبه في وقتٍ لاحق.

سمعت بعدها بحوالي الشهر أنه تزوج، ضحكت وقتها ساخرة، لقد رتب حياته من جديد، نسي ابنتهما فلم يعد يحرك ساكناً في القضية الخاصة بها، رغم جرح قلبها لزواج من أحبت من غيرها وكذلك إنجابه منها إلا أنها تمنت له السعادة، ووهبت حياتها للدعاء حتى يدلها العالم الخبير على مخبأها، فثقتها بالله كبيرة وأنه سيرد لها فتاتها يوماً ما.

مسحت دمعة فرت من عينها ونهضت تتوضأ وتصلي قيامها كما اعتادت.

****

دخل أنس الغرفة يزور شقيقته ويرى كيف صار حالها، رأت فيه فرصتها في الهروب، أقنعته أن يساعدها بالحصول على المفتاح الخاص بغرفتها دون توضيح الغرض من ذلك.

رفض في بادئ الأمر ولكنها أقنعته بطريقتها الخاصة وبإصرارها المستمر، استسلم في النهاية وأخبرها أنه سيحاول لكنه لا يعدها بالنجاح.

رضيت هي بذلك متأكدة من نجاحه، فلا أحد من عائلتها يحاول في أمر ويتركه دون أن ينجح به؛ فإما أن يناله وإما لا يحاول من الأساس؛ هم لا يقبلون الفشل.

في تمام الثامنة والثلث، دخل إليها أنس وقد حصل على المفتاح، قبلته شاكرة وتناولت حقيبتها الصغيرة التي سبق وأن أعدتها فور انصرافه؛ فلقد خاف من بطش أخيه إن رآه.

تسللت إلى الخارج فقد اعتادت على ذلك، وانطلقت تركض بعباءتها السوداء والحجاب الأسود ، تقاوم كلما تعثرت حتى تلحق به قبل أن يرحل.

وصلت إليه وكان على وشك الرحيل، رآها فترجل من سيارته وانتظرها حتى وصلت إليه، رأى الحقيبة التي تملكها فعلم أنها قررت أن تختاره أخيراً، ابتسم في سعادة وحاول أن يضمها لكنها دفعته بعيداً بغضب.

- لا

أومأ متفهماً وحمل عنها حقيبتها وساعدها على الصعود إلى مقعدها بجواره، انطلق بسيارته الجيب ينهب الطريق بسرعة، كان ذهنها مشتتاً رغم وثوقها في صحة قرارها في البداية إلا أنها الآن تشعر أن ما أقدمت عليه سيجعلها تندم لما بقي لها من حياة .. مما جعل الخوف يتسرب إلى قلبها ولكن هيهات فهي لم ترجع عن قرار أتخذته من قبل ولن تتراجع الآن.

توقف شادي في استراحة على جانب الطريق ليعيد تعبأة الخزان بالوقود وانتهز الفرصة لإحضار بعض الطعام فمازال أمامهم الكثير قبل الوصول إلى القاهرة.

رأته يتحدث إلى الهاتف ولكنها لم تهتم فقد عادت تشرد فيما فعلت، ظلت تطرح على نفسها العديد من الأسئلة دون أن تجد لها إجابة شافية، هل

علموا بغيابها الآن ؟، ما رد فعلهم على إختفاءها ؟، هل سيحزنون لفراقها أم سيعتبرونها كأنها لم تكن؟ ...

أفاقت عندما وضع شادي أكياس الطعام والشراب فوق فخذيها طالباً منها تناول بعضها فيبدو أنها لم تذق الطعام منذ عدة أيام.

تنهدت بقوة وبدأت تأكل رويداً رويداً ولكن المحصلة في النهاية أنها أنهت كل الطعام؛ كأنها تعمل على تخزينه ليفيدها خلال الأيام المقبلة.

****

دخل إلى الغرفة المخصصة له في السكن، ألقى جسده فوق الفراش لا يستطيع حتى نزع حذاءه، اتجه إليه شريكه في السكن فزعاً من مظهره وحالته التي تتدهور يوماً عن يوم.

- إيه اللي حصلك يا حمزه ؟؟

أجابه بتعب دون أن يفتح عينيه: مافيش حاجه .. مجرد إرهاق

نهره صديقه بغضب: دي مش طريقة شغل، أنت لو عايز تنتحر مش هتعمل ف نفسك كدا

أولى ظهره إلى صديقه قائلا بتأفف: يوووه أنت وماما عليا يا مُسعد !

- ما هي ليها حق طبعاً، أومال لو شافتك كدا دلوقتي هتعمل فيك إيه ؟؟

- طب سيبني أنام دلوقتي

- يا ابني أنت لا أول ولا أخر واحد ف الدنيا خطيبته هتسيبه عشان لاقت واحد تاني معاه فلوس وجاهز

أكمل: طب أحمد ربنا إنها جت على قد خطوبة وما وصلتش للجواز

انتفض حمزه ونسي النوم الذي كان مسيطراً عليه، هتف بغضب: أنا كنت قتلتها

ربت مُسعد على كتفه: طب الحمدللّه إن ربنا نجاك منها بسرعة، بلاش تعاقب نفسك على حاجه مالكش ذنب فيها

فرك وجهه ورأسه: المشكلة إني كان ممكن أبقى جاهز من أول يوم شوفتها فيه بس أنا مكنتش حابب أعتمد على أبويا، كتر خيره إنه علمني وكبرني كمان هو اللي هيجوزني زي البنات ؟؟، أساساً حمل نجلاء مش سهل، لحد دلوقتي بابا بيساعدهم من وقت للتاني، كنت عايز ابدأ حياتي معاها بمجهودنا إحنا بس هي ما قدرتش واختارت الطريق السهل.

- ما تندمش أنك عرفت شخص وطلع مش قد توقعاتك وثقتك فيه ... لإنه دا هينمي عندك خبرة في الحكم على الناس ع المدى الطويل، يا سيدي أديك كسبت معرفة الشخص الواطي بيبقى عامل إزاي !، وعلى فكرة الحكاية دي مش بالساهل ها !

أضاف بجدية: وخلاص زي ما باعتك بعها والبادي أظلم زي ما بيقولوا ولا إيه يا باشمهندس؟

ابتسم حمزه بهدوء: معاك حق يا صاحبي

- يلا بقى قوم خد دوش عشان الساعة داخله على أربعه الفجر، وعقبال ما تخلص يكون الفجر أدن نصليه مع الجماعة بره وبعدين نريحلنا ساعتين قبل الشغل

نهض ينفذ ما أخبره به صديقه وبينما يضع رأسه أسفل الماء المتدفق من الكوب حيث لا يوجد في موقع العمل ذاك نفس الرفاهية المتاحة بالمدن والقرى عقد العزم على أن يخرجها من عقله نهائياً فهي حقاً لا تستحق أن يفكر بها حتى ولو بالسوء.

****

كانت الساعة تدق الخامسة صباحاً عندما وصلوا إلى القاهرة، انطلق إلى المنزل حيث يعيش وكانت حياه قد هيمن عليها سلطان النوم فلم تستطع منه فراراً.

كان المنزل ليس مجرد شقة بل إنه يمثل فيلا تحتل قطعت أرض ليست بالصغيرة بل متوسطة لكنها تقع في منطقة معزولة ... فلا يحيطها سوى حديقة يبدو من مظهرها أنه يتم الإعتناء بها جيداً، وأقرب منزل مجاور على بعد لا يُستهان به.

لم يرد إيقاظها بعد أن صف سيارته في جراج المنزل الخاص؛ فحملها بهدوء إلى الداخل وجعلها ترقد على أحد الأسرّه، لم تشعر بشئ بل استمرت في نومها هانئة.

****

انتهى الطبيب من فحص الطفلة مبتسماً بحنان، ناولها قطعة حلوى صغيرة لتتسلى بها في الخارج مع الممرضة بينما ينتهي من حديثه.

سأله أحمد: خير يا دكتور؟

تنهد الطبيب: مع الأسف لسه مافيش تحسن ف حالتها

سقطت دمعة من عين سمية وهي تسأل: يعني مافيش أمل ترجع تتكلم تاني؟

- الأمل مش بيموت يا مدام سمية، وطول ما في رب اسمه كريم يبقى أكيد فيه أمل، بس الفرق إنه التحسن دا هيحصل إمتى ... فاللّه به أعلم

سمية: بس مش طبيعي لطفلة ف سنها إنها ما تتكلمش، تروح المدرسة وترجع مش بتحكي إيه اللي بيحصلها، ولا صوت ضحكتها بنسمعه

لخص زوجها ما تريد قوله: يعني من الأخر البنت عايشه سن مش سنها، وشايله هموم أكبر من عمرها

نهض الطبيب من مقعده خلف المكتب ووقف يحدثهما مفكراً: اللي البنت مرت بيه نفسه كبير على عمرها، رد فعلها جه بردو كبير، بس أرجع وأقول الحمدللّه فيه حالات تانية بيحصلهم رد فعل أفظع من كدا، فعلاً حالات لا يعلم بيها إلا ربنا.

تمتمت سمية: ربنا يشفي كل مريض ويصبر أهله

رددا خلفها: أمين

سأل أحمد: طب والعمل دلوقتي يا دكتور ؟

الطبيب: هي محتاجه حب وإهتمام، كمان محتاجه حاجه تقدر تخرجها من الحالة اللي هي فيها ويكسر القوقعة اللي محاوطه نفسها بيها

تساءل الزوجان في عدم فهم: إزاي يا دكتور؟

- الحاجه إيه هي بالظبط مش عارفها، بس حاجه أو حدث يخليها تتخلى عن موقف عدم الكلام اللي واخداه حاجز بينها وبين اللي حواليها، حاجه ما ينفعش تتحل إلا لو اتكلمت

- ودا نعمله إزاي؟

عاد إلى مقعده وأمسك قلمه يخط بعض أسماء أدوية: خلوها تاخد العلاج دا بانتظام وربنا يسهل، لما يجي أوان شفاها أكيد هتلاقوا الحاجه دي حصلت تلقائي

تناول أحمد الورقة من يد الطبيب ونهض برفقة زوجته، اتجها إلى الممرضة شاكرين لها اهتمامها بالطفلة ثم صحبوها معهم عائدين إلى المنزل.

****

تقلبت في نومها وفتحت عينيها على مهل، رأت سقفاً مزخرفاً وحوائط عاجية اللون، انتفضت .. هذا ليس بمنزلها فأين هي ؟؟؟، تحسست رأسها

لتجد حجابها الأسود كما هو؛ لقد انزاح قليلاً جراء نومها لكنه ما زال فوق رأسها، نهضت ترتدي خفيها خارجة لتبحث عن شادي فهو أخر من كانت معه.

تلمست طريقها إلى الغرفة التي سمعت صوت التلفاز يصدر منها، رأت شادي يجلس أمام الشاشة مستمتعاً بالفيلم الكوميدي المعروض لكن ما أدهشها أن هناك ثلاث فتيات يجلسن إلى جواره، إحداهن ملتصقة به ويدها تسريح على كتفه قطبت جبينها متسائلة عن هوية تلك الفتاة.

لاحظت فتاة من الأخرتين وقوفها على الباب فنادت على شادي لتلفت نظرها إليها.

نهض شادي فور رؤيته لها دافعاً بيد الفتاة بعيداً: أخيراً صحيتي ؟؟ كل دا نوم يا مفترية ؟

سألته بهدوء: هي الساعة كام ؟

أجابها بعد أن نظر إلى ساعة معصمه: الساعة ٣ العصر

فغرت فمها في دهشة: أنا نمت كل دا ؟؟

ابتسم: ما يهمكيش، المهم إننا مع بعض دلوقتي

هبت الفتاة التي كانت تجلس إلى جواره وقالت ساخرة: مش هتعرفنا يا شادي؟

قدمها لهم وبدأ بتعريفهم عليها، أشار إلى من شغلت بالها أكثر: دي جميلة أختي التوأم، فعشان كدا هتلاقينا قريبين من بعض جداً

نظرت إليها حياه مستغربة، كيف تكون توأمه وليس بينهما أي وجه للتشابه فهي ذات شعر أشقر وإن كان مصبوغ عيون خضراء ولكنها أيضاً صناعية، نفضت عن رأسها هذه التساؤلات فلا يبدو أن ما تراه هو حقيقتها لتستطيع الحكم .. كما أن أغلب التوائم لا يشبهون بعضهم فعلياً.

أشار إلى التي تليها وكانت فتاة بيضاء الوجه سوداء الشعر والعينين، شعرها شديد النعومة والإنسياب على عكس شعرها المجعد، لم يدهشها إعلانه أن نيفين هي شقيقته الوسطى لكن ما أدهشها حقاً نظرة الشفقة الممزوجة بالحزن التي رأتها في عينيها.

نزعت عينيها عنها قصراً لترى أخته الثالثة والصغرى إنها فتون وكانت حقاً تحمل من اسمها الكثير فعينيها رمادية كعيون القطط البرية ورموشها طويلة تضيف إلى جمال عينيها سحراً لا يقاوم، كل هذا يصحبه بياض البشرة وشعر بني في جذوره ويميل إلى الذهبي عند أطرافه.

هؤلاء هن شقيقاته، لم يخبرها عنهن من قبل لكن لم يجمعهم شيء مشترك، فلا واحدة تشبه الأخرى ... لا بل يتشابهن، فثلاثتهن يرتدين ملابس قصيرة تستحي هي من التفكير في شراءها حتى، فواحدة تلبس فستان لا يصل إلى منتصف ركبتيها والأخرى ترتدي قميصاً صبيانياً فقط، أما أكثرهن احتشاماً فكانت نيفين حيث كانت ترتدي بنطال يتجاوز ركبتيها بقليل وفوقه تي شيرت بنصف كُم.

أشار لها لتجلس قائلاً: بصي بقى إنتي هتفضلي قاعدة هنا معاهم لحد ما نشوف حل ماشي؟

نظرت إليه مستفسرة: أنت لسه هتشوف حل ؟، ما الحل موجود

سألتها جميلة بسخرية: وإيه هو بقى يا سنيورا ؟؟

تجاهلت سخريتها مجيبة: إننا نتجوز

صرخت جميلة: نعم ياختي ؟؟

أومأ لها شادي أن تهدأ والشرار يتطاير من عينيه لتصرفها: استني يا جميلة، بصي يا حياه الجواز مش بالسهولة اللي إنتي فكراها دي

تحدثت بتحدي: ليه يعني ؟ أنا عندي ٢٣ سنة يعني مش قاصر وأقدر أتجوز اللي أنا عايزاه وموافقة بظروفك إيه اللي يمنع بقى ؟

- اللي يمنع إنك لسه ما تعرفنيش كمان لسه ما رتبناش أمورنا ولا اتعودتي ع الجو اللي هنا، كمان عندي شغل ضروري لازم اعمله

شعرت بالمهانة وأن كبرياءها قد اندهس فنهضت من مقعدها، قائلة بتماسك: خلاص يبقى أنا ماشيه من هنا ولما بتبقى تخلص اللي وراك، واللي يمنعنا من الجواز يختفي أبقى دور عليا

أمسكها من ذراعها ضاغطاً على أسنانه: هتروحي فين ؟

هزت كتفيها بلا مبالاة: ف أي حته مش فارقه

نظر شادي إلى فتون لتتحدث وتحاول إقناعها، أومأت واتجهت إلى حياه مبتسمة: طب وليه ما تقعديش معانا هنا يا حياه ولا إحنا مش عاجبينك ؟

- لا طبعاً، هأقعد معاكوا إزاي وفي واحد غريب هنا ؟

شادي مدعياً الحزن: بقى أنا غريب يا حياه ؟

أومأت بثقة: مادام مافيش رابط حقيقي بيني وبينك تبقى غريب

أمسكت جميلة بذراعه: خلاص روح خلص شغلك أنت يا شادي ولما ترجع تبقوا تتجوزوا، وأهو إحنا بنات بس اللي هنا هترفضي تقعدي معانا بردو ؟

أسرع شادي: هما يومين .. أظبط الشغل وأرجع نتجوز على طول

فتون بتوسل: يلا بقى يا حياه بلاش تزعلينا منك

مررت نظراتها بينهم بالتساوي حتى توقفت عند تلك العيون الصامتة التي تنصحها بأن ترفض بل تخرج من هذا المكان فوراً، ألا تستسلم لتوسلاتهم، لكنها لم تفهم كل تلك الكلمات فليس لديها الخبرة الكافية في لغة العيون كل ما استطاعت رؤيته تلك النظرة الحزينة المشفقة عندما نطقت بموافقتها على عرضهم.

تهلل وجه شادي بالأخص وقرر أن يحضر غداءاً فخماً للأحتفال بهذه الليلة، معتبرها حفلة خطبتهما.

****

أسرعت الخطى في طريقها إلى المدرسة، إنها المرة الأولى التي تتأخر فيها إلى هذه الساعة فالساعة الآن تتجاوز الثامنة والنصف، لقد تأخرت في نومها بسبب انشغال بالها مما جعل النوم لا يصل إلى جفونها حتى وقت متأخر من الليل.

حيت الحارس، الذي يحمي أعراض الكثير من العائلات بدءاً من الطالبات وصولاً إلى المعلمات، مع ذلك يتقاضى مجرد فتات، بل يصل ببعض الأهالي أن يلقوا عليه بعض الكلمات الحادة والحديث الذي يسم البدن كما يقولون.

سخرية القدر هي أن يكون شخص مثله يتقاضى بضعة قروش نهاية كل شهر، بل إنه إذا مرض أو لم يتواجد ليوم واحد خُصم ذلك من راتبه الذي لا يرقى ليكون راتباً من الأساس بينما أخر وظيفته أن يجلس خلف مكتبه دون فعل شيء في مكان كان غيره أولى به لكنه حصل عليه بالوساطه وتدخل أصحاب النفوذ الذين يعرفهم فيتقاضى أجراً بالألاف إن لم يكن أكثر على عمل يكلف به غيره ليقوموا به.

طرقت على باب غرفة المديرية لتعتذر لها عن التأخير، لكنها وجدتها تقف أمام طفلة وتقوم بتقريعها على تأخرها المستمر.

- أنا مش عارفه أهلك فين، لا حد بيسأل عنك ولا حاجه، كل يوم تأخير مافيش يوم تيجي ف معادك

وقفت الطفلة تضم كفيها وتنظر أرضاً قائلة: أسفة يا أبله مش هأكررها تاني

المديرة بصرامه: كل مرة تقولي كدا وترجعي تتأخري، كل مرة باعديها لكن المرة دي مش هتعدي ، اتفضلي روحي بيتك ولو باباكي أو مامتك ما جوش مش هترجعي هنا تاني، إنتي فاهمه ؟؟؟

بكت الطفلة متوسلة: والله يا أبله أخر مرة، عشان خاطري مش هأعملها تاني

أشفقت حنان على الطفلة فتدخلت: خلاص يا مدام سناء، هي مش هتكررها تاني

نظرت لها المديرة بتعجب: هو إنتي تعرفيها يا حنان ؟، بعدين البنت دي من أول السنة وهي ع الحال دا

حنان مبتسمة: على ضمنتي المرة دي يا مدام سناء

نظرت المديرة لوجه الطفلة الغارق بالدموع وطلب حنان الأول منها، وافقت فهي تحترم حنان بشدة وترى فيها نفسها أيام الصبا.

أومأت حنان للمديرة شاكرة ثم تناولت يد الطفلة وصحبتها معها، أوقفتها على باب فصلها الذي أخبرتها عنه ثم هبطت لمستواها تمسح الدموع من فوق وجنتيها الشاحبتين.

ابتسمت: ادخلي احضري الحصة بتاعتك وف الفسحة تعاليلي الأوضة بتاعت المدرسات ماشي؟

أومأت الطفلة في صمت وتركتها، نظرت إليها حنان بحزن فيا ترى ما سر الحزن الدفين في عينيها اللوزيتين .. فمن المفترض ألا تعرف سوى الفرح والمرح.

****

ليس كل ما يهواه المرء يناله، تأكد لها هذا عندما أخبرها الطبيب بأنها ليست حاملاً، وأن العلاج لم يؤثر بها حتى الآن، جلست على مقعد في حديقة عامة ترى الأطفال يركضون هنا وهناك، لقد حرمها اللّه من نعمة الأمومة، لم يكن لها ذنبها ولكنها تخاف أن يحملها زوجها حملاً أكبر من قدراتها على الاحتمال.

هو الآن لا يعترض لا يلومها لكن في المستقبل عندما يبدأ التعب في التمكن من جسده والمرض يظهر على السطح وعمله يزداد اتساعاً، وقتها هل حقاً لن يتمنى أن يرزقه المولى تعالى بطفل حتى وإن كان من غيرها؟

عند هذه الخاطرة شعرت بالغيرة تنهش قلبها، لا يمكنها أن تتحمل امرأة أخرى في حياة زوجها، أن تلمسه ويلمسها، تقبله ويقبلها، يضحك لها وتبادله الضحك، إنه زوجها هي من حقها وحدها.

نهضت بتكاسل فيجب عليها العودة لتستعد لاستقبال زوجها، ستوليه المزيد من العناية حتى لا تدع له مجالاً للتفكير بالزواج من أخرى.

في خضم ظنوننا ننسى مشاعر غيرنا، أن ما نظن أنه سيعجبه في الحقيقة قد لا ينال رضاه، فاذا كان الحب عامراً بينهم يبدأ الكتمان والصبر في الظهور، ليتحولا في وقت لاحق إلى ضغط، ولكن لن يستمر الضغط والكبت طويلاً حتى يولدا الإنفجار لكن ليس كأي انفجار، إنه انفجار يتحول فيه الظالم إلى مظلوم والغالب إلى مغلوب.

****

مر أسبوع كامل على غياب شادي، كانت تفكر في عائلتها وما يحدث لهم الآن لكن ما الجدوى لقد ظنوا بها ما ظنوه فلا إختلاف الآن.

الشك تسرب إليها، شادي يتهرب من الزواج بها، لم تحب يوماً أن تحكم على الشخص بدون دليل، اتخذت قرارها ستتحدث إليه عندما يعود اليوم مساءاً فإذا لم يعد يرغب في الزواج منها فلترحل عنه.

نظرت في المرآة متعجبة، إنها لا تهتم إذا تزوجها أما لا، كيف ذلك وهي من المفترض أنها تحبه.

جلست على الأريكة الموجودة إلى جوار النافذة، لقد قرأت أن من يحب لا يستطيع العيش بعيداً عن حبيبه، كم من بطل وبطلة قاموا بالانتحار عندما فقدوا من يحبون، لماذا هي لا تشعر بأنها إذا ابتعدت عنه ستختنق أو كأن روحها ستقتلع من داخلها.

"يبدو أني لم أكن أحبه من الأساس، نعم .. لقد كان تحدياً لأن أبي رفض أي علاقة تربطني به وسجنني أخي في غرفتي يمنعني عن رؤيته، إذا تركا لي مطلق الحرية لكانت فسخت خطبتي لشادي الآن".

لقد اتفقت كل من حياه وسلمى على زواج الحب، ليس زواجاً تقليدياً كما حدث للعديد من صديقاتهم، حققت سلمى ذلك بغض البصر عن طريقته وزواجه الأخر.

يجب أن تحادثه بجدية، ستخبره حقيقة مشاعرها، لم تعد ترغب في الزواج منه، فليعيدها إلى عائلتها أو يسمح لها بالرحيل .. هم بالنهاية أهلها سيغضبون منها في البداية لكن سيسامحونها بالأخير.

ابتسمت بسعادة عندما فكرت بعودتها إلى منزلها، حقاً لم يكن يجب عليها الرحيل، ما كان هناك من داعي للعناد ووضع تحديات ليس لها أساس من الصحة، أعدت حقيبتها وقد أحكمت فكرة العودة برأسها ثم جلست تنتظر عودته.

****

رفعت حنان نظرها عن الدفاتر التي تقوم بتصحيحها، وجدت الطفلة التي قابلتها في غرفة المديرة تقف على بُعد خطوات من مكتبها مترددة في التقدم أكثر.

تركت ما بيدها ونادتها لتقترب، سألتها: قبل ما نتكلم ف أي حاجه مش تقوليلي اسمك بقى عشان أعرف أنادي عليكي ولا إيه ؟

همهمت الفتاة: سمر

ابتسمت حنان: عاشت الأسامي يا سمر .. ممكن بقى تقوليلي إيه اللي بيخليكي تتأخري دايماً ع المدرسة ؟

تجمعت قطرات الدمع في عيني الصغيرة ولم تجب، أشفقت عليها حنان وحاولت أن تساعدها على الحديث: تعرفي، أنا إنهارده اتأخرت على المدرسة بردو، أول مرة أعملها .. عارفه إيه السبب ؟

نظرت لها سمر بحيرة وترقب فتابعت شاعرة بالإنتصار لأنها لفتت ذهن الطفلة إليها: عشان تيته اللي كانت بتصحيني كل يوم إنهارده راحت عليها نومه هي كمان وعشان أنا نمت متأخر بليل مش زي كل يوم بدري

تمتمت الفتاة بحزن: ما أنا ماما ماتت فمافيش حد بيصحيني بردو

كأن قبضة حديدية اعتصرت قلب حنان حتى أدماه، لا يا صغيرتي ماتزالين صغيرة على هذا الحزن وهذه الفرقه.

تمالكت دموعها وهمسن بحنان دفاق: أنا ماما ماتت بردو وأنا صغيرة بس ما زعلتش .. عارفه ليه ؟

سألتها سمر بتعجب: ليه ؟

ربتت على شعرها: عشان أنا عارفه إن هي راحت عند ربنا، وربنا هيخلي باله منها أكتر مني ويدخلها الجنة، هتبقى مرتاحه من المشاكل والزعل، هتبقى قاعدة ف مكان كله أخضر من الشجر والزرع وحواليها ورد في كل مكان ومعاها الناس الكويسين بس وكمان هتكون مع باباها، ومش هتزعل تاني أبداً أبداً

- أيوه، بس هي بتوحشني

– ما هي بتوحشني بردو، بس لما بتوحشني أوي أوي بأقعد ادعي ربنا عشان يخلي باله منها واقرالها قرآن وأصلي كتيررر وقعد أقول يا رب ماما وحشتني أوي صبرني يا رب

- وإيه اللي بيحصل؟

- بأحس إني مبسوطة خالص، وقلبي بيرتاح لإن ربنا بيحسسني إنها مرتاحه كمان كأنه ربنا بيطبطب على قلبي ويقولي ما تخافيش هي كويسة وأنا معاكي كمان ومش هنخلي حد يزعلك ولا يضرك

ثم أضافت وهي تغمزها بمرح: لما تحسي إنها وحشتك .. اعملي زيي وشوفي هتحسي بإيه وابقي تعالي قوليلي .. إتفقنا ؟

أومأت الفتاة باسمة، تجرأت حنان وسألتها: بس هو مش بابا معاكي عشان يصحيكي للمدرسة ؟

عاد الحزن يتجلى في عينيها، همست: بابا مسافر

نظرت إليها بتعجب: أومال قاعدة مع مين ؟

لم تستطع حنان سماع ما همهمت به فطلبت منها أن تعيد ما قالت، كررت الطفلة برهبة: مع مرات بابا

سألتها بتردد: مش بتحبيها ؟

حمدت حنان الله على عدم وجود باقي المعلمات في الغرفة لتتحدث معها بحرية دون أن تشعر الفتاة بالخجل، أضافت بابتسامتها الحنون: ما تخافيش مش هأقول لحد أي حاجه تقوليها، دا هيبقى سر بيني وبينك

شعرت سمر بالراحة لهذه المعلمة، لقد استطاعت حنان أن تدخل إلى قلبها دون مجهود يذكر، حدثتها الفتاة بما تحمله في قلبها الصغير: طنط مش بتفضالي، مشغوله على طول

- يعني مش بتصحيكي للمدرسة ؟

- لا، هي بتقولي لو عايزة تروحي مدرسة ابقي صحيّ نفسك

شعرت حنان بالحنق على تلك المرأة ولكنها قالت: طب ما تظبطي المنبه

نظرت أرضاً مرة أخرى: رن مرة وأنا ما صحتش على طول راحت كسرته وقالتلي إن مش عشان أنا هأصحى لازم البيت كله يصحى معايا

صمتت حنان تحاول الوصول لحل فعال فإلقاء اللوم على الأب أو تلك الزوجة ليس حلاً عملياً بل إنه لن يحل المشكلة، خطرت ببالها فكرة: إنتي ساكنه فين يا سمر ؟

أخبرتها سمر بعلامة مميزة في طريقها، هتفت حنان: إيه دا !، دا إنتي ساكنه قريب مني بقى، بصي يا سوسو أنا بأكون في المدرسة هنا الساعة ٧ ونص، بس مافيش مشكلة لو جيت بعدها بشوية يعني .. أنا هأعدي عليكي في البيت قبل المعاد بتاع المدرسة بوقت كافي عشان تلبسي ونيجي المدرسة سوا وتلحقي الطابور كمان إيه رأيك ؟

لم تصدق سمر نفسها: بجد يا أبله ؟

- بجد يا حبيبتي، على الأقل مش هأمشي الطريق دا كله لوحدي ولا رأيك إيه ؟

عقدت الطفلة ذراعيها خلف عنق حنان: أنا بحبك أوي يا أبله

ضمتها حنان بقوة إلى صدرها وهي تشتم عبيرها: وأنا بحبك أكتر

قبل أن تخرج الدموع من محجرها أبعدت سمر عنها قائلة: يلا روحي كُلي سندوتشاتك بقى عشان الفسحة قربت تخلص

لم ترد، قلقت حنان فسألتها عن سبب صمتها، أجابت: أصل أنا مش معايا سندوتشات

- ليه ؟

- أصل .. أصلي نسيتهم لما كنت نازله بسرعة

علمت حنان أن الفتاة لم تخبرها الحقيقة ولكنها تجاهلت الأمور حتى لا تسبب المزيد من الحرج، قالت باسمة: طب أنا معايا سندوتشات بزيادة ناكلها سوا بقى إنتي واحد وأنا واحد .. كفايه عطلتك عن الفسحة

وافقت سمر صامتة وتشاركتا الوجبة سوياً، لقد كانت الطفلة شديدة الجوع لم تشعر أنها التهمت جميع الشطائر في ذات الوقت الذي تناولت فيه حنان شطيرة واحدة، حزنت على حالها فيبدو أن لا أحد يهتم بها ولا يتأكد من حصولها على الغذاء الكافي.

عندما أنهت سمر أخر شطيرة بيدها طلبت منها حنان: سمر، أنا هأطلب منك طلب ويا ريت ما تكسفنيش ... كل ما تضايقي أو تحصل معاكي مشكلة تعالي واحكيلي، اعتبريني زي ماما –اللّه يرحمها-.

تبسمت الفتاة وقبلت معلمتها: حاضر يا أبله

حنان: يلا بقى روحي الفصل عشان جرس الفسحة ضرب

ركضت سمر إلى فصلها مسرعة، فكرت حنان بأن تخبر والد سمر عن حالة الفتاة ولكنها تذكرت أمر سفره فقررت تأجيل ذلك إلى وقت أخر.

أصبح الناس قساه، تحجرت القلب وتيبست كجذوع الأشجار؛ ليستبدل الحنان بالقسوه، الحب بالكره ، الشفقة باللامبالاة، الإيثار بالأثره .. مما حول المجتمع إلى غابة يجور فيها القوي على حق الضعيف.

****

جلست مع أخواته يتسامرن حتى عودته، جميلة ما زالت تنظر لها بكره لا تعلم سببه ونيفين الشفقة لا تفارق عينيها بينما فتون أكثرهن قرباً منها، تحدثها وتداعبها باستمرار.

وصل شادي أخيراً، استقبلوه بترحاب، بعد بعض الوقت طلبت منه حياه أن تحادثه على إنفراد.

صحبها إلى غرفة المكتب، وقف ينتظر حديثها لكنها شعرت بهروب الكلمات من فوق لسانها كلما جمعت بضعة كلمات حتى قالت: شادي .. أنا ...

- إنتي إيه ؟

- أنا مش عايزه أكمل معاك

انتصب في وقفته مرهفاً مسامعه وسألها بهدوء حذر: إزاي يعني مش فاهم ؟

ضمت قبضتيها بشدة قائلة بارتباك: بص يا شادي .. أنا كنت فاكره نفسي بحبك بس .. بس قعدت مع نفسي وفكرت كتير لاقتني مش كدا

بغضب مكتوم سألها: وإنتي قدرتي توصلي لكدا إزاي ؟ بين ليلة وضحاها ؟

- لا أنا كنت بأقول لنفسي إنك لو مش عايز تتجوزني أنا هأمشي ومش هأتقل عليك أكتر من كدا .. يعني فكرت ف الفراق ومع ذلك...

هزت كتفيها متابعة: ماحستتش بحاجه .. ماحستتش إني ممكن أموت لو بعدت عنك أو إني مش هأتحمل بُعدك

ضيق عينيه بشدة وهو يكز على ضروسه: والعمل دلوقتي ؟

قالت بحماس دون أن تلحظ ردود أفعاله: ترجعني البلد عند أهلي تاني، ولو مش هتقدر وصلني لأقرب محطة وأنا هأتصرف

اقترب منها رويداً بخطوات هادئة متساوية كما يفعل الأسد قبل الإنقضاض على فريسته وعينيه تطلق شراراً أصابها بالشلل، همس: إنتي فاكره إنه دخول الحمام زي خروجه ؟ .. ولا فاكره إني ممكن أسيبك تطلعي م البيت دا ؟؟؟

نظرت إليه برعب حقيقي لأول مرة تشعر به في حياتها، تمتمت بصوت متحشرج: قصدك إيه ؟

أغلق باب الغرفة بالمفتاح ثم استدار إليها مقترباً منها: قصدي إن إنتي خلاص بقيتي ملكي، بتاعتي وبس .. دا بيتك من هنا ورايح

هزت رأسها بهستيرية وهي تتراجع للخلف: بس أنا مش عايزه

قبض على ذراعيها بقوة، رجها بشدة قائلاً بعنف: ما هو مش بمزاجك يا قطة !

جذبها إليه بعنف وبدأ في تقبيلها بأماكن مختلفة من وجهها، حاولت دفعه ولكن هيهات أن يتأثر الثور الهائج بخربشات قطة.

نزع عنها حجابها بالقوة، أمسكته تكافح للتشبث به لكنه بالنهاية استطاع أن ينزعه، دفعها أرضاً مثبتاً ذراعيها فوق رأسها، تصرخ بأعلى صوتها وما من مجيب.

ضحك بقوة ووحشية: مهما صرختي ماحدش هيساعدك، كل اللي هنا ماحدش منهم يقدر يقولي لا .. ولا حد فيهم يقدر يمنعني عنك .. فالأحسن تقبلي بمزاجك بدل ما يبقى غصب عنك !

تضرعت إليه باكية دون التوقف عن المقاومة: حرام عليك، سيبني .. بص خليني أمشي وأنا هاعتبر إنه مافيش حاجه حصلت ومش هأقول لحد على حاجه .. بس سيبني

سجن فكها بين أصابعه وقال مشدداً على كل حرف من كلماته حتى يضمن أنها استوعبت حديثه بشكل كامل: إنتي خلاص ما بقالكيش خروج من هنا

تابع ما كان يفعله وعاد صرخاتها للتصاعد من جديد، مزق ملابسها وهي تحاول الفكاك من بين قبضته.

بدأ جسدها يتهالك من المجهود الذي مارسته عليه ولكنها أبت التوقف عن المقاومة، دموعها تزداد إندفاعاً وظلت تردد بقلبها كلمة "يا رب" حتى لم يبق في وسعها قوة لتمتمة خافتة حتى...

استجمعت بعض قوتها وضربته بساقيها بينما يحبس ذراعيها في كفه، ما من جدوى مما تفعله فقد سيطر عليه الشيطان وجعله لا يتأثر ولا يشعر، يحاول الوصول لهدفه فقط.

تعالت صرخة مدوية على حين غرة ... فلقد تم الأمر ولم يعد هناك من مرجع.

****

رصت طعام العشاء تتشاركه مع جدتها لكن عقلها مازال شارداً في تلك الطفلة التي جار عليها الزمان، تتجرع كؤوس الوجع قبل أن تتعلم طريقة إمساكه بكفوفها الدقيقة.

لاحظت الجدة شرودها ولكنها لم تحاول الاستفسار منها عن السبب، إذا أردت ستأتي لتروي لها دون ضغط.

كانت خيالاتها تأخذها إلى أي مدى ستعاملها زوجة والدها بقسوه، لِمَ توقف القوي عن رحمة الضعيف والكبير عن العطف على الصغير؟، صار الظلم منطق الحياة والقهر سر لذتها.

لقد قرأت ذات مرة أن الظالم يظلم لأنه يحس بالمتعة في ظلمه كهتلر الذي كان عاشقاً للسيطرة والتحكم.

عندما توقف الناس عن استشعار مراقبة الله في كل عمل يقومون به، انتشرت جميع الصفات التي جعلت مجتمعنا في طريقه أن يصبح شبيهاً بديستوبيا .. هذا إذ لم يكن قد صار بالفعل.

خطر على عقلها فجأة .. ماذا إذا كانت ابنتها تشعر بنفس تلك المعاناة، تحيا الآن بين أشخاص فاسدون، تتجرع الظلم وتتذوق مرارة الألم.

لحسن الحظ أنهم انتهوا من العشاء، هربت لغرفتها تعبث بأحد الأدراج تخرج منه ثوباً زهري اللون، ضمته بشوق ولوعه إلى صدرها، تتلمس رائحة صغيرتها بين أنسجته، انكبت دموعها تغرقه وقلبها يتضرع إلى ربها .. "فلتحفظ طفلتي أينما كانت، أرزقها من يحبها ويحميها، يحنو عليها ويسقيها العاطفة التي لم أستطع أن أمنحها إياها".

لماذا يا الله تحرمني من طفلتي بينما الآخرين ينعمون بدفئ ضمتهم، لقد تزوج خليل بأخرى لما هي تقبل خد صغيرتها كلما شاءت وأنا حُرمت من بهجة رؤيتها ؟؟

استفاقت إلى حالها، استغفرت ربها راكضة مسرعة إلى حمامها تتوضأ والاستغفار لا يترك لسانها، سجدت إلى ربها باكية متأسفة، تتوسل إلى ربها أن يسامحها، لقد أضعفها شيطانها ولكنها قفزت عائدة لرشدها.

بدأت تدعو متضرعة: أسفة يا ربي ... سامحني وأغفر ذلتي، لا أعترض على مشيئتك فأنت أرحم الراحمين، أرؤف بقلب أم مكلومة حزينة لفراق طفلتها، فتك الشوق بقلبها الضعيف.

أنتهت راقدة على سجادة صلاتها وثوب صغيرتها يستكين بين أحضانها كأن الملابس تعبر عن شوق صاحبتها في الحصول على هذا الحضن الدافئ.

****

التوتر يملأ جو الحجرة كذلك الصمت هو السائد، استمر شادي في الذهاب والمجئ ثم توقف فجأة قائلاً: أنا هأدخل أشوفها

اندفعت نيفين ناهضة: لا خليك أنت .. أنا هاروح

جميلة: ما تخليه هو يروح يشوف البرنسيسة

وضحت نيفين: هو لو راح هترجع تتعصب ومش هنقدر نهديها .. علينا من دا بإيه ؟

أيدتها فتون وسمح لها شادي بالدخول إليها.

طرقت الباب عدة طرقات بهدوء لكن ليس هنالك من رد، دفعت الباب متمهلة، نظرت حولها ولم تجد حياه بالغرفة، اشعلت النور لتتأكد فزعة وأعدت تمر ببصرها في أنحاء الغرفة.

وجدتها متكومة في ركن بعيد تضم ركبتيها إلى صدرها، الدموع تنهمر بلا توقف وجسدها يهتز ويرتعش .. اقتربت منها ولكن أبقت على مسافة ضيقة بينهما سألتها: عامله إيه دلوقت ؟

لم تجبها حاولت تتبع اتجاه نظراتها لتجدها تنظر لنقطة ما على الجدار المقابل، نقطة واهية .. لمست كتفها وكان ذلك كأنها اضرمت فيها اللهيب، بدأت تصرخ وتزيد انكماشها.

ابتسمت نيفين قائلة: ما تخافيش، دا أنا ... أنا نيفين

هدأت قليلاً ولكنها حافظت على صمتها، تنهدت نيفين واستندت ظهرها إلى الحائط بجوارها جالسة وبدأت تتحدث: ما تفتكريش أنك لوحدك اللي حصلك كدا، كلنا مرينا بنفس لحظتك دي

أضافت ضاحكة: إلا جميلة طبعاً، كله كان بمزاجها

إلتفتت إليها حياه بانتباه لكن ما تزال تحافظ على صمتها، تشجعت نيفين لمتابعة الحديث لعله يخفف عنها ولو القليل، شردت في نقطة أخرى على نفس الجدار الذي شردت فيه حياه.

- هابدأ بحكايتي أنا، أصل الواحد مش بيعرف يحكي صح إلا الحكايات اللي تخصه، أنا كنت عايشه لوحدي أبويا وأمي ماتوا وأنا عندي خمس سنين وخالي هو اللي خدني قال إيه عشان يراعيني، ما كانش عندي أعمام لإنه أبويا وحيد وأصلاً كل أهله ماتوا ... مقطوع من شجرة يعني، المهم خالي أصلاً ماكانش تمام، كنت بأشك فيه ساعات كتير، شغله مش معروف له قرار ... يوم يغيب وعشرة قاعد ف البيت، عدت السنين وأنا يادوب أخدت الثانوية وقعدني في البيت .. قالي كفايه عليكي علام لحد كدا يعني اللي اتعلموا كانوا خدوا إيه، طبعاً ما قدرتش أقوله لا ... دا هو اللي بيصرف عليا وكفايه حملي كل دا عليه ... ما كنتش أعرف

أنه بيفكر ف حاجه تانيه ... إنه يجوزني لحد عشان يرتاح من مصروفي ويلاقي حد يديه كل فترة قرشين، والله ما كنت بأكل أيام عشان ما أحسسوش إني حمل تقيل لكن نقول إيه! ... فعلاً كان هيجوزني لواحد متجوز تلاته وأنا الرابعة .. عنده منهم تلاتاشرعيل وعمره فوق الستين، كتمت ف قلبي وعيطت على أحلام طفولتي ودعت الفارس وحصانه الأبيض ... بس ف أخر لحظة جت مراته التالته وقلبت الجوازه، وقتها حسيت إنه أخيراً خلصت ... بس خالي هو اللي ما هديش، حاول يجوزني كذا مرة بعد كدا لكن للحظ السئ أو الكويس ما بقتش فارقه ... ما نفعش، اللي ما أجيش على هواه واللي تحصل حاجه معاه فيلغي الجوازه كدا يعني ... خالي بقى يشرب حشيش والذي منه .. اتقلب حاله والقرشين اللي كان بيجبهم بقوا يطيروا ع الكيف، أخرت ما زهق مني جه وسلمني لشادي، قاله أهي عندك أعمل فيها اللي يريحك

ضحكت بوجع: وأهو عمل فيا اللي يريحه ... قال إيه يقولك الخال والد .. قطيعه

سألتها: يعني أنتوا مش أخواته زي ما قولتولي ؟

نظرت لها نيفين بجدية: وإنتي لسه ما فهمتيش؟ .. لا إحنا مش أخواته، هو إحنا لو كنا إخواته كان عمل فينا زي ما عملك فيكي من شوية ؟

سالت الدموع على وجنتيها متسائلة بألم: طب وهو ليه بيعمل كدا ؟

- عشان ينفع يشغلك

رفعت رأسها بحيرة: يشغلني إيه ؟

تحسرت على براءتها لكنها أجابتها لتفهم حقيقة الحياة التي ستعيشها الآن: بنت ليل يا حياه ...

****

ألم الفراق لا يصيب فقط من فارق محبوبته، إنه يكون أكبر وأعظم عندما يفارق الأب ابنه والأم طفلها، الأخ أخاه أوأخته .. لكننا اعتدنا أن نحصر بعض الكلمات على الحب فقط .. فعند ذكر كلمة فراق أول ما يخطر ببالنا هو فراق المحبوب وعندما نذكر الشوق نقصرها على شوق الحبيب لحبيبته؛ كأن الشوق لا يصير إلا لهما وليس من حق غيرهما .. فالأم تشتاق لولده بل إن القلب ليشتاق لقاء ربه والروح تشتاق للسلام النفسي .. وهناك الكثير من الكلمات الأخرى التي تخضع لنفس القاعدة لدى البعض.

كانت جدران المنزل تضخ حزناً كحزن أهل البيت، لقد أختفت الضحكة ورحلة الحياة عن المنزل مع رحيل حياه، من يرى المنزل يعتقد أن لا أحد يقطنه لكن ما يدل على وجود من يسكنه هو صراخ التوأمين الذي لا ينقطع منذ رحيلها كأنهما يعبران عن فهمهما لما يدور.

زهرة بعد انتهاءها من أعمال المنزل اليومية وإعداد الطعام الذي لا يمسسه أحد تتجه إلى غرفتها وتغلق على نفسها، تدعو وتبتهل أن يصون اللّه شقيقتها ويحميها من كل سوء لكن الأجل مكتوب ولا يرده إلا علام الغيوب .. أما الدعاء فيخفف وطأة الأقدار على صاحبها، فيشتد بأسه وتقوى عزيمته.

استمر محمود في حياته اليومية معتبراً شقيقته في عداد الأموات، لقد أساءت لسمعتهم بين الناس وكسرت كلمتهم ولم تقم لهم مقام، عائشة مشتتة تخفف عن هذا وتحاول أن تزرع العطف في قلب هذا بدلاً من القسوه كما أن حمل الوليدين ليس بالهين.

انزوى أنس بعيداً، لا يخاطب أحد إلا لماماً، شعر بالذنب عندما ساعدها فأخبر زهرة التي أطلعت محمود ليتصرف، أسرع إلى حيث يقطن شادي لكنه لم يجده لقد سافر ...

توقف عن متابعة الأمر ولم يحاول اللحاق بهما، لقد شاءت الذهاب إذا فلتذهب لم يعد لها مكان بينهم، حاولت زهرة أن تقنعه بالبحث عنها لكنه لم ينصع لتوسلاتها، إن رأسه يابسة كالحجر الصوان وإذا وضع شيئاً برأسه لا يزحزحه أحد.

أما كبير العائلة فاروق فقد شعر أن تربيته قد ضاعت هباءاً، لقد كانت أقرب أولاده إلى قلبه لذا فإن خطأها ترك أثراً ليس في نفسه فقط بل في صحته، تدهورت صحته يأكل ما يقيم صلبه، يتناول الدواء قهراً نتيجة لإصرار زهرة عليه دون رغبة في الشفاء.

هكذا صار الحال بين مدعيّ اللا مبالاة وبين الحزين المشتاق، تباينت المشاعر ولكن الأثر واحد فلا يمر يوم دون بكاء ولا تمر ساعة دون ألم وأنين .. لكن إلى متى سيستمر هذا الحال ؟؟

****

بعد أن غطتها بمفرش لطاولة في المكتب لتخفي ثيابها الممزقة أو بالأصح لتداري عريها، أوصلتها إلى غرفتها وتركتها ترتاح كما طلبت منها، تشعر بالشفقة عليها فقد مرت بما مرت هي به من قبل.

تقوقعت حول نفسها تنتحب، لم تصدق أذنيها عندما أخبرتها عن غايته منها، إذا لم يكن للحب بينهما وجود، أراد استغلالها فحسب لكن أن تكون نهايتها العمل كعاهرة !

إزداد بكاءها، لا .. لا تريد أن تكون زانية، أن تكون ملعونة تُطرد من رحمة اللّه، أن يتمتع أي كان بملامسة جسدها .. لقد كانت تصون نفسها لتهبها لمن يستحقها لكنها توقفت عن ذلك منذ عرفت شادي، كيف تكون صائنة لذاتها وقد قابلته سراً خفية عن الأعين المتلصصة دون علم أهلها .. لقد بدأت هي في إضاعة نفسها وما كانت النتيجة إلا ما تعيشه الآن .. "لكني لا أريد أن يكون هذا مصيري .. ماذا أفعل؟؟"

فكرت وفكرت حتى تذكرت .. لقد أخبرتها والدتها ذات مرة عندما أفاقت ليلاً مرعوبة من أحد الكوابيس أنها إذا شعرت بالخوف والفزع، وأن الدنيا بدأت تضيق من حولها وتكتم على أنفاسها تذكر اللّه وتسجد له، تتلو آياته وقتها ستحصل على السلام الداخلي الذي يجعلها ترى الأمور على حقيقتها ويلهمها التدبر في حل كربتها ومقاومة مخاوفها.

نهضت مسرعة تستحم وتغتسل مما أجبرت على تحمله، أبدلت ملابسها الممزقة بعباءة وحجاب، صلت وصلت حتى لم تعد قدميها قادرة على

حملها فأنتهت ساجدة تبكي وتدعو اللّه أن يمنع عنها شر هذا البلاء، أن يبدلها خيراً.

فُتح الباب ودخل شادي ناظراً لها بسخرية: إزيك دلوقتي يا ستنا الشيخة ؟؟

نهضت من سجودها ونظرت له بعيون مغروقة بدموع الظلم مرددة: حسبي اللّه ونعم الوكيل فيك، حسبي اللّه ونعم الوكيل فيك

كز على أسنانه بقوة واقترب قابضاً على ذراعها يرجها بعزم ما فيه: بتحسبني ف مين يا بنت الـ ...

اندفعت نيفين إلى الغرفة تشد يده ليفلت ذراعها صارخة: سيبيها يا شادي .. سيبها

شادي بغضب جامح: خليني أعرف هي بتحسبن على مين بنت الـ... دي !

حاولت نيفين إمتصاص غضبه: يا شادي هي لسه مصدومة وبعدين ما تقنعنيش أنك متأثر أوي بالدعوة دي .. ما اعتقدش أنك أول مرة تسمعها يعني

حول نظره إليها ونفض ذراعها التي كانت تتشبث بها لتمنعه من التفكير في ضرب حياه، اندفعت أرضاً من قوته بينما غادر لا مبالاياً: إلهي تولعوا أنتوا الإتنين .. بلا قرف

استقبلته جميلة بدلالها على باب الغرفة فقد كانت تتابع الموقف بصمت منذ بدايته: معلش يا حبيبي سيبك منهم .. تعالى أن هابسطك وانسيك كل حاجه

ابتسمت نيفين بسخرية: حلة ولاقت غطاها .. ولا إيه رأيك ؟

نظرت إليها حياه ممتنة: شكراً إنك دافعتي عني

ثم أضافت بشك وتردد: بس إنتي ليه بتعملي معايا كدا ؟

لوت شفتيها فيما يشبه الإبتسامة: يمكن لإني لما كنت مكانك كنت بأتمنى حد يقف جنبي يساعدني .. يدافع عني

- طب ليه ما حاولتيش تهربي وتخرجي من هنا ؟

نهضت تنفض يديها مجيبة بسخرية: هأروح فين يا حسرة، عند خالي اللي أصلاً هو اللي رماني هنا ؟

بتفكير: تقدري تبني حياتك من جديد لوحدك من غير حد

ملست على رأسها المغطى بالحجاب قائلة بشفقة: إنتي يا طيبة أوي وبريئة لدرجة السذاجة يا إما غبية أوووي .. وفي الحالتين ماكانش ينفع يبقى اسمك حياه لإنه الحياة لا هي تعرف معنى الطيبة ولا هي تعرف معنى السذاجة

أردفت: هنا زيه زي السجن بالظبط يا حياه .. اللي يخرج من هنا دا لو قدر يعني .. بتفضل نقطة سوده ف حياته .. لا هو بيقدر ينساها ولا اللي

حاوليه أصلاً بيسمحوا له ينساها .. نقطة سوده معاكي لحد ما تموتي .. لو اللي قدامك ما ذلكيش بيها هتشوفيها ف عيونه من غير كلام

تمتمت حياه بحزن: بس دا ظلم

- وإيه ف حياتنا ما بقاش فيه ظلم ؟

تمتمت: إنتي فعلاً طيبة أوي يا حياه وساذجة ف نفس الوقت، كأنك اتولدتي على هنا على طول .. قولتي عندك كام سنة ؟

- ٢٣ سنة

ضحكت: ٢٣ سنة مرة واحدة، دا اللي عنده ٣ سنين دلوقتي بيعرف أكتر منك

استفسرت حياه محتارة: هي الطيبة بقت عيب ؟

- لا مش عيب، بس زيها زي الوردة الملونة اللي بتجذب النحل عليها عشان ياخد رحيقها، إنتي بقى بتجذبي مش النحل .. بتجذبي الدبابير اللي هتفضل وراكي تمص دمك لحد ما تخلص على براءتك دي

تركتها لحيرتها وتساؤلتها، لقد كانت تظن أن الطيبة ميزة ولكن بعد حديث نيفين شعرت أنها أكبر جريمة.

****

دخل إلى منزله متعب من طول طريق السفر، وجد شقيقته مرتمية في أحضان والدتهما تبكي وتنوح، تنهد بتعب محدثاً نفسه: هو يوم باين من أوله .. مافيش راحه إنهارده أنا عارف

لمحه والده فاتجه إليه يستقبله: أهلاً يا ابني .. حمدالله ع السلامة

- اللّه يسلمك يا بابا، أومال فين مي مي ؟

- بتلعب ف أوضتها

- طب أنا هأدخل أشوفها

هبت شقيقته صارخة: يعني جاي من برا وشايفني مفحوطه من العياط وما كلفتش نفسك تقولي مالك ؟!

رفع جانب شفته قائلاً بملل: هيكون في إيه جديد يعني؟ .. كالعادة خناقة تافهة من تفاهاتك وفادي مالوش ذنب

ضربت بقدمها الأرض كالأطفال: شايفة يا ماما ابنك بيكلمني إزاي؟؟ .. وبيقول عليا تافهة كمان !

نهرته سمية بهدوء: مش كدا يا حمزه، براحه على أختك

أشاح بيده متجهاً إلى غرفته: أنا هأروح أغير وأشوف مي مي أحسن، بس يا ريت يا ماما تواجهيها بعيوبها .. أنا أصلاً مش عارف فادي مستحملها دا كله إزاي ؟

غادر تاركاً شقيقته كالبركان الذي على وشك الإنفجار بل كان يدفع الحمم بالفعل من بواطنه، حاولت والدتها تهدئة انفعالها ملتمسة لولدها العذر: معلش يا بنتي هو من ساعة اللي ما تتسمى دي ما عملت اللي عملته وهو بقى بيقول كلام دبش من غير ما يوزنه ويعقله

نسيت نجلاء حزنها على نفسها وتحولت إلى الحسرة على شقيقها: فين حمزه اللي هزاره كان بيخليني هأموت على نفسي من الضحك ولا نصيحته اللي بتبقى بهدوء وتخليني أعملها غصب عني لأنه بيقنعني بيها مش بيرمي كلام ملوش طعم

تنهد أحمد: ربنا يصلح الأحوال ليه وليكي

****

"لا مُنجي منه إلا إليه" .. لقد رددتها والدتها دائماً تبعتها شقيقتها الكبرى لتخطو خطوات والدتها، هي التي حقاً لم تهتم، كانت المدللة التي تفعل ما يحلو لها، تجد دائماً من يحل لها مشكلاتها، اعتادت على رعاية ودلال الجميع لها .. رغم مقدرتها على الإعتماد على نفسها لكن صدق المثل القائل "اللي يلاقي دلع ومايدلعش يبقى حرام عليه".

لم تكن تدري أن كل من دللها كان يخاف على تلك البراءة التي تملكها من الضياع بسبب أُناس لا ترحم، قلوب كالصخر وضمائر من زئبق تتغير بتغير المصالح والرغبات.

سلمى ... تلك الصديقة الصالحة ، كم من مرة نصحتها بأن تخفف من تصرفاتها اللا مسئولة حتى لا تزيد العاتق على أهلها عن الحد.

لقد كانت سلمى جارتها وصديقتها، لعبا سوياً منذ كانوا صغاراً .. أقاما سوياً في القاهرة لدى عمة سلمى رغم أنها التحقت بكلية ألسن في حين إرتادت سلمى كلية اقتصاد وعلوم سياسية .. لم يكن ذلك الإختلاف اليتيم بينهما بل كان هناك الكثير من التناقضات الأخرى .. سلمى تتحمل المسئولية منذ الصغر فوالدتها لم تسمح لها بالدلال الزائد خوفاً عليها من الفساد، مقتنعة أنها ذات يوم ستصبح ربة منزل وقتها لن يتقبل أي زوج كان دلالها، دائماً ما كانت قريبة من ربها تناجيه باستمرار تتلمس رضاه في كل عمل تقوم به .. أما هي فكانت علاقتها به وقوفها بين يديه خمس مرات يومياً وصوم شهر رمضان ولا تعرف للمسئولية معنى في قاموسها الخاص وأغلب معرفته بالدين لا تتعدى ما أخذته في الإبتدائي خلال حصص التربية الدينية.

فهمت منطق والدة سلمى في عدم الدلال؛ فلولا دلالها لما تعشمت في حب عائلتها لها معتقدة أنها إذا هربت وتزوجت من أرادت ثم عادت إليهم سيستقبلونها بأذرع مفتوحة واسعة لا تحمل إلا التراحب.

انتحبت حتى جفت دموعها ولا يحمل قلبها الآن إلا شعور بالمرارة والحرمان، لقد حرمت نفسها من حضن شقيقتها الدافئ وعطف والدها عليها، مزاح أشقاءها معها.

مرت بذاكرتها جملة قالتها لها زهرة سابقاً لكن في حينها لم تُلق لها بالاً أما الآن فقد تأكدت صدقها .. " ماتنسيش اللي بيحب بجد مش بيفكر حتى يأذي اللي بيحبه ... واقتراحه دا لو عملتي بيه هيدمرك مش هيأذيكي بس! .. خلي الكلام دا حلقة ف ودنك" .. لكنها أسقطته من أذنها.

سجدت تناجي ربها: يا رب، أنا عارفه إني قصرت معاك كتير وبعدت عنك أكتر بس أنت ارحم الراحمين ارحمني واغفرلي، أنا كنت ضالة والمحنه دي هي اللي هدتني، مش معترضة على حكمتك مادام ف الأخر قدرت أرجع لطريق الصح ولطريقك .. لكن يا رب ساعدني .. أنا لو فضلت في المكان دا هأضيع بجد، هيخلوني بنت ليل واعمل حاجات من الكبائر .. يا رب انقذني من هنا، أنا خلاص مش هأضيع طريقي في الوصول ليك من إيدي بعد ما لاقيته .. بس أرجوك خرجني من محنتي وفك كربي

دخلت نيفين بعد أن طرقت الباب بخفة حاملة صينية عليها عدة أطباق، هذه وجبة غداءها، وضعت الصينية على الطاولة التي تحتل مكاناً أمام الأريكة المقابلة للنافذة.

نهضت واتجهت إلى نيفين: اقعدي يا نيفين، عايزه أتكلم معاكي

جلست نيفين وقد ضيقت بين عينيها منتظرة هذا الحديث المهم، تنحنحت حياه ثم قالت بجدية: أنا عايزه أهرب من هنا

أسندت نيفين ظهرها إلى الخلف وعقدت ذراعيها، سألتها بهدوء: وهتهربي إزاي ؟

- هو أكيد هيسافر تاني مش كدا ؟

- حتى ولو .. هتعملي إيه يعني؟

- هأهرب وهو مش هنا أو حتى يوم مايكونش فيه موجود هنا

- إنتي فاكره الهروب بالسهولة دي ؟؟؟

- مادام مش موجود هتبقى سهلة، لا جميلة ولا فتون هيقدروا يمنعوني خصوصاً جميلة اللي مش طايقاني أصلاً دي مش بعيد تطير م الفرحة

استقامت نيفين وقد شدت ظهرها: إنها ما تطقكيش حاجه وإنها تسيبك تهربي حاجه تانية

أردفت عندما رأت علامات التعجب تعلو وجهها: إنتي تعرفي إيه عن شغل شادي ؟؟

هزت كتفيها مشيرة إلى قلة معلوماتها: إنه بيشتغل مع باحثين أثار وبيلفوا البلد يبحثوا ف تاريخ الفراعنة .. أه ونسيت أقولك إنه شغال قواد

أضافت الجملة الأخيرة ساخرة، أعطتها نيفين إبتسامة ساخرة: بقى تهربي مع واحد ودا كل اللي تعرفيه عنه؟

أسرعت مضيفة: على العموم أحب أقولك بعيداً عن الشغلانه الأولى اللي أنا ما اعرفش عنها حاجه .. إنه يبقى قواد مش بالسهولة دي .. مش أي واحد يجيب كام بنت ويشغلهم يبقى قواد

- أومال إيه ؟؟

- الشغلانه دي ليها أصول، زيها زي أي مؤسسه أو شركه أكيد بإختلاف الهدف، القواد دا لازم يبقى له بوص، رئيس أكبر منه يأمنله الحماية من الباقيين عشان ما يتغدوش بيه قبل ما يتعشى بيهم

- وإنتي تعرفيه ؟

- لا، ماحدش يعرفه غير شادي وبس .. حتى مش بيقابله كتير، أوقات الضرورة وبس

- زي إيه الضرورة دي ؟

أشارت إليها: زي إنه يوريه الوجه الجديد اللي هينضم للمجموعة .. أومال فاكرة كل الصور اللي اتصورناها قبل ما يسافر دي كانت ليه ؟؟

- يعني مش هاعرف أهرب؟

وقفت على قدميها ثم سحبت حياه من يدها، أزاحت جزء من الستائر وأشارت إلى نقطة ما في الخارج.

تطلعت حياه متمعنة لتجد شخصاً مفتول العضلات كأنه يحيا على اللحم فقط وليس أي لحم بل لحم نيئ مما يجعله قادراً على إلتهام شخص كامل.

عادت تنظر إلى نيفين التي أشارت إلى نقطة أخرى لتجد نسخة طبق الأصل من الرجل الأول ولكن بإختلافات طفيفة.

- إزاي ما شوفتهومش قبل كدا ؟؟

- لما جيتي كنتي نايمة وبعدين مراية الحب كانت عمياكي يعني لو واحد فيهم قالك أنا أهو مش هتشوفيه بردو

جلست مجدداً قبل أن تضيف: كمان كانوا مستخبيين لحد ما شادي ...

قطعت جملتها متأكدة من وصول مقصدها، انهارت حياه إلى جوارها: يعني مافيش أمل ؟؟

- مش عارفه ، أنا ما حاولتش عشان أقولك

كأنها تذكرت شيئاً أردفت: على فكرة شادي كان عايز ينزلك معانا إنهارده الشغل أصله شايف إنك بتتدلعي وأخدتي فترة راحة كافية بس جاتله مأموريه فأجلها لحد ما يرجع .. ماينفعش واحدة جديدة تطلع أول مرة ليها ف عدم وجوده .. قوانين بقى

حاولت إحجام ارتجاف جسدها متجاهلة إحساسها الداخلي بالتقزز: مأموريه إيه ؟

- هههههههه يا بنتي ركزي ف حالك .. ع العموم دي كلمة بيقولها على كل حاجه بيعملها مش عايزنا نعرف عنها حاجه

سألتها: هو أنتوا بس اللي بيـ ...

علقت جملتها لا تدري كيف تصوغها، فهمت نيفين قصدها: من القوانين بردو إنه أكتر من خمس بنات ف نفس البيت خطر .. عشان ما يوزوش بعض على الثورة .. هاهاها سلامات يا ثورة .. شادي مسئول عن كذا فيلا زي دي فيها من ٣ لخمس بنات .. بس مش عارفه عددهم ولا مكانهم فين ..

لكن بيبقى سايب مكان لوحدة جديدة تنضم ف أي وقت .. ما ينفعش يبقى أكتر من واحدة جديدة ف نفس المكان لإنه بيخلي البت تعصلج والدماغها تنشف أكتر ..

همت تغادر الغرفة قائلة دون أن تستدير إلى حياه: ما تفكريش تهربي إنهارده وإحنا مش هنا، الحراسه هتتشدد بره يعني بدل الإتنين اللي شوفتيهم هيبقوا عشرة فريحي نفسك عشان ساعتها مش هتنولي إلا الـ ...

لم تكمل الجملة التي ترددت أصداءها في جميع أنحاء الغرفة كأن الجدران أيضاً تحذرها من عدم اقتراف مثل ذلك الفعل الذي لن يعود عليها إلا بالمزيد من الضرر.

لكن السؤال الفعلي الآن، كيف عرفت نيفين برغبة حياه في المحاولة تلك الليلة ؟؟...

****

استعد حمزه متأنقاً للذهاب إلى مشواره مع صديقه مُسعد غير شاعر بأي تأنيب ضمير على طريقة حديثه هكذا أمام والديه مع شقيقته الصغرى، لقد كف عن شعور بأي شيء منذ أمد ليس ببعيد.

خرج من غرفته متجهاً إلى غرفة المعيشة، وجد مي مي تتسلى بمشاهدة التلفاز بينما والده يتحدث مع فادي عما سبب سوء التفاهم بينه وبين زوجته، تتابع والدته الموقف بإهتمام بينما نجلاء تدير وجهها للناحية المعاكسة مظهرة غضبها.

ابتسم بسخرية: أنت لسه فيك حيل يا ابني تيجي ترجعها ؟؟؟، دا أنا لو مكانك كنت زهقت وطلقتها من زمان

صرخت به والدته سمية: إيه اللي أنت بتقوله دا يا حمزه ؟؟؟

هتفت نجلاء بحنق: أنت عايز تخرب عليا يا حمزه !

اتسعت ابتسامته رغم أنها لم تصل إلى أذنيه: وأما إنتي عايزه ترجعيله وتتصالحوا سيباه بقاله ساعة بيتكلم مع بابا وهو ف نص هدومه ومش راضية تروحي معاه ليه؟؟!

ارتبكت نجلاء وبدأت في فرك يديها بشدة بينما تهز قدمها بتوتر جليّ، تنهد الأب متحدثاً بهدوء رزين: مالوش داعي الكلام دا يا ابني، هو جوزها وعارفها أكتر مننا وعارف طريقتها وراضي

فادي مبتسماً بسماحة: أعمل إيه يا حمزه .. بأحبها بقى

حمزه بضيق: يبقى استحمل يا كبير الذل

فادي بهدوء: الحب عمره ما كان ذل يا حمزه، الحب يعني اغفرلها لما تغلط ف حقي عشان هي تغفرلي لو غلطت ف حقها .. لو ما سامحتش مش هأقدر استنى إنها تسامحني وهنفضل على طول ف شد وحياتنا متعلقة بشعرة.

حمزه متحسراً: دا لو فيه حاجه اسمها حب أصلاً

وضع أحمد يده على كتف ابنه: فيه يا حمزه بس كل الموضوع إنه ربنا لسه ما أذنش إنك تقابله لحد دلوقتي

أومأ حمزه معتذراً بضرورة ذهابه فوراً لمقابلة صديقه، رحل مسرعاً فهو لم يعد يطيق كلمة حب في أي حوار يخوضه .. الحمدللّه أنه سيقابل مُسعد ويلهيه بفكاهات التي لا تنقطع فهو يمتاز بخفة الدم لكنه يتحول إلى الجدية الشديدة أيضاً وقت الحاجه.

تم اللقاء واتفقا على الذهاب للعشاء سوياً، قال مُسعد متفاخراً: بما إنه الواحد لسه قابض بقى فأنا قررت أعزمك ومش ف أي مكان، لاااا ف أجدع مطعم فيكي أمصر

- ومن إمتى البزخ دا ياخويا ؟

- يلا، على اللّه يطمر

- يا شيخ إتنيل، أنت هتذلني على حتة عشوه لا راحت ولا جت ؟؟ خلاص مش لاعب

- يا عم تعالى بس، مين دا اللي يقدر يذلك يا باشمهندس

- واحد كدا يا باشمهندس

قهقه مُسعد: طب خلاص حقك عليا ويلا بقى لأحسن أخوك هفتان خاااالص

جلسا على الطاولة يتابعان حديثهما الذي لا يخلو من المزاح، هدأ تفكير حمزه حتى أنه بادل مُسعد مزاحه بالمثل حتى ...

لاحظ انقلاب ملامح صديقه على حين غرة، حاول سؤاله عما جرى لكنه ظل ينظر لنقطة ما من فوق كتفه دون أي تعبير، إلتفت ليرى ما سبب هذا الضيق والغضب المكتوم داخل صديقه.

امرأة بحجاب لكنه لا يحمل أي صفات الحجاب بالمرة حتى إنه لا يخفي خصلات شعرها التي تناثر بعضها من الأمام هذا دون الحديث عن الملابس التي تشف أكثر مما تخفي، تنهد عائداً لصديقه: هي دي ؟

أفاق حمزه مزيحاً نظراته عنها وقال كأنه لم يفهم: قصدك مين ؟

أجابه بسخرية: اللي كانت عينك هتطلع عليها دلوقتي

بضيق: ما تتلم يا مُسعد

- معلش مش قصدي

تنهد: أنا اتصدمت بس لما شوفتها مش أكتر عشان كدا ما أقدرتش أحرك عيني من عليها

تحدث مشيراً إلى الرجل الذي برفقتها ويبدو عليه الثراء الفاحش: دا اللي فضلته عليك؟

أشار إلى النادل مغيراً مجرى الحديث: ممكن نطلب الأكل وبلاش نتكلم ف الموضوع دا

أراد مُسعد أن يخرج صديقه مما يشعر به الآن فمهما كان شعوره لن يكون جيداً عندما يرى من هواها قلبه ترافق رجلاً أخر، قال متصنعاً الحزن: بقى كدا يا صديقي الصدوق

استغرب حزنه: مالك قلبت ليه ؟

- مش عايزني أقلب وأنت مستعجل على أنك تدفعني فلوس!، إهئ إهئ ماكنش العشم يا صاحبي

ابتسم حمزه ولكنها ابتسامة صغيرة برغم ذلك شعر مُسعد بالتحسن فقد خفف عن صديقه ولو القليل.

****

دقت الساعة معلنة أنها الرابعة فجراً ..

ليس هناك من أحد غيرها في المنزل منذ العاشرة مساءاً، لقد ذهبن إلى عملهن كما أطلعتها نيفين سابقاً بينما سافر شادي في "مأمورية" كما يسميها تاركاً العديد مع الحراس أمام الباب.

نظرت من النافذة لتجدهم ازدادوا، لقد أصابت نيفين في نصيحتها .. اتجهت تصلي الفجر لكن ما كادت تنتهي حتى سمعت أصوات في الخارج فتأكدت من عودتهن أخيراً.

ذهبت لتراهن فهذه المرة الأولى التي يذهبن في عمل منذ قدمت إلى هنا، كانت تشعر بالقلق والإشمئزاز مما يحدث ولا تستطيع منعه .. بل إنه إذا حدث معها لن تستطيع منعه فكيف الحال مع غيرها ؟؟

وجدت نيفين تدلف برفقة فتون، ارتمت فتون على الأريكة بإنهاك بينما اتجهت نيفين إلى غرفتها متعبة قائلة أنها ستنام ولا تريد أي إزعاج.

لم تعرف حياه ماذا تفعل فجلست أمام فتون تراقبها وهي تنزع حذاءها عالي الكعبين في تعب حقيقي.

تساءلت: هو حصل حاجه ؟

هزت كتفيها: لا العادي بس

أشارت إلى الباب الذي يخفي خلفه نيفين: أومال مالها ؟

نظرت إلى حيث أشارت: قصدك نيفين؟؟ .. لا دا الطبيعي بتاعها .. أول ما ترجع مش بتبقى طايقه نفسها .. بتبقى قرفانه من كل حاجه

ساد الصمت، قامت حياه بإتجاه الغرفة لكن تحذير فتون أوقفها: سيبيها أحسن دلوقتي عشان أي حد بيكلمها ف الحالة دي بتشوط فيه .. أصلاً مافيش حاجه مهمة .. كلها تسيب نفسها تحت الدش ساعتين وبعدها تاخد حبتين منوم عشان تعرف تنام وتصحى الصبح ولا أكن حاجه حصلت

علمت حياه عدم جدوى دخولها فعادت تجلس وهي تسأل بتردد: إنتي إيه اللي جابك هنا ؟

رفعت نظرها لتسألها عن مقصدها ولكنها فهمت ما تشير إليه، تنهدت بألم تتطلع إلى السقف بشرود: أمي ماتت وهي بتولدني .. وأبويا ماصدق ماتت قام متجوز ف اليوم الواحد وأربعين من موتها على طول هههههه، بس واحدة عقربة .. فضلت تذل فيا وتطلع عيني من وأنا صغيرة .. حتى كنت أول سنتين عايشه مع جارتنا وصاحبة أمي ف نفس الوقت بس بعد ما

اتفطمت أبويا خدني من حضنها وحنانها عشان يرميني في جحيم مراته .. هو يهمه إيه غير مزاجه ؟؟ .. يشتغل طول اليوم وهي تبهدل فيا طول اليوم ولو اشتكيت تلسعني بالمكوه .. ولما كنت بأشكيها لبابا تقوله دي كانت بتلعب وأنا بأكوي وقولتلها تقعد لكن ما سمعتش الكلام قامت المكواه وقعت عليها وأخد أنا التهزيء والزعيق كله وشوفي من دا كتــيــر أوي .. لحد ما قابلت شادي ف مرة، ما أعرفش ليه حكيتله كل حاجه من أول مرة قعدت أتكلم معاه، كنت ماشية وعربيته كانت هتخبطني بس ربنا ستر، بعدها أخدني عشان أشرب حاجه ف كافيتريا يكون اعتذاره ليا .. ما أعرفش ليه بس أنا روحت معاه ويارتني لا عرفته ولا حكيتله .. عذاب مرات أبويا أهون م القرف اللي عايشاه دا

- ما حاولتيش تهربي ؟

- حاولت مرة واحدة وبعدين قولت يا حسرة كله شبه بعضه .. ما بقتش فارقه كتير

- وإيه اللي حصل ؟ عرفوا يمسكوكي ؟

- أه، بعد ما قدرت أنفد من البيت واللي واقفين حواليه، فضلت ماشيه والمنطقة مافيهاش حد ، ولا عربية مرت مش عارفه أنا اللي مشيت غلط ولا الحظ، المهم تاني يوم الصبح كانوا مرجعني تاني

- عملولك حاجه؟

رفعت تنورتها القصيرة بالأساس لتريها تشوهاً يعلو فخذها الأيسر ثم قالت بسخرية: ختم صغنون عشان أفتكر إنه كل ما أهرب هيحصل فيا كدا

انكمشت حياه، أليس لديهم أي رحمة، كيف يفعلون ذلك، أين القانون وإلى أين ذهبت العدالة ..

تأملت فتون الغرفة حولها بما تحويه من أثاث عصري يتفاوت لونه بين الأحمر والأسود كذلك الأبيض والرمادي، قالت: اللي إحنا فيه دا أكبر دليل على إنه المظاهر خداعه

- طب وجميلة ؟

- عايزه تعرفي حكايتها هي كمان ؟

- لو مافيهاش إزعاج

ابتسمت فتون ساخرة: مالك مؤدبه كدا ؟

أردفت تحاول تجميع كل التفاصيل التي تعرفها: جميلة دي الوحيدة اللي جت بمزاجها، كانت متجوزة واحد بس أكبر منها بكتير، طبعاً ماكانش موفرلها حاجه غير الفلوس عشان تدلع بيهم وكان بيديها زيادة عشان تفضل معاه وتستحمل سنه الكبير وإنه مجرد جواز على ورق مش أكتر، لكن ما يعرفش أو كان عارف ومطنش الله أعلم إنها بتقابل شبان من وراه عشان يعوضوها عن اللي راجل عنده سبعين سنة مش قادر يقدمهولها ... طبعاً فاهمة قصدي

أومأت متفهمة وقد شاب وجهها حمرة شديدة، تابعت: وف الأخر وقعت ف إيد شادي كالعادة وفضلت معاه لحد ما جوزها مات لكن بعد موته اكتشفت إنه ما سابلهاش ولا قرش كله راح لولاده من مراته الأولانيه

وهي طلعت من المولد بلا حمص، وقتها بقى استلقاها شادي وفضل وراها لحد ما أقنعها تيجي تشتغل هنا معاه

فغرت فاهها بعدم تصديق: يعني بمزاجها ؟؟؟ إزاي ؟!

ضحكت بسخرية: يا بنتي ما هي كدا كدا كان ليها علاقات أيام ما كانت متجوزة ومش بعيد قبل كمان .. يعني هي هي الفرق الوحيد إنه المرة دي هتضمن فلوس مش هتطلع حتى من غير حمص

- هو بيدوكوا فلوس على دا ؟

- أيوه، أومال هنعمل كدا ببلاش؟؟ دا اللي ناقص كمان !

- وبتعملوا إيه بالفلوس مادام محبوسين بين أربع حيطان

أشاحت بلا مبالاة: عادي، بنجيب فساتين .. مكياج .. نفسي ف حاجه بردو أجيبها

- بتنزلي تجيبيها لنفسك ؟

- لا بأبعت حد من اللي برا يجبلي

نهضت فتون من مقعدها وجلست على ذراع الأريكة التي تحتلها حياه، مالت تهمس في أذنها بتحذير: ما تحاوليش تهربي عشان مش هينوبك غير واحدة زي دي

أشارت إلى الحرق في فخذها ثم عادت تتحدث بصوت يحثها على الإنتباه: وبلاش تثقي ف أي حد مهما بينلك قد إيه هو واقف ف صفك وبيحميكي

نظرت لها حياه وسألتها بتردد: قصدك مين ؟

ربتت على كتفها: لاحظت قرب نيفين منك فحبيت أحذرك بس

حركت سببتها بوجهها: ما تثقيش بحد غير نفسك وبس، هنا كل واحد بيعمل لمصلحته، زي ما حد استغله هيحاول يستغل غيره .. حتى أنا .. ما تثقيش فيا .. لو قررتي ف يوم تهربي متحملة كل المخاطرة اهربي .. بس ماحدش يعرف إنك هتعملي كدا .. وقتها هتظهر الأنانية فعلاً

وقفت متثأبه: أنا هأدخل أنام بقى لأحسن مش قادرة

قالت حياه بلا تفكير: مش هتصلي الفجر قبل ما تنامي ؟؟

نظرت إليها فتون مصدومة وبعد أن تمالكت نفسها قالت بحزن: واللي زيي تتقبله صلاة إزاي ؟

ابتسمت حياه بحنان وربتت على ذراعها: استحمي وبعدين أتوضي وصلي .. ربنا عمره ما بيقفل بابه ف وش حد

قالت بتقزز: بعد القرف اللي أنا فيه دا .. أظن كل الأبواب اتقفلت ف وشي، إزاي أعمل كدا وأخر اليوم أروح أصلي وأقف قدام ربنا كأني ما عملتش حاجه

- طب وليه تقطعي كل الطرق اللي رابطه بينك وبينه ؟؟ .. مش يمكن الطريق دا اللي هتفضلي موصله نفسك بيه بربنا هو يكون سبب نجاتك من اللي إنتي فيه دا واللي عشتيه غصب عنك ! أو سبب غفران ربنا لأفعالك دي ؟

استمرت فتون تنظر لها وتفكر فيما قالت، بعد دقائق ابتسمت وضمتها قائلة: بجد إنتي طيبة أوي .. ما تستاهليش اللي إحنا فيه دا

أدارت يدها لترى حياه العلامة الموجودة بباطن معصمها، حدقت بها مصدومة فيما ابتسمت لها فتون: أيوه مسيحية .. بس هأصلي بردو زي ما قولتيلي

تركتها وانصرفت إلى حجرتها، سخرت من تفكيرها فما الفرق لدى هؤلاء بين مسلم ومسيحي أو حتى بلا ديانة .. المهم أن تتكيف مع الوضع وتحضر لهم الأموال.

****

سلم من صلاة الفجر ثم جلس يردد أذكار بعد الصلاة، تذكر رؤيته لها في المطعم وكيف كانت تضحك بسعادة مع من فضلته عليه.

ابتسم لنفسه بسخرية، لقد أحبها أشد الحب ولكنها قابلت هذا الحب بالخيانة والغدر، لم يخطئ بحقها ولم يفكر بأذيتها فلما تفعل ذلك به ؟

اتجه إلى المطبخ ليروي عطشه، وجد مي مي تحاول الوصول لزجاجة العصير دون جدوى، ابتسم وناولها الزجاجة: إنتي هتفضلي قصيرة كدا على طول ؟؟ .. هتطولي إمتى يا أوزعه

قطبت حاجبيها بغيظ وتحدثت إليه بلغة الإشارة فعاد يقول: يعني إنتي مش أوزعه ؟

هزت رأسها مؤيدة، أكمل: أومال ما عرفتيش توصلي للإزازه ليه يا طويلة هانم ؟

أشارت له بما تريد قوله مما أدخله في نوبة ضحك: بقى الإزازه هي اللي عالية عليكي

رأى غيظها أشتد إلى درجه قد تجعلها تنفجر، انخفض لمستواها كاتماً ضحكاته: خلاص الإزازه هي اللي طويلة ولا تزعل نفسك يا قمر أنت

ابتسمت مي مي بسعادة وسألته لما لم ينم حتى الآن، أخبرها أنه كان يصلي الفجر وشعر بالعطش فأتى ليشرب.

قدمت له زجاجة العصير ليشرب منها، رفض لكنها أصرت.

حمزه: خلاص إنتي شويه وأنا شويه ماشي ؟؟

أومأت موافقة، سكب كوبين من العصير لكل منهما .. تحدثا سوياً؛ تتلو عليه ما يفعله رفاقها في المدرسة معها وأنهم يسخرون منها لعجزها عن الكلام مثلهم.

رأى الدموع تترقرق في عينيها فشعر بغيظه يشتد، لما تصمت والدته عن الذي يحدث، سيحادثها في هذا الموضوع عندما يراها في أقرب فرصة إنما ما يجب فعله الآن هو أن يأخذ قسطاً من الراحة قبل التوجه إلى فرع الشركة التي يعمل بها لاستلام مشروعه الجديد.

****

عاد شادي بعد يومين من سفره الذي لا يعلم أحد عن تفاصيله شئ، سأل عن حياه وسلوكها أثناء غيابه، كانت تسمع صوته من غرفتها كلما سمعته اقشعر بدنها، تتذكر كل ما فعله بها تغضب وتبكي حسرة على ما وصلت إليه.

دخل عليها الغرفة دون أن يطرق الباب كالعادة، اعتادت هي على ذلك فلم تعد تبالي فقد أصبحت ترتدي حجابها باستمرار حتى أثناء نومها.

وضع لفافتين على السرير أمامها قائلاً بلهجة أمره: إنهارده الساعة تسعة تكوني جاهزة عشان هتيجي معانا .. إنهارده أول يوم ليكي ولو فكرتي تعملي حاجه كدا ولا كدا ما تلوميش إلا نفسك على اللي هيحصلك

صفع الباب بشدة خلفه زيادة في الخوف الذي يحاول زرعه بداخلها، أحرقت الدموع عينيها وهي تفتح اللفافه الأولى لتجد بها فستان قصير بدون أكمام واللفافة الأخرى تحتوي على حذاء عالي الكعبين يناسب الفستان.

دفعتهم بعيداً إلى أخر الغرفة ولكن إلى متى ستستطيع دفعهم ..

****

وقفت في الاستراحة برفقة سمر داخل فناء المدرسة تطمئن على أحوالها، لقد انتظمت كثيراً في مواعيدها وأصبحت الإبتسامة لا تفارق وجهها على الأقل بينما تكون برفقة حنان.

لقد وجدت الطفلة الحنان الذي تتمناه فائضاً لدى معلمتها الحبيبة، عوضتها عن وفاة والدتها وقسوة زوجة والدها.

انطلقت سمر تلعب مع صديقاتها بعد أن توطدت علاقتها مع أغلبهن فصارت إجتماعية جدا.

- صباح الخير

إلتفتت إلى الصوت القادم من خلفها متعجبة: خليل ؟ .. صباح النور

نظر إلى سمر وهي تلعب وتضحك: لسه حنينه زي ما إنتي

تنهدت بقوة: عايز إيه يا خليل؟، إيه اللي جابك؟

اتخذ موقف الهجوم عندما وجدها لا تبالي أو كأنها تختنق من كلماته فأراد المحافظة على ماء وجهه: جاي عشان أقدم لبنتي هدى في المدرسة هنا

كزت على أضراسها غيظاً فليس من الممكن أن يكون بلا مشاعر إلى هذه الدرجة: وإشمعنه المدرسة دي بالذات ؟

هز كتفيها كأن الأمر ليس مهماً: عشان دي أحسن مدرسة ف المنطقة

سألته ساخرة: والمدام وافقت على الموضوع دا بسهولة كدا ؟

تذكر رد فعل زوجته عندما علمت باسم المدرسة التي يريد تقديم ابنتهما للإلتحاق بها، لقد صرخت بوجهه وكادت أن تدق عنقه على تفكيره فهي تعتقد أنه يفعل ذلك ليكون هناك رابط ولو بسيط بينه وبين حنان، نفى ذلك بشدة أمامها ولكن قلبه كان مؤكداً عليه، لكن الحوار أنتهى بأنه الأعلم بما في مصلحة هدى.

تجاهل سؤاله بسؤال أخر: أخبارك إيه وأخبار ست الكل إيه ؟

أومأت: الحمدللّه

اعتذرت منه منصرفة: عن إذنك عندي شغل

تركها تغادر فليس لديه ما يتحدث به ليستبقيها برفقته لمدة أطول، تنهد مغادراً المدرسة وعيونها المتألمة تشيعه من نافذة غرفة المعلمات.

****

ارتدت فستانها الأسود الذي ناسب مزاجها فهي تشعر حقاً أنها ليست ذاهبة إلى حفلة بل إلى عزاء لكن هذا العزاء لن يكون إلا .. فيها.

حررت شعرها كما أمرها وإلا عقابها سيكون عسيراً، لا تخلو جملة أو أمر يوجهه إليها من تهديد ووعيد، يعلم أنها لن تطيعه بإرادتها.

أتت نيفين تضع لها لمسات المكياج في صمت، تتأكد أن كل شيء على خير ما يرام لتوصل ذلك إلى شادي.

نهضت خائفة ركبتيها تكادان تتخبطان سوياً من شدة فزعها، نظر إليها نظرة رضى عن مظهرها الأنيق الذي سيجعل عنقه تشرئب أمام الجمع في الحفل، هو يعلم دون مبالغة أنها أجملهن وأكثرهن جاذبية، فهي رغم ملامحها المصرية العادية إلا أن عيونها تمتلك سحراً خاصاً، لمعاناً سحرياً ولكنه مطفئ الآن، واسى نفسه بأنها سرعان ما ستعتاد الأجواء ويعود لمعان عيونها لسابق عهده.

كانت تشد على أضراسها وتكبح جماح دموعها، قلبها يتمزق إرباً، لم تتحمل نظراته إليها وهي ترتدي فستانها الواصل إلى ركبتيها، تمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها، إذا كانت نظراته هكذا فما بال من سيحضرون الحفل؟

بعد أن عبر عن رضاه عن مظهرهن جميعاً طلب منهن أن يتبعوه، سارت مترددة تحاول التفكير في حل لما هي فيه وما هي مقدمة عليه، قبل أن يصعدوا إلى السيارة هتفت قائلة: أنا عطشانة

شادي بملل: لما نوصل هتلاقي حاجات كتير تشربيها

- لا، أصلي لما بأعطش بأتعب وجسمي بيترعش

نظر لها بشك: غريبة دي

فتون تنجدها: خليها تشرب يا شادي، كان زمانها شربت وجت كمان

- طب روحي بس بسرعة

أضاف محذراً: وأوعي تفكري ف حاجه كدا ولا كدا أحسنلك

تجاهلت الرد وعادت إلى الداخل، اتجهت إلى غرفة نيفين وفتحت أحد الأدارج تناولت منه شريط دواء، ارتعشت يديها فوضعته مكانه وهمت بالمغادرة لكنها عادت مسرعة وتناولت حبتين منه ووضعت باقي الشريط مكانه وهرولت مسرعة قبل أن تعود في قرارها.

****

انتهوا من العشاء سوياً كما لم يفعلا منذ فترة، كانت نجلاء سعيدة بهذا التغيير رغم علمها إنه ليوم واحد بناء على إصرارها المتواصل.

حملت الأطباق إلى المطبخ وبدأت في إعداد القهوة التي يعشقها فادي بعد وجبة دسمة كالتي تناولها منذ برهة.

سبقها إلى غرفة المعيشة يبحث عن فيلم مسلي يشاهداه معاً، وضعت الفشار على النار لتجهز طبقاً ضخماً للتسالي أمام الفيلم، قررت إنهاء غسيل الأطباق في انتظار نضج القهوة والفشار.

كانت تغسل الأطباق سعيدة بيومها هذا، إنه كما تتمناه دائماً عودة الزوج للعشاء برفقة زوجته مساءً ثم يتابعان فيلماً رومانسياً أمام شاشة التلفاز وهي متقوقعة بين أحضانه تنعم بدفئه وحنانه، لم تشعر إلا بصرخة فادي وهو يغلق صنبور المياه فزعاً.

استدارت إليه متفاجأة: في إيه؟

- هو إيه اللي في إيه ؟؟ إنتي مش واخده بالك إن المايه كأنها مغلية وممكن تسلخ إيدك!

نظرت إلى يدها لتجدها شديدة الأحمرار من أثر المياه، تركها تنظر ليدها ببلاهة واتجه يطفئ النار بعد أن فارت القهوة وحُرق الفشار.

تمتم متأففاً: أنا مش عارف إيه اللي حصلك وخلاكي مش دريانه بأي حاجه كدا، لا بإيديك اللي كانت هتتحرق ولا بالقهوة اللي فارت ولا بالفشار اللي اتحرق

همهمت منصرفة: هأروح أحط مرهم على إيدي

هرولت مسرعة هي نفسها لا تدري ماذا حدث، لماذا لا تشعر بأي ألم رغم أن يدها أوشكت على الإحتراق.

****

وقفت تضرب قدميها في الأرضية بعصبية شديدة، إنها ليست حفلة عادية إنما حفلة للعربدة والمجون، تذكرت الوصايا العشر التي أوصاها شادي بها، الإبتسامة الدائمة، الكلمة اللطيفة، الرقة الشديدة، عدم العصبية، الدلال الزائد .. إلخ.

شعرت أنها سلعة معروضة أمام الحشد لينتقيها من يستطيع تأجيرها لفترة وجيزة لكن بأعلى سعر، احتقرت نفسها والمكان والناس حتى الأموال، الأموال التي تجعل البشر سلعة سهلة الشراء يتقاذفها الأثرياء كأنهم لعبة ملك أيديهم.

رجل بدين أشيب الشعر يبدو أنه يفوق عمر والدها عقداً كاملاً، مال ذلك الرجل على شادي يهمس له بشئ ما ويبدو أنه أعجبه لأن ابتسامة

كريهة ظهرت على شفتيه، لمحت بصر شادي يتوجه صوبها، ارتفعت دقات قلبها أكثر من الفزع.

اقترب شادي يسحبها من ذراعها عائداً بها إلى ذلك الرجل متمتماً من بين ضروسه حتى لا يظهر أنه يحدثها خلف ابتسامته المتجمدة فوق شفتيه: هتروحي معاه وهتعملي اللي يقولك عليه من غير ولا كلمة اعتراض .. هيبقى فيه واحد تبعي واقف على الباب لما تخلصي هيرجعك البيت .. بس لازم الزبون يتبسط وإلا ليلتك هتبقى أسود من قرن الخروب يا حياه

قرص على ذراعها بشدة لكنها كتمت صرختها، أصبحت مشاعرها دائماً مكبوتة لا تستطيع تحريرها، هذه ليست عادتها لكن يبدو أنها أصبحت كذلك.

تناول الرجل ذراعها من شادي مصطحباً إياها إلى منزله كما أخبرها، ظل يثرثر طوال الطريق معرفاً نفسه ولكن أذنيها لم تلتقط أي حرف مما تفوه به.

قادهم السائق إلى منزل الرجل ولم يكن السائق سوى أحد أتباع شادي الذي أرسله في صحبتها ليعيدها مرة أخرى بعد قضاء ليلتها برفقة الرجل.

دلفت إلى الغرفة ترطب شفتيها بلسانها، جف حلقها من التوتر وصارت تبلع ريقها بصعوبة احتارت ماذا تفعل وكيف تتصرف، لا تطيق أن يلمسها رجل مرة أخرى رغماً عن إرادتها.

لمحته بطرف عينها ينزع سترته وربطة عنقه ثم يصب كأساً من الخمور، لم تعرف كيف فعلت ذلك كأنها مسيرة، نزعت الكأس من يده ثم قالت بدلال مصطنع: أدخل خد دش

حاول الإقتراب منها لكنها ابتعدت محاولة إخفاء ذعرها الداخلي: لا لا خد دش الأول

قال بنفاذ صبر: ولزومه إيه بس دلوقتي .. هأبقى أخده بعدين بس تعالي دلوقتي .. قربي

احتمت خلف كرسي: لا، أنت كلك عرق وأنا بأقرف، استحمى الأول

- شكلك هتتعبيني، أنا هأقول لشادي على فكرة

اقشعر بدنها لذكر اسمه فقررت الخضوع قليلاً: خلاص أغسل وشك بس وتعالى

انصاع لها عندما رأى التصميم في عيونها، فور دخوله إلى الحمام أسرعت تُخرج الحبوب التي أخفتها في جيب صغير في أحد أجناب الفستان.

وضعته في الكأس وبدأت تحركه بسرعة حتى يذوب الدواء بالكامل، خرج من الحمام قائلاً بإنتعاش: كان معاكي حق، الواحد كان محتاج يفوق

دفعت إليه بالكأس راسمة إبتسامة وهمية على شفتيها: طب أشرب دا يلا بقى

شرب الكأس على دفعة واحدة وعينيه لا تتزحزح عنها، بعد انتهاؤه من الشرب اقترب منها مسرعاً ولكنها تفادته متجهة إلى الحمام: مش هاتأخر

دخلت مغلقة الباب خلفها، تأكدت من تناوله للكأس كاملاً لا ينقصها إلا إنتظار مفعول الدواء في الظهور.

ظلت حبيسة حتى مر حوالي عشر دقائق، وضعت أذنها على الباب تتلمس أي صوت يتصدر من الغرفة، عندما لم تسمع أي ضجيج فتحت الباب بهدوء لتجده ملقى على السرير.

اقتربت منه بهدوء متسللة، سمعت شخيره .. إنه يغط في نوم عميق، لقد تبعهم السائق حتى دخلوا الغرفة وأخبر الرجل أنه سيقف على الباب في الإنتظار كما هو معتاد. إذا فالخروج من الباب دون جدوى، اقتربت من الشرفة الموجودة في الحجرة، كانت الفيلا مكونة من طابقين لكن الإرتفاع من الطابق الثاني للأرض ليس بهذا العلو.

ترددت ولكنها حسمت أمرها أخيراً ليس لديها ما تخسر فقد خسرت الكثير بالفعل، وجدت عموداً إلى جوار الشرفة تمسكت بها زاحفة إلى الأسفل.

لم تصدق أنها وصلت أخيراً إلى الأرض، سارت متمهلة حتى غادرت البوابة الرئيسية للفيلا، ثم لم تشعر بنفسها إلا أنها تركض وتركض بلا توقف حتى تقطعت أنفاسها وأوشك قلبها على منع ضخ الدماء إلى باقي أجزاء جسدها.

****

دلفت إلى غرفة جدتها، وجدتها تقرأ في كتاب الله بصوت هامس، ابتسمت وناولتها دواءها: يلا يا ست الكل، اشربي دواكي عشان تخفي وتبقي مية فل وعشرة

صدقت مغلقة المصحف وهي ترسم بسمة على شفتيها: يا بنتي أنا عندي حاجة وسبعين سنة مش سبع سنين

- ولو يا ست الكل، دا ما يمنعش إني أدلعك، الدلع من حق الصغير والكبير

تناولت الجدة دواءها ثم ربتت على مكان عند قدميها، جلست حنان منصاعة متنهدة؛ هذه علامة جدتها بأنها تعرف أن هناك ما يزعجها وتحاول إخفاؤه خلف بسمتها ومزاحها.

أقرت: خليل عايز يقدم لبنته في المدرسة اللي أنا شغاله فيها

فغرت فاهها دهشة: مش معقول، إيه البجاحه دي !

تنهدت: مش عارفه يا تيته، أنا تعبت بجد

أجهشت في البكاء، ضمتها جدتها إلى صدرها الحاني تواسيها وتدعمها صامتة، تحدثت حنان بما يجيش بصدرها: هو ليه مش حاسس بالحرقه اللي ف قلبي، ليه بيفكرني دايماً بغلطة أنا عمري ما نستها وبأندم عليها لحد دلوقتي، أيوه قصرت ف حق بنتي بس مش يجيب سكينة تلمه

ويفضل كل شوية يشق قلبي بيها ... أنا تعبت بجد والله أنا إنسانه من لحم ودم .. بتجيلي أوقات بأحس فيها إنه الموت أرحملي من الحياه دي بس بعدين بأرجع استغفر ربنا.

ربتت على شعرها: دا اختبار من ربنا ولازم نصبر، ادعي وربنا هيستجيب إن شاء الله بس ف الوقت المناسب ليكي ولبنتك، ما تخليش عندك شك ف كدا أبداً، ربنا هو الأعلم بالأنفع والأصلح لينا من نفسنا حتى

هدأت حنان وقل نحيبها حتى غطت في نوم عميق، ظلت تدعو لها جدتها بالخير وراحة البال، تلك الدعوة التي تتكرر كثيراً دون أن نعرف أهميتها حتى نفقدها.

****

لا تعلم كم مضى عليها تركض جلَّ ما تعلمه أن قلبها يكاد يتوقف من كثرة دقاته وأنفاسها توشك أن تذهب بلا رجعة دون القدرة على التقاطها.

توقفت أخيراً أسفل عمود إنارة في الطريق، نظرت حولها هناك قلة من الناس تسير، بعض المحلات ماتزال ساهرة في إنتظار ساهراً أخر يرغب بشراء شئ ما.

إن المحروسة تختلف تماماً عن بلدتها، مهما كان الوقت متأخراً أو مبكراً توجد أقدام تروح وأقدام أخرى تجيء، تأملت كل مكان تسقط عينيها فوقه ولكنها لم تجد مكان تلجئ إليه، خائفة أنها إذا لجأت إلى أحدهم

يستغلها، فقد استغلها من رسم عليها الحب بكلماته فما بال من لا يعرفونها بالأساس؟

احتارت ماذا تفعل، لا تعرف أين هي ولا إلى أين تذهب، هل اكتشفوا غيابها ؟، يبحثون عنها الآن، اقتربوا من مكانها ؟؟.. تساؤلات تساؤلات بلا انتهاء.

ارتفعت الإقامة من مسجد قريب من محل وقوفها، اتجهت إليه حيث وجدت قلة قليلة تدلف إلى المسجد لتأدية صلاة الفجر، دق قلبها بسعادة عندما وجدت باب مصلى السيدات مفتوحاً.

تقدمت منه مسرعة كأنها تخشى إغلاقه في وجهها إن لم تسرع، دخلت إليه ووجدت أدوات التنظيف مركونة جانب الباب من الداخل، فهمت أنه مفتوح في تلك الساعة ليتم تنظيفه قبل صلاة الجمعة.

نظرت إلى نفسها، لقد اتسخ جسدها ليس من الغبار والطريق فحسب بل من المكان الذي جاءت منه، نزعت حذائها مكسور الكعب حيث كسرته لتستطيع الركض بسرعة وخفة أكبر لأطول مسافة ممكنه، لمحت مجموعة من العباءت والتنورات والأخمره موضوعة على رف جانبي.

تناولت إسدالاً واتجهت به إلى الحمام، تحممت وهي تفرك جسدها بكفيها كأنها تريد سلخ جلدها عن عظامها، انتهت وإرتدت الإسدال وألقت ما نزعته عنها في سلة القمامة، وقفت في إتجاه القبلة تقيم صلاتها حامدة الله على إنقاذها شاكرة فضله عليها.

جاء الإمام ليغلق مصلى السيدات لكنه وجدها واقفة تقوم بتنظيف المسجد بهمة ولم تشعر بقدومه، تبسم ثم انصرف دون أن يزعجها عائداً إلى مصلى الرجال ليتلو بعض آياته حتى الشروق.

****

جمعت أغراضها في عدة حقائب، صرخت تخبر جدتها: أنا نازله يا تيته .. مش عايزه حاجه؟

جاءت جدتها على مهل تدعو لها بالتوفيق وحسن المأب .. انطلقت هي في طريقها إلى المسجد فاليوم هو الجمعة؛ حيث تحمل العديد من الكتب الدينية والمصاحف اللائي جمعتهن من زميلاتها في المدرسة، فمن يفيض لديه أي شيء تقوم بتجمعيه وإرساله إلى مكانه المناسب فالكتب الدراسية إلى الجمعيات الخيرية كذلك الملابس وكتب الثقافة العامة بينما الكتب الدينية بعضها للجمعيات الخيرية ولكن الأغلب تذهب إلى أحد المساجد واليوم الدور على أكبر مسجد في منطقتها.

ذهبت مبكرة عن موعد أذان الظهر بأكثر من ساعة كاملة لترتب الكتب في المكتبة التي تحتل حائطاً بأكمله في مسجد النساء وتعطي بعضاً منها إلى إمام المسجد ليرتبهم في مسجد الرجال من ثم تشعل البخور ليملئ المسجد برائحة فواحة تعطيه انتعاشاً فوق إنتعاش تواجد المرء به.

صعدت إلى مصلى السيدات لكنها وقفت متسمرة مكانها، من تلك التي تتوسد كفيها وتضم ركبتيها إلى صدرها ؟؟

وضعت الحقائب متناولة إحداها وعادت تنزل الدرجات من جديد، كان الإمام على وشك الدلوف إلى مصلى الرجال عندما نادته، توقف باسماً وبدأ الإقتراب منها يسألها عن حالها وحال جدتها، طمأنته ثم سألته بالمثل عن حال زوجته وأولاده.

عادت تسأله متعجبة: هي مين اللي نايمه في المسجد فوق دي ؟

هز كتفيه حيرة قائلاً: مش عارف يا بنتي، أنا جيت أقفل المسجد بعد صلاة الفجر لكن لاقيتها بتمسح مصلى السيدات فسيبتها ورجعت اقرأ قرآن لحد ما تخلص بعد الشروق طلعت تاني لاقيتها بتقرأ في كتاب الله، ما قدرتش أقولها أخرجي عشان هأقفل، دا بيت الله وما أقدرش أقفله ف وش أي حد ممكن يكون محتاج .. واللي لاحظته عليها إنها محتاجاه دلوقتي جداً

أومأت متفهمة وسلمته نصيب مصلى الرجل من الكتب والمصاحف ثم عادت تصعد إلى مصلى السيدات وتبدأ في رص الكتب داخل المكتبة بنظام وترتيب معين.

****

اصطحب أحمد زوجته بعد أن تطيب بأفضل العطور واغتسل كما أوصى الرسول –عليه الصلاة والسلام- وانطلق برفقة سمية إلى المسجد، هذه عادتهما أن يذهبا كل جمعة سوياً إلى المسجد للصلاة وفي طريق العودة يشتريان مستلزمات البيت وبعض الحلوى والفاكهة لأهل الدار.

استيقظ حمزه ولم يجد غيره هو ومي مي في المنزل تساءل في نفسه عن مكانهما حتى تذكر عادة والديه، استحم وتطيب ثم تناول سواكه بعد أن ألبس مي مي إسدالها فلم يكن بيده حيلة أخرى فقلبه لن يطاوعه بتركها وحيدة في المنزل، كانت البراءة تشع من عينيها متناغمة مع ما ترتديه ووجهتهما.

كان قلقاً أن تشعر بالحرج داخل مسجد قد لا يكون به سوى الرجال والصبيان الصغار فقط، لكن لحسن الحظ كانت توجد فتاتان صغيرتان برفقة والدهما انسجمت معهما مي مي بشدة، كذلك عندما علم عدد من المصلين أنها لا تستطيع التحدث أشفقوا على حالها وبدأوا في مداعبتها.

اتسعت إبتسامته عندما رأى إبتسامتها، لقد نسي تماماً أمر مدرستها ولم يخبر والدته بشأنها، دعى أن يتذكر في أقرب وقت ممكن.

****

فجأة سمعت صرخات تصدر من خلفها، استدارت لتجد الفتاة نائمة تهزي في سباتها، تركت ما بيدها وإتجهت إليها لا تدري ماذا تفعل ثم وجدت أنه يجب إيقاظها لا مفر.

هزتها من كتفيها مطمئنة: اصحي اصحي، ما تخافيش إنتي هنا ف بيت ربنا مش هيحصلك حاجه ما تقلقيش

انتفضت جالسة وهي تنظر حولها بذعر لم تره حنان من قبل على وجه بشر، ابتسمت لتبث بداخلها الإحساس بالأمان: مافيش حاجه، دا كان مجرد كابوس

ناولتها زجاجة مياه من حقيبتها لتروي ظمأها، تجرعت الزجاجة بأكملها من ثم بدأت في الإسترخاء رويداً رويداً، عند ذلك الحد نهضت حنان وتركتها عائدة إلى مهمتها في ترتيب الكتب مرة أخرى.

راقبتها حياه لدقيقتين ثم نهضت تتناول الكتب من الحقيبة في صمت وترصهم بنفس ترتيب حنان بالضبط، لما رأتها حنان تفعل ذلك ابتسمت وانشغلت بما بين يديها.

مع ارتفاع أذان الظهر في الأجواء كانتا قد انهيتا مهمتهما، أشارت لها حنان بأن تذهب لتتوضأ.

ارتفعت الخطبة تصل إلى أذان الجالسين في المسجد، كانت حياه منزوية في أحد الأركان وحيدة أما حنان فكانت تداعب الأطفال الذين حضروا مع أمهاتهم وتوزع عليهم بعض الحلوى التي لا تخلو حقيبتها منها.

كانت تقيم سداً بين جفنيها لتمنع شلال الدموع من التدفق لكن عندما عبر الإمام عن موضوع الخطبة وقبل أن يبدأ في التحدث عنه كان السد قد إنهار وتحررت المياه دفاقة من حبسه وانهمرت بلا توقف أو حساب.

إن الخطبة كانت عن "التوبة" .. شعرت أنها رسالة إليها من الله -عز وجل- يساندها على ما أقدمت عليه ويؤكد لها حسن تصرفها.

بعد انتهاء الخطبة وإقامة الصلاة .. اتجهت حنان إليها تعاونها على النهوض لتقف في صف الصلاة.

همت حنان بالمغادرة ولكنها تذكرت تلك الفتاة التي لا تعلم عنها شيئاً فعادت إليها تجلس إلى جوارها متسائلة: إنتي مش ناويه تروحي ؟؟

أجابتها بحزن: ماعنديش مكان أروح له

علت الدهشة وجهها: إزاي يعني ؟؟

كادت حياه تروي لها قصتها عندما تذكرت كلمات فتون بأن لا تثق بأحد غير نفسها، لاحظت حنان ترددها فابتسمت: طب إيه رأيك تيجي تتغدي معايا أنا وجدتي ؟، بعد كدا اعملي اللي يريحك

لم تجبها فأكملت: الشيخ حسين إمام المسجد ما روحش بيته من الفجر عشان خاطر إنتي موجودة ومش متعود يخرج حد من بيت ربنا، والراجل عنده بيت وعيال

زفرت بحدة ثم نهضت معها مشيرة بموافقتها، رأت الحذاء مكسور الكعبين وكذلك عدم نزعها للإسدال الخاص بالمسجد لكنها لم تعقب على شيء فقط اكتفت بمرافقتها لها.

****

تسير ولكن دون أن تلمس قدميها الأرض بسبب قفزها المستمر من السعادة تمسك بإحدى يديها بلونة منتفخة على شكل وجه ميكي ماوس

والأخر تتعلق بكف حمزه والذي أجبرته على حمل الحلوى التي منحها إياها من بالمسجد.

شعر بسعادة كبيرة لسعادتها بل إنه ضحك من كل قلبه كما لم يفعل منذ زمن، إن عالم الأطفال ملئ بالحب والضحك كما السعادة لا مكان للحزن أو الخيانة كأنهم في عالم يتنزه عن النواقص .. عالم تحميه الملائكة من قذارة البشر.

وصل إلى المنزل وسلم مي مي إلى والديه متجهاً إلى غرفته، استغرقه التفكير في كل ما تعرض له من غدر وغيره من نواقص، عاد الحنق والغضب إليه مرة أخرى.

هب من مكانه وإرتدى ملابسه الرياضية وخرج إلى حيث عائلته تتابع حلقة ما على التلفاز.

رأته والدتها فتساءلت: رايح فين يا حمزه؟

- هأروح الچيم شوية

- هو إحنا بنشوفك غير الجمعة وياريت كل جمعة دي كل فترة والتانية بس

- ما أنا أصلاً كنت قاعد ف أوضتي هتفرق حاجه أوضتي عن الچيم ؟

قالت بحنق: ما أنت اللي حابس نفسك لوحدك ومش عايز تقعد معانا

أمسك والده بيد سمية: خلاص يا سمية سيبيه يعمل اللي يريحه وأدينا قاعدين مع بعض لحد ما يرجع

أشار برأسه إلى حمزه حتى يذهب، ابتسم له ممتناً لإنقاذه من بين براثن لوم والدته.

بعد أن أغلق باب الشقة خلفه زفرت بضيق: أنا مش عارفه هتفضل تقف ضدي وف صف الواد دا لحد أمتى يا أحمد !

- مش ضدك ولا حاجه، بس هو شكله مضايق والپيم لما يلعبله فيه كام لعبه على كام حركة هيخليه يهدا شوية

تنهدت: وياترى إيه اللي ضايقه ؟

إلتفت إلى التفاز من جديد متمتماً: لو حابب يتكلم هيجي يقول من غير ضغط يا سمية !

نظرت له بحنق وهي تعض شفتيها من الغيظ، هكذا هو زوجها لا يعطيها رداً شافياً.

****

نسيت ترددها في الدخول إلى منزل امرأة لم تعرف عنها سوى اسمها الذي أطلعتها عليه في طريقهما ليست حتى متأكدة من صدقها.

انسجمت مع مزاح الحفيدة مع جدتها وجو الطيبة الذي يكسو المكان، بعد الغداء انصرفت الجدة لترتاح في غرفتها قليلاً معللة ذلك بأن الدواء الذي تتناوله يجعل جسدها يصل إلى أعلى حالات استرخاءه.

لا تعرف ما سبب فتح الحديث ولكن النتيجة كانت رواية حنان لفقدانها ابنتها وبعد ذلك طلاقها وزواجه من أخرى حتى وصلت إلى إطلاعها عن رغبته في الحاق ابنته بالمدرسة التي تعمل بها.

أشفقت على حالها مدركة أنها ليست الوحيدة التي تعاني في هذه الدنيا، لعبت بها الحياة أخذة سعادتها في لحظة وبدلتها شقاء لكن الدنيا لا تكتفي بشخص دون سواه.

لم تجد بُداً أمام صراحة مضيفتها سوى أن تقابلها بصراحة وصدق مماثلين، روت لها حكايتها منذ تعرفت عليه وكيف هربت من بين يديه.

- لسه فيه ناس بالشر دا ؟

- أنا كنت فاكره الدنيا لسه بخير طلعت أنا اللي بعافيه هههههه

تبسمت: طب وناوية تعملي إيه ؟

- مش عارفه

- لما فكرتي في الهروب ما فكرتيش ترجعي لأهلك ؟

ملأت الحسرة عينيها: ارجعلهم إزاي وأنا كدا بعد اللي عمله فيا ؟؟ أنا اللي فضلته عليهم ولازم أتحمل نتيجة أعمالي

- بمعنى؟

- هأدور على شغل وأشوفلي شقة أعيش فيها وأسس حياتي وقتها لما أقف على رجليا أبقى أفكر أرجعلهم بس أكيد مش وأنا مكسورة

- وإنتي فاكره اللي بتقوليه دا بالساهل ؟

استندت للخلف وهي تزفر: مش عارفه بقى

خطرت على بالها فكرة: وإيه رأيك تعيشي معايا هنا ؟؟، أديكي شايفه مافيش غيري أنا وجدتي

- بس أنا كدا هأتقل عليكوا .. كمان أنتوا

- تتقلي إيه بس، دا إنتي أدتي حس للمكان واللّه وأهو ألاقي حد سنه قريب من سني أعرف أخد وأدي معاه ف الكلام .. بعدين الناس بتبان من أول مرة ياما عاشرنا ناس وباعونا

- يعني مش هأزعجكوا ؟

- بس يا شيخة اسكتي، أنا بأقول إيه وهي تقول إيه .. المهم المدرسة اللي شغاله فيها طالبة مدرسين، إيه رأيك تقدمي فيها؟

- طب وهما يقبلوا بيا ؟؟

- إنتي خريجة إيه؟

- ألسن إيطالي

- طب حلو جداً، مش الإنجليزي بتاعك كويس؟

- أه

- خلاص تمام أوي كدا، هما عايزين مدرسة إنجليزي، أنا هأكلم المديرة وأشوفها بس ما أعتقدش هيرفضوا أقل حاجه هتقبلك مؤقت لحد ما تلاقي حد متخصص أكتر

تبسمت حياه فلقد شعرت برضا اللّه عليها منذ عاونها على الهروب وصولاً إلى لقاءها بحنان التي حنت عليها كأختها زهرة التي تفتقدها بشدة.

****

دخل إلى النادي الرياضي يتلفت حوله بحثاً عن صديقه، وقعت عينيه عليه أخيراً فاقترب منه حانقاً، كان يتصبب عرقاً يكاد يُغرق النادي بأكمله، وقف يتطلع إليه صامتاً حتى ينتهى.

ألقى الأثقال التي يرفعها بعد أن استبد به التعب وارتمى أرضاً بجوارها يلتقط أنفاسه، لوى مُسعد شفتيه: إيه اللي جرا ؟

من بين أنفاسه أجاب: مفيش، طاقة زيادة وحبيت أخرجها

- طب قوم خلينا نروح نقعد ف كافيتريا ولا حاجه

- أنت مش ناوي تلعب

- لا أنا ماعنديش طاقة أصلاً عشان أخرجها

ضحك حمزه: ماشي خليك معصعص كدا مافكش حتت عضل واحدة

عقد ذراعيه معدلاً نظارته فوق أنفه: سيبنالك أنت العضلات يا عم المجانص

- هههههه طب استنى هاستحمى وأغير هدومي وأجي معاك

انطلقا إلى أحد المطاعم ليتغديا سوياً ويتحدثا قليلاً، دار الحوار بين العمل والمواضيع العامة وحاول مُسعد عدم الإحتكاك بأي شيء خاص فهو رغم مزاحه الشبه دائم إلا أنه يفرق بين وقت الدعابة ووقت الصمت، ظل حمزه شاكراً له إشغاله بعيداً عن التفكير الذي يفتك برأسه فتكاً كلما شرد لحظات قصيرة.

****

بعد يومين بدأت حياه العمل مع حنان بنفس المدرسة، زاد احترامها لحنان أكثر عندما علمت بقصة الفتاة التي تذهبان لاصطحابها معهم يومياً، لقد تعلمت بسبب حنان أن الطيبة ليست عيباً عندما تصدر من أهل الطيبة ولكنها تتحول ريبة عندما تصدر من دونهم.

تأقلمت مع الأطفال بسرعة ونالت حبهم واحترامهم، كانت دائماً ما تحب الأطفال وتتمنى أن يرزقها اللّه بالكثير والكثير منهم لتشبع غريزة الأمومة الطاغية لديها كما هو الحال مع حنان، حنان تلك الأخت من دم مختلف تذكرها بزهرة وببعض الأمور المنسية داخل أعماقها، تفهمت رغبة حنان في حصول التلاميذ على علم لائق يفيدهم في حياتهم الخارجية قبل الإمتحان فهذا ما سيتبقى لهم حقاً.

ذاع صيتها في المدرسة وبدأت الضحكة تعود إلى وجهها، هذه الضحكة التي أختفت منذ غادرت منزل أهلها وجاءت إلى القاهرة التي قهرتها حقاً

هي اسم على مسمى بعكسها، البسمة التي لا تفارق شفتي حنان في أي لحظة أو موقف أصابت حياه بالعدوى ولكنها عدوى مرحب بها.

اعتقد الجميع أن هناك صلة قرب بينهما، لما تملكانه من بسمة تُنسي من يراها حزنه وهمه كذلك ملابسهما المتشابهة حيث الإحتشام والأناقة معاً فلم يعرف أحد أنها ترتدي ملابس حنان حتى تحصل على أول مرتب لها وتقدر على شراء ملابسها الخاصة، رغم ذلك لم تحاول أي واحدة منهما تصحيح ذلك الإعتقاد فهن في النهاية أخوات في اللّه وليس رابط الدم هو ما سيربطهما فعلياً.

كانت تنام في غرفة حنان تشعر بها عندما تستيقظ في الثلث الأخير من الليل تبتهل وتدعو أن يحمي اللّه طفلتها ويردها إليها سالمة في أقرب وقت، توضأت وانضمت إليها في صلاتها تشاركها الدعاء في عودة ابنتها التي تشتاق هي نفسها لرؤيتها من حديث الأم عنها ثم تدعو لنفسها بصلاح الأمور وهدايتها إلى طريق الصواب.

لقد كانت ترتدي الملابس الفضفاضة في بلدتها لكن لإنها العادات على عكس سلمى صديقتها التي كانت ترتديه إقتناعاً، بعدما رأت حنان

وحياتها وملابسها تيقنت أن هذا حقاً الأفضل وأصبحت ترتديه عن قناعة لذلك بأول راتب لها اشترت ثلاثة أطقم تبدل بينهم في أولى خطواتها للإستقلال.

****

تعجبت حنان من استدعاء المديرة لها في هذا الوقت من النهار على عجلة دون إخبارها عن السبب، دعت ربها أن لا تكون هناك مشكلة.

طرقت الباب في إنتظار الأذن بالدخول حتى أتاها فدلفت ملقية السلام: السلام عليكم

ردت رافعة رأسها بإنتباه: وعليكم السلام .. اتفضلي اقعدي يا حنان

جلست حنان مطيعة وعينيها تسأل مالم ينطقه لسانها، اعتدلت المديرة سناء: هأدخل ف الموضوع على طول عشان زي ما إنتي عارفه ما بأحبش اللف والدوران

أومأت بتفهم فعادت تكمل الحديث: واحدة صحبتي كانت مديرة مدرسة بردو بس قدمت على معاش مبكر بعد ما جوزها اتحال ع المعاش عشان تقعد معاه تونسه، طلبت مني أشوفلها مدرسة أثق فيها عشان تدرس لبنتها

حنان متعجبة: طب ما تقدملها في المدرسة

ردت بأسف: البنت عندها حالة نفسية منعتها من الكلام فلما بتروح المدرسة مش بتقدر تتفاعل مع زملاءها وبتبقى محل للسخرية منهم لعدم

وجود التوعية المناسبة زي ما إنتي عارفه، كمان مجرد إنها تشوف اللي حواليها ف حالة تواصل ماعدا هي هيسببلها أزمة أكتر .. ومن ساعة ما عرفوا إنها بتضايق ومش بتتكلم وهما سحبوا أوراقها من المدرسة وقرروا يجيبولها مُدرسة تهتم بيها ف البيت

حنان بعدم فهم: وأنا المطلوب مني أشوف لحضرتك مُدرسة مناسبة يعني ؟

هزت سناء رأسها نفياً: لا أنا عايزاكي إنتي اللي تبقي المُدرسة دي، أنا عارفه قد إيه إنتي حنينه وهتقدري تتوصلي معاها بسرعة، خصوصاً إنه البنت مش إجتماعية أوي ومش أي حد بتقدر تاخد عليه بسهولة، أعتقد بتحس باللي بيحبها ويحن عليها بجد وبين اللي بيمثل أو يشفق على حالها.

أومأت متفهمة لكنها علقت: بس أنا مش هأقدر، حضرتك عارفه إنه بعد المدرسة بأروح أشوف جدتي وأقعد معاها كمان عندي نشاطات تانية مش هأقدر أسيبها

- إمممم طب والحل ؟؟

بعد تفكير: أنا هأشوفلك واحدة وأتمنى إنها توافق

- إن شاء الله توافق، وأنا واثقة فيها مادام من طرفك

****

وقفت أمام الشقة تتأكد من الرقم المدون على الورقة التي تحملها بين أصابعها وتطابقها مع الرقم الموجود على باب الشقة.

لقد أقنعتها حنان بقبول هذه الوظيفة لتقضي يومها فيما يفيد وذكرتها كذلك بثواب مساعدة طفلة صغيرة، كما سيساعدها الراتب الذي ستتقاضاه في تأسيس الحياة المستقلة التي ترغب بالحصول عليها.

دقت الجرس ولم تمر لحظات حتى وقفت أمامها سيدة رغم كبر سنها إلا أنه يبدو عليها الإهتمام بنفسها، حجابها وقور لكنه في نفس الوقت أنيق، ابتسمت عندما رأتها: إنتي ميس حياه مش كدا ؟

أومأت مؤكدة صدق حدسها، سمحت لها بالدخول تتحدث إليها عن طباع مي مي وأن اسمها الحقيقي هو ميّ لكن لا تحبه ولا تجيب عن ما يلقبها به.

أرشدت بالنهاية إلى غرفة مي مي وتركتها بعد إلحاحها فهي تريد التعرف عليها بطريقتها الخاصة حتى تنزع من قلبها أي أثر للرهبة بينهما.

كان الباب شبه مفتوح رأت من خلاله طفلة ذات شعر بني حريري ينسدل بحرية مغطياً نصف ظهرها، ترتدي بنطالاً من الجينز وتي شيرت أزرق اللون، تلعب بألعابها صامتة.

اقتربت منها بهدوء: على فكرة إنتي بتعمليها صح .. ما شاء الله عليكي

ألقت عليها نظرة عابرة ثم عادت إلى ما كانت تفعله غير مبالية، جلست على الوسادة المجاورة لها وأضافت بجدية: بس إنتي ممكن تعمليها بطريقة تانية أسهل وأسرع

نظرت إليها الطفلة بترقب فاستغلت الفرصة وأمسكت باللعبة تريها الطريقة الأخرى لحلها، أعجبت مي مي بذكاءها وانقضى الوقت والإنسجام هو المسيطر.

أغلقت الأم الباب مبتسمة فقد اطمأنت أن صديقتها قد اختارت بالفعل الشخص المناسب، دخلت إلى غرفة المعيشة حيث يقرأ زوجها كتاباً كعادته.

سألها بعدما جلست: ها .. اطمنتي؟

تنهدت: الحمدلله .. شكلهم متفاهمين جداً مع بعض

- طب كويس .. ما تنسيش تبقي تتصلي بسناء تشكريها

- لا ما تقلقش بعد ما حياه تمشي من عند مي مي هأبقى أكلمها، الست عملت فينا جميل

- ما تنسيش بردو إنكوا درستوا سوا وكمان أول مدرسة اتعينتوا فيها كنتوا مع بعض ولولا الظروف اللي فرقتكوا كنتوا فضلتوا سوا ... وإنتي بقيتي مديرة مدرسة والسنة اللي بعدها هي مديرة مدرسة تانية

- أه هههههه سبحان الله

انتهى الوقت المخصص لدروس مي مي، اكتفت حياه بالتعرف واللعب معها في المرة الأولى فقط حتى تعتاد عليها.

****

ذهبت حياه يوم السبت بعد مرور شهر ونصف على إعطاءها الدروس وزيارتها يومياً ما عدا يوم الجمعة فهو يوم العطلة.

تفاجأت لأن المكان أصبح مهمل والمنزل مقلوباً رأساً على عقب، نظرت إلى مي مي التي فتحت لها الباب: هو إيه اللي حصل ؟

ترقرقت الدموع بين جفنيها وقبل أن تشير لها بما حدث فقد تعلمت حياه لغة الإشارة خصيصاً لتستطيع التواصل معها بسهولة أكثر وتصبح أقرب إليها، ظهرت نجلاء تنظر لها متسائلة وقدمت نفسها: أنا نجلاء

أومأت حياه: أهلاً وسهلاً .. حضرتك بنت مدام سمية مش كدا ؟

- بالظبط، إنتي المُدرسة بتاعت مي مي ؟

- أيوه، أنا حياه

دعتها للجلوس: ماما أول إمبارح بعد ما مشيتي بالليل ماما رجلها اتكسرت لما اتزحلقت على السيراميك ونايمه في السرير دلوقتي

ظهر الحزن جلياً على وجهها ولاحظت حبها لوالدتها، قدم الأب مرحباً بها: أهلاً يا بنتي، أعذرينا على حالة البيت بس اتلهينا ف سمية وماحدش فيه دماغ للترويق

ابتسمت متفهمة: ولا يهمك المهم سلامتها

- اللّه يسلمك

- ممكن أشوفها ؟

- طبعاً طبعاً

رافقها إلى غرفة سمية وتركهما بمفردهما.

اطمئنت على صحتها لكنها تفاجأت من طلبها: حياه، ممكن أطلب منك طلب بس أتمنى ما تكسفنيش

أسرعت حياه: طبعاً يا مدام سمية، لو أقدر أكيد مش هاتأخر

- اعتقد إنك شوفتي شكل البيت بره وإنتي داخله

هزت رأسها فتابعت: أنا متوقعة حالته، كل دا من يومين بس ما أخدتش بالي من البيت وفوق دا كله هأفضل في الجبس ٢١ يوم متخيلة حجم الكارثة اللي هأبقى فيها ؟ .. وما ينفعش أجرب خدامين في الوقت دا، اللّه أعلم ممكن يستغلوا الظرف دا ويسرقوا حاجه أو يعملوا فينا إيه وإحنا نايمين .. عشان كدا أنا بأطلب منك تيجي تقعدي معانا هنا تاخدي بالك من مي مي والبيت لحد ما أفك الجبس وبعد كدا اللي يريحك هيحصل

تفاجأت حياه من عرض السيدة التي أكملت: أوعي تفتكري إنه دا تقليل من قيمتك، أبداً واللّه أنا كان نفسي أطلب من نجلاء بنتي كدا بس هي مش قريبة من مي مي زيك كدا ولا ليها ف شغل البيت أخرها طبقين

تغسلهم، كمان حياتها مع جوزها مش ناقصة لخبطه .. ومافيش واحدة أقدر اسيبلها بيتي وبنتي وأعيشها معايا زيك .. شوفي اعتبريه طلب إنساني وبردو هأدفعلك اللي تطلبيه

رفعت رأسها بشموخ وقالت بحدة حاولت تخفيفها لكن عرق الصعيد الذي يسري في جسدها يأبى الإهانة التي سمعها: أنا لو قبلت يا مدام سمية بكدا فهيبقى عشان أساعدكوا وقت حاجتكوا ليا بس مش عشان فلوس ولا حاجه تانية

تنحنحت السيدة بحرج: مش قصدي حاجه والله يا حياه أنا بـ...

أوقفتها عن تقديم أي عذر: خلاص اللي حصل حصل، أنا هأجي كل يوم أظبط أمور البيت بس هأروح بعد كدا .. مش هأقدر أبات

ثم أردفت بكبرياء: ومش عايزه فلوس .. أنا بأحس مي مي أختي الصغيرة أو بنتي كمان

ابتسمت سمية ابتسامة صدقة هي أيضاً اعتبرت حياه كابنة لها لم تنجبها، أحبتها وشعرت بأن الحياة جارت عليها دون أن تروي لها قصتها، رغبت بمساعدتها دون أن تعرف حتى مشكلتها.

****

ثار وطاح بكل من حوله، أصبح كالأسد المسعور يريد قتل من يأتي تحت براثنه فقط رغبة في تفجير غضبه المكبوت، هكذا صار حاله منذ علم بهروب حياه.

توعد لها وأطلق رجاله في جميع الإتجاهات بحثاً عنها متيقناً عدم عودتها إلى أهلها فهو يعرف كبرياءها .. ذلك الكبرياء اللعين الذي سيقف في طريقة عودتها مكسورة الخاطر مطأطأة الرأس .. ليس ذلك النوع من البشر الذي يقبل أن يعيش في هوان، رغم حبها لعائلتها ستختار العيشة وحيدة مرفوعة الرأس على العيش تحت جناحهم دون ماء وجه.

لقد تلقى التقريع واللوم من رئيسه الذي علم بهروبها كذلك، موجهاً إليه تهمة الإهمال والتسيب، كيف يثق بفتاة هو على علم بأنها ستنتهز أول فرصة في الهروب خصوصاً أنها أول مرة تخرج في عمل، لكن ما لم يعرفه رئيسه والذي احتفظ به لنفسه أنه حتى لو مر عليها ألف ليلة تعمل وجاءتها فرصة للهرب لن تتغاضى عنها وتدعها تمر دون استغلال؛ هذا لمعرفته بها.

تمتمت جميلة حانقة: هو مافيش غيرها يعني على وش الأرض يا شادي ولا إيه ؟؟ ما تسيبها نجيب عشرة أحسن منها

أسند يداً جوار رأسها على ظهر المقعد ورفع سبابة الأخرى في وجهها، كز على أضراسه كزاً: كله إلا حياه! حياه دي بالذات لازم ألاقيها

فتون متعجبة إصراره عليها: وإشمعنه يعني ؟؟

اعتدل شارداً: عشان مافيش واحدة تقدر تستغفل شادي، فاهمة ولا لا ؟؟

ضحكت نيفين ساخرة: ولا عشان البيج بوص هزأك عشانها ؟

أمسك فكها في كفه: تعرفي تخرسي خالص؟؟

دفعها بعيداً عنه لتسقط على أقرب مقعد وقد ملأ الحقد عينيها، سألته جميلة: صحيح أنت مش ناوي تقولنا هو مين البيج بوص ؟

- هيفرق معاكي يعني ؟؟

- عادي، فضول

تنهد: طب اتهدي بقى، لأنه أنا نفسي ما أعرفش شكله

انتبهت حواس الجميع خصوصاً نيفين، تساءلت فتون: إزاي؟ كل دا وما تعرفش شكله؟

- لا ، لما بيقابلني مش بيخليني أشوف وشه .. الأوضة نورها كله بيبقى عليا لوحدي وساعات بيكلمني ف التليفون بس

تمتمت جميلة بتعجب: غريبة

استغرق هو في تفكيره، يحاول الوصول إلى طريقة يعرف بها مكانها، يضع نفسه مكانها لعله يعلم إلى أين يمكنها الذهاب والإختفاء هكذا، مهما طال الزمن سيأتي اليوم الذي يصل فيه إليها ويجعلها تدفع ثمن هروبها من تحت يديه.

****

انتهت من العادة التي عودت جميع أهل المنزل عليها، والتي كانت تفعلها في منزل عائلتها، وهي وضع الزهور بكل غرفة وكل ركن، كذلك

إشعال أعواد البخور يوم الجمعة معطياً رائحة أخاذه في الجو تبعث الحيوية والنشاط.

دق جرس الباب فذهبت تفتحه، تفاجأت بذلك الشاب صاحب البنيان القوي، يُرجع خصلات شعره للخلف بنظارته الشمسية ذات الماركة الشهيرة، لم تعجبها نظرته المدققة مما جعلها تتمتم بعصبية: خير ؟؟ حضرتك عايز حاجه ؟؟

احتلت السخرية ملامحه: أول مرة أشوف خدامة بجحه بالشكل دا

أزاحها جانباً بذراعه غير مبالي بالدهشة التي ملأت كل ملامح وجهها، أغلقت الباب بعنف وتبعته تريد أن تلقي فوق رأسه صخرة لتحطم بها سخريته وتهكمه.

أمرها بغرور: روحي اعمليلي كباية عصير برتقان وهتيهالي على أوضة ماما

رحل دون إضافة كلمة أخرى بينما وقفت هي تضم ثلاثة أصابعها الأولى وتهز كتفيها، من يرها يظنها ترقص ولكن عندما يلقي نظرة على ملامح وجهها المنكمشة يعلم كم تشعر بالضيق: ماما .. جاتك مو .. بقى شحط زيك بيقول ماما !، أما أنت تقول ماما أومال أنا أقول إيه ..!

أفاقت عندما رأت مي مي تقف أمامها ولا تستطيع تمالك نفسها من الضحك على مظهرها، نظرت لها بحنق: بتضحكي على إيه ؟؟

أشارت إليها دون أن تتوقف عن الضحك، وضعت يدها على فم الصغيرة: هش اسكتي خالص بدل ما أطلع اللي قالوه أخوكي عليكي أديني بأحذرك أهو

بعد أن تمالكت الطفلة نفسها من الضحك صحبتها حياه معها إلى المطبخ لتعد العصير، تركتها تلعب في غرفتها بينما دلفت إلى حجرة سمية حاملة الصينية.

دخلت تعض شفتيها حتى تمنع لسانها من الإنفلات، تناول العصير منها دون كلمة شكر واحدة بل الأدهى أنه أمرها أن تعد له الغداء لأنه يشعر بجوع شديد.

فهمت سمية نظرت الغضب المشتعلة في عيني حياه فهتفت تلوم ابنها بعد أن غادرت: مش كدا يا حمزه، مالك بتعاملها كدا ليه ؟؟

تناول رشفة من الكوب قائلاً بلا مبالاة: وهي دي أشكال خدامين يا ماما بردو ؟؟

سألته باستنكار: خدامين إيه يا حمزه؟! .. دي حياه مُدرسة مي مي !

لم يتهنى برشفة العصير فقد رشها بالهواء من هول الصدمة، قالت والدتها باشمئزاز: إيه القرف دا ! ، أنت مش كبرت على الحركات دي

اعتذر من والدتها وهم بالمغادرة، استوقفته محذرة: ما تنساش تعتذرلها يا حمزه.. بلاش الطريقة دي مع حياه بالذات .. البنت كتر خيرها يعني

بتساعدني وأنت مشغول في شغلك وأختك بتجيلي مرة ولا إتنين في الأسبوع زيارة صد رد كدا

لوى شفتيه، من هي ليعتذر منها بالأساس، إنها واحدة من جنس حواء، الجنس الذي يتفنن في الإيذاء، مصاصي الدماء يتلذذون بدم الضحايا أما النساء فيتلذذون باستنزاف مشاعر الرجال ثم يلقونهم ليشبعوا رغبة أخرى أهمها الأموال.

شرب من العصير متلذذاً بطعمه، مال برأسه جانباً: هي أي نعم شكل لسانها متبري منها بس عليها عصير أول مرة أشرب عصير حلو بالشكل دا .. هاهاها بس بعينها تسمع الكلام دا

****

رغم الحزن الطاغي في المنزل لكن تناسى الجميع هذا الحزن وبدأوا بإعداد وليمة ضخمة للضيوف القادمين.

أمسكت المعلقة من يد زهرة لائمه: معقول يا زهرة لحد دلوقتي ما جهزتيش؟؟

- أخلص بس الفصوليا وبعدين أطلع

- بلا فصوليا بلا بسلة، اطلعي اجهزي وأنا هأشوف اللي ناقص .. يا بنتي العريس دا جايلك إنتي مش جايلي أنا

زفرت بحدة: أنا لو عليا مش عايزه جواز خالص

- ليه كدا بس يا زهرة؟

- يعني مش شايفه اللي إحنا فيه؟ .. أتجوز إزاي وأختي مش جنبي ؟؟

أتاهم صوت من على باب المطبخ يهدر بقوة: انسي إن ليكي أخت، إحنا أربع أخوات بس! ، ما تفكريش فيها أحسنلك.

ربتت عائشة على كتفها متنهدة: يلا اطلعي إنتي دلوقتي

انصرفت زهرة صامتة، بينما تابعت عائشة حديثها وهي توجهه إلى زوجها: براحه يا محمود مش كدا، زهرة كانت معتبرة حياه بنتها مش مجرد أخت .. كأنك بتقول لأم انسي بنتك بالظبط

أشاح بيده منصرفاً: ما تجبيش اسمها تاني على لسانك فاهمة ؟؟

تنهدت عائشة بحيرة، كل من بهذه العائلة يمتاز بعناد موروث منذ سابع جد فكيف لها أن تتغير تلك الصفة بين ليلة وضحاها .. ليس بيدها إلا الدعاء.

اجتمعت عائلة العريس مع عائلة زهرة، جلسة للرجال فقط يتحدثون بهدوء وانسجام حتى فُتح موضوع حياه.

تحدث والد العريس: مافيش أخبار عن حياه؟

أجابه فاروق بوجه جامد كالصخر: إحنا ماعندناش بنت بالاسم دا

شقيق العريس الأكبر ملمحاً بلكنة صعيدية: ليكوا حَق، بس الخوف إنها تكون صفة ف العيلة

محمود وقد تملكه الغيظ: جصدك إيه يعني؟

عم العريس موضحاً: اللي وصلك بالظبط يا محمود، مش يمكن أختها زيبها، دا مش بعيد تكون ألعن منيها .. مين عارف ؟؟

نهض فاروق: ومادام فيه أفكار زي دي ف دماغكوا إيه اللي چابكوا إنهاردِه ؟

محمود مؤيداً والده: واللّه أختي ألف مين يتمناها وإحنا ما ضربنكوش على إيديكوا عشان تيچوا تطلبوها

انتفض العريس من مجلسه: وأنتوا تطولوا تناسبوا عيله زيينا ؟؟

محمود بفخر: وأحسن منيكوا كمان !

كانت عائلة فاروق تتحدث في أغلب الوقت باللهجة القاهريه وذلك نتيجة تربيتهم عليها من قبل فاروق وزوجته –رحمها اللّه- لكن وقت الحاجه يتحدثون باللكنة الصعيدية حتى لا يظن الأخرون أنهم عجينة لينه.

والد العريس ساخراً: أوعاك تكون فاكر أنه في حد هيفكر يتچوز أختك يا محمود .. تبجى بتحلم يا وَلدي

محمود: ومالها أختي يا حاچ ؟ .. دي ست البنات .. والبلد كِلاتها عارفه إكده

- أيوه لكن بعد اللي حُصُل من أختك الصغيرة كِله انجلب

فاروق بحزم: دا عنديكوم أنتوا وبس، لكن فيه ناس كَتار مش بياخدوا حد بذنب حد

نهض عم العريس وأشار للبقية بالمغادرة: يبجى خليك مستنيه بجى لما ياجي

غادر العريس مع رجال عائلته ولحق بهم النساء فقد كن يجلسن برفقة زهرة وعائشة بالحجرة المجاورة.

نظرت عائشة إلى زهرة هامسة: يظهر إنها مكتوبالك يا زوزا، مش هتتخطبي أهو من غير ما تكون حياه هنا .. تحسي إنها عامله سحر طول ما هي مش هنا مش هنفرح ههه

ابتسمت زهرة ابتسامة باهتة، لقد اشتاقت لشقيقتها كثيراً ولكن إلى متى سيدوم الإشتياق ويتحمله القلب قبل أن يرتوي؟

****

اختفت خلف في ستارة بركن من أركان غرفة مي مي مخصصة لمسرح العرائس ولاعبتها من خلفها مقلدة الأصوات بطريقة رائعة وفي الأغلب مضحكة إلى درجة البكاء.

كانت مي مي تجلس ضاحكة وقد أوشكت على السقوط على ظهرها من كثرة الضحك، وكان هو على وشك المغادرة عندما استوقفته ضحكاتها التي لأول مرة يسمع لها صوتاً، راقبها من الباب المفتوح على مصرعيه وقد عقد ذراعيه مستنداً إلى إطار الباب.

- وبعدين بقى يا لوزة ! .. إنتي هتتعبيني معاكي ليه ؟؟

جاء الدور على الدمية الفتاة: إمشي يا فلفل بدل ما افتح دماغك بالأوله دي !

المهرج: أولة إيه يا بت إنتي .. وبعدين هو حد قالك إنه دماغي عطشانه ؟؟

الفتاة: أنت فاكر موضوع لما تفتكرني خدامه عندكوا هأعديه بالساهل دا يبقى بعدك !

لم يستطع لجم نفسه أكثر من ذلك وسحب شكل المهرج من يدها وارتداه هو وبدأ يتقمص دوره: ويا ريت ما تنسيش يا لوزة أني خليتك تعمليلي عصير وبعدها غدا .. اتفقنا ؟؟

كانت تشعر بالحرج عندما علمت بسماعه لكلاماتها الأخيرة، لكن بعد جملته تلك عاد الحنق يملأها وردت قائلة بينما تنظر داخل عينيه بقوة: مطرح ما يسري يهري

أمسك معدته مصدوماً وقال بفزع مصطنع: بعد الشر

لم تستطع تمالك ضحكاتها فغرقت في عاصفة من الضحك لم يسحبها منها إلا صوته الحاني عندما قال: تصدقي ضحكتك حلوه أوي

توقفت بهتة ونظرت إليه وعينيها تبعث شراراً فأضاف: بس عصيرك وحش أوي .. إخيه

نزع الدمية من كفه وغادر الغرفة فجأة كما دخلها مخفياً ابتسامة ماكرة شقت شفتيه، نظرت إلى الطفلة فوجدتها تنظر لها بعدم فهم هي الأخرى، أيعقل أنها لا تفهم تصرفاته مثلها ؟

****

شعرت نجلاء بالغرفة تدور من حولها، تناولت الهاتف تدق على الهاتف المحمول الخاص بوالدتها لكنه مغلق، سيطرت على نفسها بقسوه وهي تدق على تليفون المنزل الأرضي لعلها تصل إليها لكن حياه هي من أجابت: السلام عليكم

تحدثت نجلاء بصوت متقطع: حياه .. إلحقيني

أقلقها صوتها الهامس المتوجع: مالك يا نجلاء ؟؟

- تعبانه أوي .. دايخه ومش قادرة أقف

- طب إنتي فين دلوقتي ؟؟

- أنا في البيت

- هاتي العنوان طيب وأنا هأجيلك

أملتها العنوان وبعدها فقدت السيطرة لتذهب في عالم أخر لا تدري فيه شيئاً.

نادت عليها حياه عدة مرات لكن لا حياة لمن تنادي، فكرت ماذا تفعل لا أحد بالمنزل غيرها هي والطفلة، سمية ذهبت برفقة زوجها إلى الطبيب وحمزه ذهب إلى عمله، ليس هناك من حل غير أن تأخذ مي مي معها.

وصلت إلى العنوان وصعدت لكن الباب مغلق وليس هناك من مجيب، طلبت من حارس البناية أن يكسر الباب بعد تردد فعل ما أمرت به خشية مصيبة أكبر.

اتصلت بالإسعاف عندما وجدتها ملقاه أرضاً ونقلتها إلى المستشفى، أجرى الطبيب العديد من الفحوصات والتحاليل كذلك مسحاً ذرياً مما أقلقها وأنساها أن تهاتف أهل نجلاء أو منزل حنان .. كما أنها لا تملك هاتفاً محمولاً ليتصلوا بها حتى يطمئنوا.

****

- أن مش عارفه إيه اللي بتعملوه دا ؟؟ .. هو أي واحدة كدا تأمنوها ع البيت وعيله صغيرة ؟

أخفت سمية وجهها خلف كفيها: يا حمزه حياه عمرها ما تعمل كدا

هتف غاضباً: أومال تفسري بإيه حضرتك أنه الساعة دلوقتي ١٠ وهي لسه ماجاتش وأصلاً خرجت مع البنت من غير استأذن

أحمد بصرامه: أتكلم كويس يا حمزه وما تنساش إني أبوك ودي أمك

قطع التوتر صوت الجرس، فتح أحمد الباب ووجد حياه تحمل مي مي النائمة على كتفها، ادخلها بعد أن تناول الفتاة منها.

استقبلها حمزه هاتفاً: وأخيراً الهانم شرفت

نهرته سمية وهي تكفكف دموعها بعد أن اطمئنت على عودة الطفلة سالمة: استنى يا حمزه نفهم إيه اللي حصل

قال أحمد بعد أن وضع الصغيرة بغرفتها: اهدى بقى .. إيه اللي حصل يا بنتي خلاكي تخرجي وتتأخري بالشكل دا من غير ما تقولي لحد ؟

تداخلت أصابعها بين بعضها من فرط التوتر وصارت تلويهم في قلق لا تدري ماذا تقول، حثتها سمية على الحديث دون خوف فقالت: أصل فيه واحده صحبتي تعبت فجأة وروحت أساعدها

سألها أحمد: طب ما اتصلتيش بينا ليه ؟

- مش حافظه أرقامكوا وماكانش معايا تليفون وكنت خارجه بسرعة، خوفت أسيب مي مي لوحدها لتخاف فأخدتها معايا

حمزه ساخراً: وإحنا عبط بقى عشان نصدق البؤين دول مش كدا ؟

ظهر العرق الصعيدي كعادته فقالت بعصبية: والله أنا مش بأقول الكلام دا عشان تصدقوا أو لا .. أنا قولت كدا عشان أبرر موقفي وأقول اللي حصل عشان من حقكوا مش أكتر .. لكن غير كدا ما عنديش حاجه تانية .. وأتمنى أنك تاخد بالك من طريقة كلامك معايا يا باشمهندس

هتف: مالها طريقة كلامي يا أستاذة، لأكون باكلمك من وداني والكلام طالع من مناخيري .. إنتي اللي ما تنسيش نفسك وإنك مجرد واحدة إحنا مشغلينها عندنا

نهرته سمية لكن أحداً لم يستمع إليها، هجمت عليه تدافع عن نفسها: واللّه أنا مش شغاله عند جنابك عشان تكلمني كدا .. مش عشان قبلت أقف جنب والدتك واستحملت إهانتك ليا يبقى أنا شغاله عندك !، وإذا كان ع القرشين اللي باخدهم من تدريسي لمي مي اللّه الغني عنهم يا شيخ !

انصرفت دون أن تستمع لنداء أحمد أو سمية، فيما فقد إحساسه بالعالم لدقائق ثم ركض مغادراً تاركاً الدهشة تعلو وجه والديه.

قاد سيارته وسار على مهل متلفتاً حوله، وجدها تسير بخطوات حازمة تحمل الكثير من الغضب، هدأ السرعة بشكل أكبر وأنزل الزجاج: تعالي اركبي

لم تعيره أي اهتمام وأكملت طريقها، عاد يطلب منها محاولاً كتمان غضبه: يا بنتي اطلعي هأوصلك بيتك وبعدين اعملي اللي إنتي عايزاه .. الجو ليل وما ينفعش تمشي لوحدك

بعد لحظات عندما فقد الأمل في إجابتها قالت بهدوء لا يتناسب مع حركاتها الغاضبة: ماينفعش أركب معاك العربية لوحدي

تنهد بحنق ثم دلف إلى الشارع الذي يليها، نظرت حولها لتجد أن هذا الشارع لا يسير فيه سواها تغلبت على خوفها وأكملت الطريق تدعو أن تصل سالمة.

لمحت مجموعة من الشبان يبدو من مشيتهم أنهم غير طبيعيين، من فزعها توقفت في مكانها بينما اقتربوا منها حالما رأوها.

انكمشت في مكانها مغمضة عينيها، سمعت صوت لكمات يتلوها تأوهت، فتحت عينيها ببطء عندما سمعت صوتاً لاهثاً يقول: مشيوا خلاص

تنهدت براحه، أردف: مش كنتي سمعتي الكلام وركبتي معايا أحسن

تحدثت إليه بعصبية حانقة تقذفه بنظرات اللوم: أنت اللي سبتني ومشيت

نظر إليها متعجباً من ردها: أنا روحت أركن العربية عشان أجي اتمشاها معاكي مادام مش راضية إنتي تركبي معايا

شعرت بالخجل يلفها فنظرت أرضاً، بدأوا بالسير صامتين حتى وصلوا أسفل المنزل دون أن يشعرا بمرور ساعة من الزمن.

تأكد من دلوفها إلى منزلها .. لم يقدم اعتذاراً عما قاله .. حدثت نفسها أنها ليست بأخر معلمة في الدنيا وأي معلمة أخرى تستطيع تأدية دورها إن لم يكن أفضل .. لكن نسي أن الأمر ليس بيده وأنه إذا اقتنع بما قال .. لن تقتنع هي !

****

حثتها حنان العديد من المرات على الحديث مع أهلها لكن لا تعلم لما هذه المرة بالذات التي أرادت حقاً فعلها.

استعارت هاتف حنان وخرجت إلى الشرفة تدق رقم المنزل الذي تحفظه عن ظهر قلب لتجد شقيقتها تجيب: السلام عليكم

صمتت لم تعرف ماذا تقول، هربت منها الكلمات كما لم تفعل من قبل، دائماً كان يوجد رداً حاضراً على طرف لسانها في أي ظرف لكن هذه المرة ...

أعادت: السلام عليكم

لم تملك سوى زفرة حارة اخترقت السماعة لتصل إلى أذن أختها ثم قلبها تُنبأها بهوية المتحدث الصامت: حياه ؟

بكت بعد أن ظنت أنه لم يعد هناك سبباً للبكاء، وأي سبب أقوى من الإشتياق، الإشتياق لحضنٍ دافئ وصدر حنون يستوعب جميع مشاكلك وتنهداتك المتألمة.

في اللحظة التي نطقت أختها باسمها علمت مقدار شوقها لهم، تريد التحليق الآن والذهاب إليهم حتى ولو سجنوها أو حتى قتلوها .. يكفيها رؤيتهم ولو للمرة الأخيرة.

- إزيك يا حيه..

فجأة اختفى صوت أختها الباكي من الشوق واستُبدل بصوت شقيقها الأكبر محمود الهادر: إنتي ليكي عين تتكلمي تاني ؟؟ .. انسي إن

ليكي عيلة إنتي فاهمة ؟؟ .. إحنا اعتبرناكي موتي وياريت تعتبرينا كدا بردو .. كفايه اللي عملتيه فينا بقى .. أبوكي وبقى عيان يخرج من أزمة يدخل ف التانية وأختك وقفتي حالها .. مافيش حد هيرضى بواحدة أختها هربت مع عشيقها .. شوفي حياتك بعيد عننا بقى .. إنتي خلاص فجرتي ومابقاش منك أمل.

اغلق الخط مانعاً توسلات شقيقتها من الوصول إلى أذنيها: ليه كدا يا محمود حرام عليك

أشفق على منظر شقيقته المتعلقة بذراعه والراكعة أسفل قدميه لكن الكبرياء في عائلة فاروق دائماً هو الغالب حتى أمام قلب يتمزق شوقاً وعطفاً.

على الطرف الأخر زاد تدفق الدموع فوق وجنتيها لكنها هذه المرة حسمت أمرها، لم يعد في بيت عائلتها من مكان، يجب أن تستمر في طريقها كما خططت، أكثر ما حزنت عليه وضع والدها ووقوفها في طريق سعادة شقيقتها لكن لم يعد بيدها حل ...

****

لم يتوقف اعتراض مي مي على عدم حضور حياه لتدريسها مجدداً عند تحطيم بعض الأغراض والإنقطاع عن الطعام إنما وصل إلى حالة إنهيار عصبي حاد.

تحدث إليهم الطبيب بحزم: إيه اللي حصل ضايقها لدرجة إنها دخلت ف حالة إنهيار بالشكل دا ؟؟ .. سنها ما ينفعش فيه الكلام دا وكمان حالتها !

أجابته سمية وهي تنظر لحمزه بلوم: أصل المُدرسة بتاعتها اعتذرت إنها تكمل معاها وهي اتعلقت بيها جداً

الطبيب بتفهم: بصوا يا جماعة هي انطوائية زي ما أنتوا عارفين فالنسبه لأنها تلاقي حد تقدر تنسجم معاه فدا ف حد ذاته انجاز كبير .. أياً كان السبب اللي خلى المُدرسة دي تمشي حاولوا ترجعوها عشان خاطر البنت

أومأ الجميع بتفهم، انصرف الطبيب بعد تأديته لواجبه تاركاً الجميع يفكر في حل مناسب لتلك المعضله.

أحمد: مش هترضى ترجع غير لو روحت أنت تعتذرلها وتطلب منها دا

نظر إليه حمزه مستنكراً فتابع: ما تبصليش كدا، أنت السبب وأنت اللي هتحلها لكن لو عاجبك حال مي مي كدا ف دا موضوع تاني

جلست سمية إلى جوار الفتاة متناولة كفها الصغير بين يديها تبكي حظ الطفلة؛ فهي تفقد من تحبهم دائماً.

****

فتح الضوء لينير الغرفة فور دخوله إليها، وجدها تجلس في الظلام تنظر إلى الـ لا شئ، ألقى مفاتيحه وهاتفه بالإضافة إلى محفظته على طاولة

الزينة ثم اتجه يجلس جوارها، متوقعاً شجاراً جديداً كما اعتاد لكن لدهشته.

سألته بعد أن إلتفتت إليه بصوت أقرب للهمس: تعمل إيه لو أنا مُت يا فادي ؟

صدمه السؤال بشدة، لو تشاجرت معه لكان أهون عليه مما يحسه الآن، لم يفكر يوماً أن الموت قد يحرمه منها، إن مجرد طرح الفكرة يسبب له ألماً لا مثيل له، تمتم: بعد الشر ليه بتقولي كدا ؟

هزت كتفيها مدعية اللامبالاة: كلنا هنموت .. السؤال جه على بالي وحبيت اسأله

أضافت وعينيها لا تتزحزح عن مراقبة عينيه: طب لو شكلي بقى وحش أو شعري وقع .. رفعت أو تخنت زيادة لو الكل شافني وحشه .. هتفضل تحبني ؟

أجابها بهدوء: أنا شايفك بعيوني أنا .. بعيون قلبي

ارتمت بين أحضانه تبكي كما لم تبكي قبلاً، ضمها إليه خائفاً من فقدانها فعندما يطل شبح الموت على الواجهة تتغير الأولويات وقد تتغير المفاهيم أيضاً كأن رهبة الفقد الأبدي هي ما توقظنا من غفلتنا .. ننتبه عادة لقيمة أشخاص معينين في حياتنا عندما نوشك أن نخسرهم الخسارة النهائية التي ليس منها رجعة.

****

ترجل من سيارته بعدما صفها أمام المدرسة التي تعمل بها، شاهد الأطفال يتوافدون خارجين منها في سعادة لإنتهاء يوم دراسي أخر، شاهد حياه تخرج لكن تمسك بيد طفلة وتصحبها معها، شعر بالحيرة فكيف سيحادثها ومعها هذه الفتاة ؟، بعد لحظات وجد رجلاً يقترب ويتحدث إليها ابتعدت الفتاة تسلم على أصدقائها قبل ذهابهم إلى منازلهم.

لم يكن يعلم أن تلك الفتاة هي سمر وأن ذلك هو والدها، لقد تحدثت إليه حنان قبلاً عن الطفلة ومعاملة زوجته الثانية لها، استمع إليها نادماً على ترك ابنته بين أبدي امرأة لا تؤتمن، كذلك اكتشف أنانيتها الشديدة وأنها لا تهتم بسواها، طلقها وقرر تكريس حياته لابنته حتى إشعار أخر.

جاءت حنان حيث كانت حياه تقف بإنتظارها، ودعتا سمر وانصرفتا إلى المنزل مشياً، تبعهم حمزه من بعيد وقد أثار حديثها مع ذلك الرجل حنقه.

لا يدري لما انتظر في سيارته أسفل البناية رغم تأكده من صعود حياه إلى الأعلى برفقة حنان لكنه حالما رأها تهبط من جديد محمله بعدة حقائب ثقيلة وممتلئة تتبعها مجدداً.

دخلت إلى دار الأيتام المشتركة بها حنان لتنوب عنها هذه المرة لأن حنان تشعر بالإرهاق الشديد فيبدو عليها بوادر المرض.

وقف خلفها مباشرة بينما توزع الهدايا على الأطفال، شعرت به فاستدارت على مهل ونظرة استغراب تتضح بشدة في عينيها لكن هذا ليس ما لفته إنما هناك شئ أخر هو الذي ذبح صدره بنصلٍ حاد.

سألته بهدوء: بتعمل إيه هنا ؟

أجابها بمشاكسته المعتادة معها: هي دار الأيتام دي حجر عليكي لوحدك ولا إيه ؟

تنهدت ثم عادت تصب اهتمامها على الأطفال، لقد تغيرت نعم، لقد احتل الحزن مكاناً ليس بهين داخل عدسات عينيها، ما سببه؟، بالتأكيد ليس هو لكن إحتمالية أنه السبب بذلك زاد انغراس النصل ممزقاً أحشاءه.

حان وقت الرحيل، أوقفها ليتحدث معها، أنصتت لما قصه عليها فيما يخص حالة مي مي منذ علمت بعدم عودتها مرة أخرى، ترقرقت دمعة في عيونها ولكنها أبت لها الهبوط في حضرته.

تمتمت بتحفظ: أتمنى لها الشفى قريب

رفع حاجبيه استنكاراً: بس كدا ؟ .. دا كل اللي عندك ؟

استفهمت منه: وأنا ممكن أقدر أعمل إيه أكتر من كدا ؟

أجابها بهدوء مصطنع: ترجعي تاني تدرسيلها

رفعت رقبتها بعنفوان: أسفة، كفايه اللي حصل لحد كدا، كل اللي أقدر أقدمه لحضرتك إني هأخد بالي منها لو قدرتوا تدخلوها المدرسة .. غير كدا فأنا أسفة

بدأ الإنفعال يسيطر على حديثه: بس إنتي عارفه إنها ما ينفعش تروح المدرسة، مش هتقدر تنسجم في حالتها دي، كمان لسه كانت في حالة إنهيار أي ضغط زيادة ممكن يعملها انتكاسه اللّه أعلم نتيجتها هتبقى إيه

رغم تمزق فؤادها بسبب كلماته وتخيلها لوضع حبيبتها إلا أن كبرياءها أبى لها الخنوع فقالت ببرود ظاهري: يبقى أنا ما أقدرش أقدملك حاجه .. عن أذنك

- أنا أسف

أحقاً سمعت تلك الكلمات؟، اعتذر لها أخيراً كانت تعلم أنه من النوع الذي يرفض الإعتذار مهما كان مخطئاً، فأصبح وقع تلك الكلمات عليها كالصاعقة.

إلتفتت إليه لتتأكد مما سمعت فتابع: كدا هينفع ترجعي ؟

رأت اليأس في عينيه كما لمعان الدمع في قاعهما، هممت: للدرجة دي بتحبها ؟

لا تعلم لما سألت هذا السؤال فمن ذاك الذي لا يحبه أخته بالأخص إن كانت مثل مي مي، أجابها بتأني:

مي مي دي رمز لكل حاجه حلوة ف الدنيا، البراءة والطيبة .. الحنية والطفولة .. الشقاوة والعقل، لما بأقعد معاها أو حتى أشوفها بأنسى الدنيا واللي فيها مش بيبقى ف دماغي إلا هي .. دي رحمة ربنا بيا

تمنت وهي تنصت إلى كلماته بقلبها قبل أذنيها أن تكون هي محل مي مي لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. هكذا حدثت نفسها بينما كل ما تفوهت به: هأجي بكره في المعاد اللي كنت بأجي فيه قبل كدا .. مع السلامة

تركته قبل أن تخونها الدموع فتهبط أمامه معبرة عن ضعفها، تمنت أن يكون هناك من يقاتل من أجل سعادتها وراحتها كما يفعل هو من أجل مي مي، لقد تخلى عنها شقيقها عند أول منعطف حاد كأنها لم تكن بحياته، لما لم يحاول أن يأتي على رغباته لأجلها كما فعل حمزه قبل لحظات بإعتذاره .. حسدتها ولكن عادت وتمنت الخير لكلتيهما.

****

انتظمت في الذهاب إلى مي مي تعطيها دروسها، حامدة الرحمن على فك الجبس أخيراً من قدم سمية، بعد يومين ...

جلست على كرسي صغير حول طاولة دائرية في غرفة مي مي تجاورها الصغيرة، لمحت السلسلة حول رقبتها فسألتها: إيه دا، السلسلة دي مكتوب عليها اسمك يا "ميّ"

قطبت جبينها مبدية عدم رضاها عن الاسم فتابعت تسألها: إنتي ليه مش بتحبي حد يناديكي باسم مي ؟، مع إنه اسم حلو أوي ورقيق

هزت رأسها بعنف، هدأتها حياه: خلاص مش مشكلة مي مي حلو بردو

استرخت قليلاً فعادت حياه للحديث: إنتي ليه مش عايزه تتكلمي؟ مع إنه هيسهل عليكي حاجات كتير ويخلي عندك صحاب كتير أوووي أووي

نظرت لها الفتاة بصمت لدقيقة ثم تناولت الدمية من جوارها تسلمها إليها حتى تعتل مكانها في مسرح العرائس وتروي لها بعض القصص الممتعة.

تنهدت مي مي فتاة ذكية تستطيع تخليص نفسها في أشد الأوقات حرجاً لكن يا ترى متى سيجعلها ذلك الذكاء الحاد تتخلى عن قوقعة صمتها ..

قبل أن تتحرك من مكانها أتاها صوت حمزه الواقف على الباب يطلب منها أن تأتي للحظات فهو يريد التحدث إليها، تعجبت فهو لم يخاطبها منذ عادت واعتقدت أن السبب هو ندمه على الإعتذار الذي قدمه.

وقفت معه أمام باب الغرفة فسحبه قليلاً حتى لا يصل الصوت إلى أذني مي مي، مد لها علبة قائلاً بإبتسامة سحرتها: اتفضلي

تناولتها بتردد وقد دفعها الفضول لتعلم ماذا تحوي في جعبتها، رفعت إليه نظرات مملؤه بالدهشة: دا موبايل

هز رأسه مؤكداً: ليكي

أعادته إليه: مش بأخد هدايا من حد من غير مناسبة

رفع أحد حاجبيه: ومين قالك إنه من غير مناسبة ؟ .. دا هدية شكر عشان وقفتك جنبنا الفترة اللي فاتت أيام ما ماما كانت رجلها متجبسة وساعدتينا من غير مقابل

أضاف غامزاً إياها: كمان عشان لما تنزلي مستعجلة وتاخدي مي مي معاكي تقدري تكلمينا وتقوليلنا بدل ما واحد كدا ثقيل ورخم يقولك كلمتين يزعلوكي فتسيبي المسكينة اللي جوا دي وحالتها تقطع القلب

حاولت إخفاء إبتسامتها لكنه استطاع لمحها مما جعل إبتسامته تتسع أكثر، تمتمت: شكراً

هم بالإنصراف عندما استدار إليها متذكراً: أه صحيح هتلاقي عليها نمرة واحدة بس متسجلة .. هتلاقيها متسجلة باسم الأرجوز .. فدي نمرتي يعني لو عوزتي حاجه

عندما رأى إتساع عينيها، أضاف بمكر: وكان موبايلي تايه مش عارف بيتسرمح فين فرنيت عليه من موبايلك .. وأنا كشخص مش بأحب الأرقام الغريبة اللي مالهاش اسم دي بتبقى دخيلة كدا ودمها تقيل فسجلت النمرة باسم ...

صمت قليلاً مما جعل كل حواسها تنتبه وهذا ما أراده فأكمل: الشعنونه

كزت على أسنانها غيظاً، علق على حالتها: أومال أنا بس اللي يبقى اسمي عبيط ؟ .. دا بعدك

انصرف وتركها في حالتها تلك لكن لم تمر لحظات حتى انفجرت ضاحكة، إنه مجنون، عادت إلى الداخل حيث مي مي التي نظرت إلى العلبة في حيرة.

- تعالي نقعد نستكشف البتاع دا بيشتغل إزاي هههههه لا وجايبهولي حديث كتر خيره

قفزت الفتاة في مرح فهي تعشق اكتشاف كل جديد وجلست إلى جوار حياه .. استغرقوا في قراءة كُتيب التعليمات.

لم يشعر أياً منهما بأن هناك من يتابع الحديث منذ بدايته، بوجه جامد لا تعلوه أي تعبير سواء الرضا أو السخط ..

****

شعرت بأن جدران المنزل تطبق على صدرها حد الإختناق، تريد التحدث إخراج ما بداخلها، تبكي وتطلق العنان لمشاعرها حتى تعبر عن الأعاصير التي تدور دون توقف في نفسها، لم تجد غيرها حلاً فهي من رافقتها إلى المستشفى .. لا تعلم نتائج الفحوصات ولكن ما الضرر الذي سيحل إذا علمت .. ستأتمنها على السر متأكدة من حفظها له .. مستغلة إنشغال زوجها في شركته.

أتت إلى منزلها فقد حفظت العنوان قلقة من صوتها الذي أتاها عبر الهاتف، قبل أن تنبس بحرف ارتمت نجلاء بين ذراعيها تبكي بكل ما يجيش داخل قلبها من قلق.

مر وقت لا بأس به حتى هدأت وبدأت تقص عليها ما ظهر بالتحاليل والنتائج التي أطلعها عليها الطبيب المختص.

أنهت قصتها باكية: طلع كانسر ف المخ .. أنا لحد دلوقتي مش قادرة أصدق

حزنت على حالها ولكنها تماسكت فهي ليس بحاجه إلى إنهيار أخر بل إلى دعم: طب الدكتور قالك إيه عن الحاله .. مرحلته إيه ؟

- هو قال إنه لسه في مرحلته الأولى وإنه العلاج الكيماوي ممكن يجيب نتيجة وما نضطرش نستخدم التدخل الجراحي

شجعته بأمل: طيب الحمدللّه .. احمدي ربنا إنك اكتشفتيه ف الأول وهنلحقه إن شاء اللّه

- بس الكيماوي هيوقع شعري .. هيخليني دبلانه

نظرت إليها متعجبة: وإيه المشكلة ؟؟ .. دي فترة وهتعدي

صوبت بصرها إليها غاضبة: وجوزي؟؟ ... هيبصلي إزاي لما أبقى بالشكل دا ؟؟

ربتت على ظهرها: أكيد مادام بيحبك هيقف جنبك وهيصبر معاكي

انتفضت واقفة تتحدث بعصبية: يصبر على إيه ولا إيه .. على إني مش بأخلف ولا على واحدة ممكن تموت ف أي لحظة ولا على شكلي اللي هيبوظ أكتر

وقفت حياه أمامها بصرامة: الموت دا حقيقة موجودة ف أي لحظة بتحصل، مش من ساعة ما عرفتي بالمرض وبس! ، شاب ماشي بصحته ف الشارع فجأة وقع مات .. واحدة فجأة جات لها سكتة قلبية ماتت .. طفل صغير بيعدي

الطريق ظهرت عربية الله أعلم منين خبطته فمات .. أنا نفسي ممكن أموت قبلك .. إيش عرفك؟؟ .. إنتي بس أخدتي بالك من الموت لما خبط على بابك لكن هو موجود في كل مكان حولينا بس إحنا اللي مش بنحب نشوفه غير لما يجبرنا نبص عليه.

أما بالنسبة بقى لموضوع الخلفه فمن اللي شوفته فادي مش فارق معاه مادام إنتي معاه، هو أصلاً طول اليوم ف الشغل ولما بيجي بيبقى عايز يريح دماغه وينام ، لكن طفل في البيت وصداع وعياط وجيبله كذا والطلبات اللي ما بتخلصش، هو لسه في بداية الطريق أكيد هيبقى حمل زيادة عليه

شكلك بقى .. ماله شكلك؟ .. دي فترة بس العلاج الكيماوي وبعدين هترجعي زي الأول وأحسن .. أصلاً لو أهتم بشكلك على حساب صحتك فدا مش هيبقى دليل إلا على حاجه واحدة بس .. إنه ماكانش بيحبك أساساً ! ... وبعدين خليكي واثقة ف نفسك وف أنوثتك

ضمتها نجلاء قائلة بضعف: ما تسبنيش يا حياه، أنا محتجاكي معايا ، إنتي اللي هتفوقيني، الكل بيجاملني .. حتى ماما لكن إنتي اللي بتكلميني بصراحة ودي أكتر حاجه محتاجها الفترة اللي جايه

تحسنت حالتها أكثر وحاولت حياه أن تصرف إنتباهها عن الموضوع فأخذتها إلى المطبخ تعلمها طبخات جديدة تقضي بها بعض الوقت قبل أن يعود فادي وكذلك تشغل عقلها بشئ مختلف.

أثناء إنشغالهما في المطبخ دق جرس الباب، ذهبت نجلاء تفتحه لتتفاجئ بقدوم زوجها مبكراً وأيضاً برفقة شقيقها.

خرجت حياه ضاحكة لا تعلم بقدوم أخرين: تعالي بصي يا نوجه على الأشكال الهبلة اللي عملتها ..

تبخر ما كانت تريد إضافته لجملتها السابقة عندما ألتقت عيونها بنظرات حمزه الضاحكة الذي علق بمكر: هو لازم نوجه يعني هي اللي تيجي تشوف؟ .. ماينفعش أنا مثلاً ؟

استدارت تواري خجلها: أنا داخله المطبخ أكمل أبقي تعالي يا نجلاء ما تتأخريش

عقب حمزه مشاكساً: بقت نجلاء دلوقتي ؟؟ مش كانت من شوية نوجه ؟؟

قرص فادي ذراعه فإلتفت إليه حانقاً: في إيه ؟

غمزه: خف ع البت شوية، هي مش قدك وأنت رايق يا دونجوان

نجلاء باسمة: آه يا ريت فعلاً تخف يا حزومه

أمسك بذراعيهما ودفعهما بعيداً عنه: ما تتلهوا أنتوا الإتنين ف بعض وتفكوا مني !

سامح: خلاص خلاص ما تزؤش أنا رايح أغير هدومي

حمزه مشيراً إلى نجلاء: وإنتي روحي مع جوزك مش ناقص زن

تركاه وضحكاتهما تتعالى، عدل من وضعية ملابسه وجذب ياقة قميص: استعنا ع الشقى بالله

دلف إلى المطبخ حيث وجدها منخرطة فيما تفعله لإعداد الطعام، تحدثت ظناً منها أن القادم هي نجلاء: مش كنتي تقولي أنه جوزك وحمزه جُم ولا تسبيني أطلع على عمايا كدا ؟؟

- صدقيني أحلى ما فيكي البراءة والعفوية .. الحمدلله إن نجلاء ما حذرتكيش

لمح اشتداد عودها متصلباً، كانت على وشك البكاء؛ لما يأتي دائماً في اللحظات غير المناسبة عندما تكون على راحتها في الكلام سيظنها طفلة هكذا كما أنها لا تتذكر موقفاً واحداً رأها فيه تتصرف بعقل وتتحدث برزانة.

أضاف ليزيد إرتباكها: دي أول مرة اسمعك تنطقي فيها اسمي .. مش بيعض مش كدا ؟؟

أرادت أن تصحح له فكرته تلك فهي تردده دائماً لكن بينها وبين نفسها ليس أكثر، فهو بالنسبة لها كالحلم الجميل إذا سردته طار مبتعداً بين الأفق.

سحبته نجلاء إلى خارج المطبخ: روح أقعد مع فادي قدام التي ڤي عقبال ما نخلص الأكل ونناديكوا

انصرف صامتاً فليس هناك من جدوى في بقاءه مادامت نجلاء ستبقى واقفة بينهما، جلس بجوار فادي شارداً، تغير تفكيره كثيراً، لقد كان يتجنب أي إحتكاك مع النساء لكن منذ ظهرت هي في حياته أصبح يبحث عن كلمات كي يناكفها بها.

****

أجاب الرنين المتواصل لهاتفه بملل: خير؟

هب واقفاً عندما سمع الخبر الذي نُقل إليها حالاً، أغلق الخط وخرج مسرعاً نظرت له جميلة متسائلة: هو حصل إيه؟

- عرفوا مكانها !

تركهم منصرفاً بسرعة والسعادة تشع من عينيه كما لم تفعل منذ فترة، زفرت جميلة بحدة واتجهت إلى غرفتها غاضبة، استرخت نيفين أكثر في جلستها وشردت عينيها بعيداً أما فتون فظهر الحزن بعينيها وعضت شفتيها قلقاً.

****

تبادلوا الضحكات والمزاح أثناء تناولهم الطعام .. شعرت بتأقلمها معهم كأنها تعرفهم منذ زمن، هي معتادة على الإنسجام مع الناس بسرعة فقد كانت تتعامل يومياً مع أناس مختلفين بحكم أتخاذها للخبرة الكافية في مجال دراستها ولممارسة اللغة كما أن تخصص سلمى صديقتها في كلية إقتصاد وعلوم سياسية جعلها تشاركها الكثير من التعامل مع الناس لكن لكل منهما هناك هدفاً مختلف.

كانت أغلب نظراته تقع عليها ولا تتحرك، تتابع حركاتها ورموش أجفانها رد فعلها ضحكتها العفوية .. كل شئ .. رغم عمرها شعر أنها ما تزال تحتفظ ببراءتها .. طفلة في جسد امرأة .. هز رأسه مقتلعاً عينيه من فوق وجهها.

رن هاتفها فانسحبت تجيب، شعر برغبة جامحة في معرفة من الذي نهضت لتتحدث إليه بعيداً عنهم مما جعله يلحق بها بينما تبادل فادي وزوجته النظرات .. تدل على تفاهم متبادل بين الزوجين.

- حاضر يا حنان .. يا بنتي اللي يشوف كدا يقول إنك مامتي .. هههههه عاجبني يا ستي ولا تزعلي نفسك .. خلاص والله هأعتذر منهم وأجي .. ماشي مع السلامة

استدارت لتعود إليهم لكن جسد حمزه منعها من المرور .. ابتسم: هتمشي؟

أومأت مجيبة بصوت هامس: أيوه

عقد ذراعيه: طبعاً مش هترضي إني أوصلك مع إن الليل داخل خلاص

هزت كتفيها: زي ما قولتلك ما يصحش .. ممكن أعدي بقى ؟

تنحى جانباً في صمت سامحاً لها بالمرور .. اقترح على شقيقته وزوجها أن يأخذهما إلى إفتتاح معرض لوحات لأحد الفنانين الذين يحبهم فادي بشدة، فرحب بالفكرة كذلك نجلاء.

أضاف حمزه ناظراً إلى نجلاء بتحدي: ونوصل الأنسة ف طريقنا بالمرة

راجع الجملة التي قالها فلم يجد بها سبباً للألم الذي ظهر في عينيها فجأة ..

أوقف السيارة أسفل البناية التي تقطنها وانتظر حتى تأكد من صعودها قبل أن ينطلق بسيارته مع شقيقته وفادي إلى حيث أتفق معهما.

ارتفعت الأعين المليئة بالشر والوعيد إلى الشرفة التي وقفت بها تطل على السيارة تتبع انصرافها بقلب مشتاق ثم تدلف إلى الداخل بهدوء مغلقة باب الشرفة خلفها وتشد الستار الشفاف عليها.

****

- أنا مش عارف إيه الاجتماع السري دا ؟؟

- مش عايزه حد يعرف الموضوع اللي عايزاك فيه ؟

- حد مين يعني؟ .. البيت مافيهوش غير بابا ومي مي .. من إمتى بتخبي حاجه يعني؟

علقت مركزه نظراتها على عينيه: وحياه

حاول إخفاء توتره ناسياً أن والدته كانت ناظرة مدرسة للمراهقين وتعرف علامات الإعجاب والحب من نظرة عين: مالها ؟

تنهدت: بتحبها ؟

كان تقريراً أكثر منه سؤالاً .. تنهد: بتسألي ليه ؟

- من ساعة ما شوفتها لما رجعت وأنت كل شغل يجيلك فيه سفر ترفضه مش بتقبل غير الشغل اللي مش محتاج سفر .. جبتلها موبايل هدية .. بتوصلها لبيتها .. حاجات كتير يا حمزه

نظرة جليدية طغت على عيونه: والمطلوب ؟

- بص يا ابني إحنا مش نوعية الناس اللي تلعب بالأعراض .. عايزها أتجوزها وأنا مش هأقف قدامك لكن طريقة الحرمية دي مش أسلوبنا ولا أنا ربيتك على كدا

شرد بعيداً قبل أن يردد: بس أنا مش مستعد للجواز دلوقتي

أجابته بحزم: يبقى تبعد عن طريقها وتسيبها تشوف حالها .. ما تلعبش بقلوب البنات يا حمزه عشان أنت مش قد نتايجه

تناولت حقيبتها مضيفة: فكر كويس ف اللي قولتهولك يا تمشي صح يا تبعد عن طريقها نهائي هما حلين مالهومش تالت .. هأروح لأختك أطمن عليها .. سلام

تركته يتخبط في أفكاره لا يدري ماذا يفعل، لم يفكر في الخطوة القادمة وبالتأكيد لن تكون الزواج، هناك شكوك تعتمل بقلبه تجاه الجنس الناعم .. فقد يكون ناعماً من كثرة الاستخدام !

****

تعجبت من طلب أحمد بأن تبقى مع مي مي حتى عودته فقد نُقل أحد أصدقائه إلى المشفى على عجل ويجب أن يذهب ليطمئن عليه .. وسمية خرجت برفقة حمزه لا تدري إلى أين.

استسلمت بالنهاية للحدث الراهن، شاركت الفتاة لعبها بعد أن أنهت شرح دروسه وتأكدت من استيعابها الكامل له، نظرت إلى ساعتها معلنة تمام السابعة .. إذاً لقد حل الظلام.

رحبت بدق الباب واتجهت تفتحه فهي مشتاقة للعودة إلى المنزل لتستحم وتغط في نوم عميق .. لقد كان يوماً متعباً فالمدرسة ويليها دروس مي مي ثم اللعب معها استهلك طاقتها كلها.

دفعها الطارق إلى الداخل مغلقاً الباب بسرعة .. شهقت فزعاً عندما تعرفت عليه لكنه لم يسمح لها بأكثر من ذلك فقد أطبق على فمها يخرسه .. حاولت دفعه ومقاومته بلا جدوى.

همس بشراسة وأنفاسه تخترق حجابها وصولاً لأذنها: كنتي فاكره إنك هتقدري تهربي مني؟ ولا فاكره إني هأسيبك تفلتي من بين إيدايا؟ .. في الحالتين دا بُعدك!

توسلت إلى ربها بدموعها التي لا تملك سواها .. فتح الرجل الأخر الذي يصحبه الباب ليتأكد من خلوه لكن لحسن حظها و سوء حظهم كانت هناك مشكلة في الدور السفلي بين جارين لسبب ما .. فقررا الإنتظار قليلاً.

لمحت حياه الطفلة تقف مذعورة على باب الغرفة فأشارت لها بعينيها لتختبئ بالغرفة خوفاً من أن يصيباها بمكروه .. تبادلاتا حديثاً صامتاً من خلال الأعين لم يشعر بهما أحد فالأول يراقب الشارع من النافذة وهو يمسكها في قبضته والأخر يتابع تطور المشكلة بين الجيران.

ارتعشت الطفلة خائفة، لقد رأت لأول مرة مسدساً حقيقياً معلق في حزام كلا الرجلين .. تناولت الهاتف الخاص بحياه الذي أهداه إليها حمزه من قبل، تذكرت حياه عندما أخبرتها ضاحكة أن أخاها مجنون لدرجة أنه

كتب اسمها على هاتفها "الأرجوز" .. بحثت عن الاسم حتى وجدته وانتظرت تسمع الرنين.

****

جلس مُسعد في الكرسي المقابل لصديقه أمام النيل .. طلبه حمزه قائلاً أنه بحاجه إليه فترك ما بيده وأتى إليه راكضاً فليس من عادته استخدام تلك الكلمة كما أن صوته لا يشي بالخير لكن منذ ذلك الحين وهما يجلسان أمام بعضهما.

زفر مُسعد: يا ابني أنت جايبني هنا عشان نلعب تماثيل إسكندرية ؟ .. ما تنطق في إيه ؟

لم يرد ومرت دقائق أخرى من الصمت فقد فيهم الأمل بأن يتلقى جواباً على سؤاله لكن حمزه تحدث قائلاً بشرود: مش عارف أخد قرار

ضرب ظهر يده بكفه الأخر ثم مسح على وجهه طالباً الصبر من الله: فهمت إيه أنا كدا بالصلاة ع النبي ؟؟

هم حمزه أن يفرغ ما في جعبته لكن قطعهما رنين الهاتف المتواصل .. لمح مُسعد بطرف عينه اسم المتصل بهتف مندهشاً: الشعنونه ؟؟

ظل حمزه ينظر إلى الهاتف متردداً في الإجابة، حثه مُسعد على الرد كاتماً ضحكته فمن تردد صديقه توقع أن تكون تلك الـ "شعنونه" هي سبب حيرته وشروده.

أول ما التقطته أذنه كان صوت نحيب مما أشعل القلق في قلبه، همس: حياه ؟

جاءته همهمت أحد يريد الحديث لكن الكلمات لا تطاوعه، أحباله الصوتية تلجم الكلمات وتمنعها من النفاذ عبر الحنجرة، سمع صرخة وشخص يتحدث بصوت عالي مهدداً، تساءل بعصبية: حياه !!

أته صوت طفلة يقول بحروف متقطعة: ألحـ قـ نا يا .. أبيــه حمزه .. في ناس .. اتنين رجاله .. ماسكين ميس .. حياه وبيضـ ربوها !

لم ينتظر حتى يسمع أكثر من هذا، أمسك مُسعد من ذراعه يُنهضه معه دون أن يفهم الأخر أي شيء كل ما فعله هو التشبث بمقعده المجاور لحمزه الذي يقود بسرعة جنونية تكاد ترسلهما إلى حتفهما.

****

حاولت الفكاك من بين قبضته لكنه صفعها حتى سمع صراخها قائلاً بتلذذ شيطاني: أيوه سمعيني صريخك .. إنتي لسه ما شوفتيش حاجه من اللي هأعمله فيكي !

سألته متحاملة على ألمها: أنت عايز مني إيه ؟؟ .. شادي أنا ما بلغتش عنك ولا قولت حاجه أنا عايزه أعيش حياتي وبس !

أمسك شعرها عبر حجابها صارخاً في وجهها: إنتي مالكيش حياة بعيد عني إنتي فاهمة ؟؟ حياتك معايا وبين إيدي أنا وبس

ردت بتحدي لا يتناسب مع وضعها: لا .. حياتي وحياتك ف إيد ربنا .. أنت ما بتخافش من ربنا ؟!

يبدو أن عقلها توقف عن العمل فكيف يهاب اللّه وهو يفعل ذلك في الفتيات ممزقاً أعراض النساء .. ليس من المعقول أن يكون قواداً وفي ذات الوقت يخشى سخط اللّه.

ضحك ضحكة أفزعتها: ربنا ؟؟ .. سبنالك إنتي الخوف منه يا ستنا الشيخة

لمح مرافقه الطفلة وهي تحاول الإختباء وفي ذات الوقت لا تحرك عينيها عن حياه فهي التي تهبها القوة والإحساس بالأمان.

أمسك بها وهي تصرخ محاولة التسلل من قبضته لكن هيهات أن يفلت الأرنب من براثن الذئاب.

أنفض الإشتباك بين الجيران وساد الهدوء العمارة؛ فقرر شادي الإسراع بالرحيل قبل أن يأتي ما يعطلهم من جديد، اقترب منها وهمس بوحشية: عارفه لو عملتي حاجه كدا ولا كدا تلفت الأنظار .. اقري على البت دي الفاتحة وإنتي اللي هتشيلي ذنبها .. لأنه إحنا خلاص من كتر اللي ماتوا تحت إيدينا مابقاش عندنا إحساس

تمتمت متوسلة: طب هتعمل بيها إيه ؟ .. سيبها وأنا هأمشي معاك لوحدي

بكت الطفلة بشدة: لا ما تسبينيش يا ميس حياه

هول الموقف منعها من التركيز على عودة قدرة مي مي على الكلام، قالت مهدئة مي مي: حبيبتي إنتي هتفضلي هنا لحد ما ماما وبابا يجوا ماشي ؟

ضغط على ذراعها لتنهض: إنتي تسكتي خالص .. هي هتيجي معانا عشان ما تصرخش وعشان جنابك ما تعمليش حركة جنان كدا ولا كدا

مسحت وجهها كما أمرها وطلبت من الفتاة إلتزام الصمت حتى لا يصيبها مكروه، هبطت معهم باستسلام صامت، في الوقت الذي احتاجت فيه أن تكون وحيدة حتى تستطيع التصرف فحياتها ملك لها وحدها وجدت من يتشبث بها ولا يرغب في الإبتعاد عنها على عكس الأوقات التي كانت تتمنى أن تجد من يتعلق بها ويثبت أهميتها في حياته ولم تجد .. إنها سخرية الحياة.

أمام باب السيارة وقبل أن يصعدوا إليها، وصل حمزه وكان يهم بالترجل من سيارته، لمحته مي مي فصرخت باكية تطلب منه المساعدة: أبيه حمزه !

رفعت حياه نظرها ولمحته لكن شادي ومرافقه كانا أسرع منهم فقد قذفوا بهما داخل السيارة وانطلق سائقها الذي كان بانتظارهم يقود بسرعة قبل أن يصل إليهم حمزه.

****

تذهب وتعود إياباً، لقد استبد بها القلق، لأول مرة تتأخر إلى هذه الساعة، أيضاً لا تجيب على هاتفها، هل أصابها مكروه أم ماذا ؟؟؟

حاولت الجدة أن تهدأها لكن كيف لها أن تنجح وهي نفسها تشعر بالتوتر قد تمكن من كل خلاياها، هناك شيء ما في قلبها ينبؤها بحدوث أمر سئ لتلك الفتاة منعها من العودة.

قررت أن تكرر الإتصال لعلها تصيب هذه المرة.

****

التوتر والبكاء يسود المنزل، سمية تبكي الصغيرة التي لا تعلم من أخذها وأين ذهبت، تواسيها نجلاء ودموعها تهبط على وجنتيها معلنة ألمها هي الأخرى.

أنهى أحمد حديثه مع ضابط الشرطة بعد أن طلبوه عند علمهم بما حدث وحادثة إختطاف الطفلة ومعلمتها ومُسعد يقف إلى جواره يدعمه كذلك فادي.

أما حمزه فمنذ فشل في تتبع أثرهما وهو صامت لا يتكلم رأسه تدور من هؤلاء وماذا يريدون .. لقد كانوا مهره إلى درجة قدرتهم على إضاعته بسهولة شديدة .. وكان من الغباء وقلة التركيز بأن فشل في اللحاق بهم.

بعد رحيل الضابط حل الصمت على المنزل، صمت يشوبه التفكير والتساؤلات لكن قطعهم إرتفاع رنين الهاتف الذي لم يكن يخص أياً منهم .. تبادلوا نظرات الاستفهام، كان حمزه أسرعهم فتتبع الصوت وأمسك بالهاتف مكتشفاً هوية صاحبه .. كان الهاتف يضئ باسم "حنان" .. أجاب خائفاً من فقدان الإتصال ليسمع الطرف الأخر يتنهد براحة نسبية:

حرام عليكي يا حياه وقعتي قلبي فينك إنتي لحد دلوقتي كنت هأموت من القلق يا بنتي

لم يتفوه بكلمة فعاد القلق يسطو على نبرتها: حياه ؟؟

تنهد مجيباً بتماسك: حياه اتخطفت ..

أعطاها العنوان على وعد بالقدوم بأسرع وقت .. طمأنت جدتها وهبطت تتسابق مع نفسها لتصل في زمن قياسي، أخبر هو أهل المنزل بقدوم حنان التي تقطن برفقة حياه.

بعد أن حضرت وقصوا عليها ما حدث بالإضافة لقلقهم من هوية هؤلاء المجرمين، ترددت حنان في البداية لكنها أخبرتهم بقصة حياه حتى قابلتها لعل ذلك يكون بداية الخيط للوصول إلى الجاني.

أسرع أحمد يتحدث إلى ضابط الشرطة يخبره بالتطورات وحمزه في عالم أخر يفكر بأنها ليست ذلك الملاك الذي ظنه، لم تكن بريئة .. اتضح أنه أكثر براءة منها.

لفتت تلك النظرة التي لمعت في عيني حمزه إنتباه حنان فلحقت به إلى الشرفة حيث خرج يشتم بعض الهواء العليل، انضمت إليه تخبره أكثر منها تسأله: هتتخلى عنها بعد ما عرفت الحقيقة مش كدا ؟

راقبت لمعان النجوم وإختباء القمر خلف عدة سحابات متلونة بلون الليل مضيفة بتوسل: أتمنى إنه دا ما يمنعكش إنك تدور عليها وتلاقيها .. مش عشانها قد ما هو عشانك .. صدقني التعايش مع إحساس بالذنب دا أسوء

أنواع العقاب والتعذيب النفسي .. وقتها هتتمنى تموت والإحساس دا يبعد عنك لإنه بيخليك تموت ١٠٠ مرة ف الدقيقة.

تركته يتخبط في أفكاره، أخلاقه كما دينه لن يسمحا له بفعل عكس ذلك معها رغم أنها كسرت بداخله شيئاً لا يتوقع إصلاحه في وقتٍ قريب .. ما جعله يدخل في تلك الحالة هو أنه قد استقر على طلبها للزواج فور فزعه وقلقه أن تكون ف خطر لكن المفاجأة التي سمعها من حنان الآن ألقت بأحلامه إلى البحر تلتهمها الأسماك دون الإبقاء على شيء منها.

****

ألقاها أرضاً بغرفتها التي خصصت لها منذ حضرت إلى هذا المكان في المرة الأولى، تشبثت بالطفلة لتحميها من بطش هذا الكائن الذي لا يرقى ليصبح إنساناً.

رفع سبابته في وجهها محذراً: فكري تهربي مرة تانية وقتها مش هيطلع عليكي صبح

ثم أضاف ناظراً للفتاة: ولا ع الأمورة يا حياه .. فاهمة ؟؟

تركها صافعاً الباب خلفه، ضمت مي مي إلى حضنها تبكي الحال الذي وصلت إليه كذلك جرت معها طفلة ليس ذنبها شيء إلا أنها تعلقت بها وأحبتها من كل قلبها.

رفعت مي مي كفها الصغير تكفكف دموع حياه قائلة: ما تعيطيش يا ميس حياه .. أبيه حمزه مش هيسبنا وهيخرجنا من هنا ويخلي عمو اللي برا دا يبعد عننا خالص

لأول مرة تنتبه حياه إلى أن مي مي لا تستخدم الإشارات لتوصل ما ترغبه بل تتحدث بلسانها دون أخطاء، سألتها مصدومة: إنتي بتتكلمي ؟؟

أومأت باسمة: أيوه، لما طلبت أبيه حمزه في التليفون الكلام طلع

أمسكت رأسها تجذبها إلى صدرها تبكي لكن هذه المرة دموع الفرحة: الحمدلله .. الحمدلله

ظلت تضمها حتى أتى سلطان النوم ليأخذها إلى عالمه بعيداً عن هذا العالم الذي بكل أسف هو الواقع .. أهذا هو الحب الذي طالما بحثت عنه .. تفتقده في حياتها فعاشته بين دفتي الكتب، تلتهم الروايات والحكايا علّها تجد فارسها بين السطور، لكنها اصطدمت بواقع الحياة فليس الحب في دنيانا كالحب بين صفحات الروايات، تمنت في كثير من المرات أن يخرج فارسها من بين دفتي إحدى الروايات ليكون زائر أحلامها الدائم ورفيق دربها الأبدي، لقد كان يجذبها إلى فارسها مظهره قبل ما بداخله، هنا بدأت غلطتها وهنا أنتهت أحلامها، فقد رزقها الله بالمظهر كما تمنت لتدرك أن هناك ما هو أهم منه ويفوقه حُلماً ألا وهي الأخلاق الحميدة

والعقيدة المتينة، فلو كان شادي يملك ديناً قوياً متيناً ما ألت إليه نفسه إلى ما يفعله الآن، لأول مرة تمنت عدم معرفتها بالحب .. عند ذلك الحد تذكرت حمزه، لِمَا ذكرته في هذه اللحظة بالذات، لقد أنكرت كثيراً حبها له وتعلقها به ولكنها لم تعد تستطيع بعد الآن.

****

مر يومان على ما حدث حينما دخلت عليها نيفين متسللة حتى لا يعلم شادي بدخولها أو حديثها إلى حياه، اقتربت منها توقظها.

انتفضت مجفلة وتبادلت مع نيفين نظرات الإستغراب: في إيه ؟

استقامت نيفين في وقفتها: إيه مش عايزه تخرجي من هنا ولا إيه ؟

انتبهت جميع خلاياها منصتة فتابعت: جهزي نفسك بكره زي دلوقتي هتكوني بعيد عن هنا إنتي والبت اللي معاكي كمان

تركتها وغادرت دون أن توضح كيف ولماذا تفعل ذلك ؟؟؟

****

انشغل بالبحث عن الأماكن التي يمكن أن يلجأ إليها شخص كشادي ليخبأ مي مي وحياه، لم يتخلى عنه صديقه مُسعد .. قررا أخذ قسطاً من الراحة في إحدى الكافيهات يتشاوران في الخطوة التالية التي يجب عليهما أتخاذها.

دق هاتفه مُعلناً اتصالاً من رقم غريب، أجاب مسرعاً على أمل أن يكون الخاطف أو أحد أتباعه، فإذا خطفوا حياه فما ذنب الصغيرة؟

تفاجئ بصوت أنثوي ناعم يقول بدلال: حمزه .. إزيك ؟

لم ينسى صوتها الذي كان يسهر معه الليل، يسمعه يصب في أذنيه أبهى كلمات العشق والوله، لكن للغرابة أصبح يشعر الآن بأنه يشبه حفيف الأفعى عوضاً عن زقزقة العصافير.

أجابها بملل: عايزه إيه ؟

- أشوفك

- ليه؟

- لما أشوفك هتعرف

تنهد بقوة فاقداً صبره ثم أخبرها باسم الكافيه فعرفته، تعجب مُسعد من قبوله لرؤيتها لقد توقع أن تكون السبب في لوعة صاحبه من طريقة حديثه إليها .. لا يمكن أن يكون أصابه الضعف تجاهها عندما سمع صوتها حتى أن طريقة كلامه لا تشي بذلك.

- تحب أقوم أمشي عشان تاخدوا راحتكوا

- راحتنا إيه بس .. أنا عايز أشوفها عايزه إيه، عشان أخلص من زنها .. أنا لو ماكنتش وافقت أقابلها كانت كل دقيقتين تتصل بيا وتشتغل بقى عليّا .. وأنا بصراحة مش ناقص وجع دماغ هي صفحة ولازم تتقفل بأي شكل

أطمئن مُسعد على صديقه، أتت بعد حوالي الربع ساعة بأبهى حلتها لكن لم تثر به أي شيء فمن اعتاد على رؤية الملابس الواسعة المحتشمة والوجه الخالي من الكيماويات لن يلقي بالاً إلى ما هو أقل شأناً .. فمن ترقى لا ينظر إلى ما هو أدنى.

انسحب مُسعد يجلس على طاولة مجاورة تاركاً لهما حرية الحديث، يجب على صديقه تمزيق صفحته معها ليستطيع البدأ من جديد.

فتحت الحديث: عامل إيه ؟

أجابها بجفاء: ما اعتقدش إنك اتصلتي بيا وطلبتي تقابليني عشان خاطر تسأليني السؤال دا

ابتسمت: معاك حق .. هأدخل في الموضوع على طول .. أنا قررت أطلق

- هو إنتي اتجوزتي كمان ؟؟ .. ما شاء اللّه .. أنا أخر مرة شوفتك كانت خطوبة بس

أضاف ببرود: وهتطلقي عشان لاقيتي واحد أغنى ولا عشان جوازك كان غلطة ؟

تجاهلت تلميحاته: عشان كان غلطة .. حمزه أنا كنت فاكره إن أهم حاجه ف الدنيا هي الفلوس، لكن بعد ما أتجوزته وعشت معاه في بيت واحد اكتشفت إن الفلوس لوحدها ما تنفعش .. أنا كرهت نفسي وحياتي معاه .. مش متخيل حياتي معاه جحيم إزاي !

- ما يخصنيش كل اللي بتقوليه عليه دا .. تتجوزيه تسيبيه إنتي حرة .. ما عادش يفرق معايا

أمسكت يده عبر الطاولة: بس أنا لسه بأحبك يا حمزه

سحب يده حانقاً من جرأتها: وأنا مش بأحبك يا هاجر .. وياريت ما تحاوليش تتواصلي معايا تاني لإن اللي بينا أنتهى .. أنتهى من ساعة ما سبتيني عشان تروحي للأغنى

نهض مشيراً لمُسعد حتى يلحق به بينما جلست والغيظ يفتك بأعصابها، لقد ظنته أحبها لدرجة أنها مهما دارت سيقبلها، بمجرد أشارة منها إليه سيأتي راكعاً ملبياً نداءها، لا تعلم أن الرجل ينسى الحب بمجرد تفكير الحبيبة في المساس بكرامة رجولته، هي لم تمسها فحسب بل داست عليها بكعب حذاءها .. فضلت عليه رجلاً أخر ليس لأنها أحبته بل لأنه يملك مالاً وأكثر استعداداً منه مادياً.

****

بقيت ساهرة في إنتظار نيفين كي تفي بوعدها، تأملت مي مي وهي نائمة لم ترد إقلاقها لشئ قد يكون مجرد وهم، سلمتها لسلطان النوم حتى تعلم موضع قدميها.

ترقبت قدوم نيفين على أمل في النجاة من جبروت شادي، تذكرت فتون التي نصحتها بألا تثق بنيفين فلقد استمعت لحديثها أمس من خلف

الأبواب، قالت لها بقلق تسرب إلى قلبها لكن ليس بيدها حيلة: نيفين مش هتعمل كدا للّه ف للّه يا حياه، أكيد ليها مصلحة فدا

- وهي هتأذيني ليه؟ .. أنا عمري ما عملتلها حاجه

- ممكن يكون صح وهتهربك بجد .. أنا ما قولتش حاجه .. كل اللي بأقولهولك إنه أكيد ليها مصلحة ف كدا مش هتعملها شفقة وإحسان .. أما بقى تأذيكي ليه ف فيه ناس كتير م الظلم اللي بتشوفه ف حياتها بتحب تطلعه على غيرها مادام ف مصلحتها .. الأحسن لما تخرجي من هنا تقطعي علاقتك بيها نهائي .. حياه أبوس إيدك بلاش الثقة الزيادة دي .. العميان الشديد دا مش هينفع ف دنيتنا !

غيرت مجرى الحديث: طب وإنتي ؟ .. مش هتهربي معانا ؟

ابتسمت ساخرة: عشان تتأكدي إن ليها مصلحة بهروبك عشان كدا قالتلك إنتي بس وما جبتش سيرة قدامي مع إنها عارفه كويس أوي إني كرهت هنا وقرفه

بشفقة: طب ما تيجي معانا

ربتت على كتفها: لا بلاش، كل ما العدد قل كل ما كان أسهل وما نجذبش النظر

التقطت حياه قصاصة ورق وخطت عليها شيئاً ما ثم سلمته لفتون: دا عنوان حنان، واحدة طيبة أووي وساعدتني كتير لما تعرفي تخرجي من هنا روحيلها ولو ماكنتش معاها هي هتدلك على مكاني إتفقنا ؟؟

ابتسمت فتون فلا فائدة من نصحها، من تطبع بشئ صعب عليه تغيير طبعه، دعت لها بقلبها أن تحتفظ ببراءتها لا تعلم لما تشعر أن صفعات الحياة لحياه لن تتوقف عند ذلك الحد.

أفاقت من ذكرياتها على دخول نيفين مشيرة لها بالقدوم برفقتها، حملت مي مي مسرعة فلا وقت لإيقاظها كما أن نومها سيسهل مهمة هروبهم بشكل أسلم.

سارت خلف نيفين التي مشت أمامها بثقة فقد وضعت منوم في المياه المخصصة لرجال الحراسة وشادي لديه عمل ما غير معروف نوعه لكن ما هو أكيد أنه يخالف القانون، تبعت نيفين حتى وصلت إلى الطريق العام وكانت هناك سيارة في إنتظارهما، صعدت خلفها بعد أن أخبرتها أنه أحد الزبائن وقد أحبها مقرراً أخذها والإهتمام بها وليس ببعيد أن يتزوجها، قلبها يشعر بعدم الراحة لكنها تجاوزت حد التراجع، في النهاية ليس هناك ما هو أسوء من تواجدها في مكان يخص شادي.

وصلت لمنطقة يظهر فيها حركة الناس ليست مهجورة بل حية بتحركات السكان والمحلات المضاءة، إلتفتت إليها نيفين قائلة: أنا كدا عملت اللي عليا .. هتنزلي هنا بقى وتشوفي طريقك، شوفي إنتي عايزه تعملي إيه

مدت لها مبلغاً من المال مضيفة: دول يكفوكي تركبي تاكسي يوصلك مكان ما إنتي عايزه

ترجلت من السيارة وهي تودعها لقد فعلت لها الكثير ويكفي حتى هذا الحد ، أوقفت إحدى سيارات الأجرة طلبت من سائقها أن يوصلها إلى العنوان الذي أملته عليه.

****

ارتفع رنين الباب، استيقظ جميع أهل الدار فزعاً من الزائر في هذه الساعة، لم تكن سمية نامت سوى ساعتين من الإجهاد النفسي بعد إلحاح أحمد عليها، وحمزه كان يحاول أخذ قسطاً من الراحة ليستطيع متابعة البحث في اليوم التالي.

فتح أحمد الباب مترقباً الطارق، قفزت مي مي من بين ذراعي حياه فقد استيقظت عند توقف سيارة الأجرة أمام المنزل، ضمتها سمية بشوق وانصرف أحمد يتأكد من سلامتها.

التقت نظراتها الخجلى بنظراته العاتبة، أبعد نظره فوراً لكن تلك اللمحة كانت كافيه لتعرف كيف أصبحت في نظره، لقد فقدت مكانتها لديه بالتأكيد عرف حقيقتها؛ لأن هذه النظرة ليست من فراغ.

طلب منه والده أن يذهب ليحضر كأساً من الحليب من أجل مي مي فوالدته منشغلة بالإطمئنان عليها وإشباع شوقها.

عاد حمزه يتلفت حوله لكنه وجدها انسحبت بهدوء، تذكر حالتها وملابسها يبدو أنها لم تغيرها منذ تم إختطافها .. أشفق على حالها لكنه

أفاق على صوت والدته تدعوه أن يؤكد لها أن ما تعيشه الآن حقيقة وليس وهماً أو مجرد خيال.

****

قررت بعد أكثر من أسبوع قضته في التفكير، ستقبل بعرض والدة طالبة لديها في المدرسة، تسافر إلى إيطاليا تعمل في شركة زوجها .. تتعامل مع العملاء الطليان، تترجم له ما يقولونه فرغم قضاءه خمس سنوات هناك إلا أنه لا يجيد اللغة بشكل كافٍ.

اعترضت حنان كثيراً لكنها كتمت اعتراضها، إذا بقيت هنا سيصل إليها شادي من جديد والله وحده يعلم كيف ستنجو منه هذه المرة، ليس لدى حياه من يُدافع عنها عائلتها اعتبرتها كأنها لم تكن، وحمزه تغيرت نظرته لها بعد علمه بقصتها كاملة .. الأفضل لها ترك البلاد وفتح صفحة جديدة في دفتر حياتها.

تساءلت الجدة بحيرة: بس مش غريبة إنه الزفت دا ما حاولش يدورعليها تاني؟ خصوصاً إنها ما غيرتش المكان ؟

تمتمت حياه بخجل: أسفة والله على كل اللي سببته من مشاكل وأنا أول ما أخلص ورقي هأسافر على طول

نهرتها حنان: إيه اللي بتقوليه دا يا حياه .. تيته مش قصدها كدا طبعاً

الجدة بحزن: والله يا بنتي أنا باسأل من خوفي عليكي مش أكتر، دا إن ما شالتكيش الأرض أشيلك فوق دماغي

حنان مؤيدة جدتها: فعلاً، غريبة إنه ما دورش عليكي .. ربنا يستر ويبعد عننا شره أو خيره حتى

****

أمسك حمزه الجريدة يتفحصها أثناء تناوله الإفطار برفقة عائلته، لفتت نظره صورة شخص يعتقد أنه رأه من قبل .. تذكر إنه من خطف حياه ومي مي .. إنه نفس الوجه.

أكمل قراءة الخبر، لقد أوضحت الجريدة أن الشرطة استلمت بلاغاً عن فيلا في إحدى المدن الجديدة يعمل صاحبها في الدعارة بإغواء الفتيات بكلامه المعسول ووعدهن بالزواج والعيشة الهانئة ثم إجبارهن على العمل لحسابه تحت حراسة مشددة، لقد وجدوا فتاة ميتة بداخلها بينما هرب هو لا أحد يعلم أين .. أنتهى الخبر برجاء أي أحد يراه أن يبلغ عنه مباشرة فهو يبيع أعراض الفتيات.

أطلع والديه على المنشور، أمسك أحمد الجريدة يقرأ الخبر على مهل معلقاً: ومين دي اللي ماتت؟ وهو قتلها يعني ؟؟

هز حمزه كتفيه: مش كاتبين تفاصيل .. يمكن لما يوصلوا لحاجه ينشروها

سمية بغيظ: يا ريت نقفل الموضوع دا .. إحنا لسه ف أول اليوم فبلاش تقفلوه من أولها

تساءلت مي مي ببراءة: هي ميس حياه مش هتيجي ؟؟

سمية بعصبية: لا مش هتيجي .. وما تجبيش اسمها هنا تاني .. أنسيها خالص فاهمة ؟؟

شرعت مي مي في البكاء معبرة عن شوقها لحياه وهي تتجه لغرفته مطأطأة الرأس، وجه أحمد حديثه لزوجته: مش كدا يا سمية

- مش عايزه اسمع اسم البنت دي تاني .. مفهوم ؟

أحمد مقترحاً: أنا ف رأيي نقدملها في المدرسة .. أهو الحمدللّه بقت بتتكلم وتقدر تتفاعل هناك ومابقاش فيه مشكلة

أومأت مؤيدة: هأشوفلها مدرسة كويسة

اعتذر حمزه منهم لضرورة ذهابه إلى عمله، لا يتحمل أن تتحدث والدته بالسوء عنها، كذلك لا يملك الدفاع عنها .. نظرة الحزن والإنكسار التي رأها في عينيها أخر مرة تجرح قلبه بسكين بارد.

****

خرجت حنان من المدرسة تسلم على أهالي بعض الطلاب الذين تعرفهم، رأت حمزه يقف بعيداً ترددت لكنها حسمت أمرها .. توجهت إليه في حين اعتدل في وقفته عندما أدرك أنها مقبلة عليه.

ابتسمت حنان: مش بتيجي المدرسة

لم يرد فعادت تسأله: مش عايز تعرف السبب ؟

اكتفت بنظرة الإهتمام التي لمعت في عينيه مجيبة لسؤال لم يسأله: حياه هتسافر إيطاليا .. بتجهز نفسها للسفر

قاطعها رنين هاتفها المستمر كأنه يصر على تلقي الإجابة اعتذرت منه تجيب: أيوه يا تيته .. في إيه ؟؟ .. ليه مالها؟ .. هي إتجننت ولا إيه ؟ .. طيب طيب أنا جايه أهو

أغلقت الخط والتوتر يعلم ملامحها، سألها مخفياً قلقه: حصل حاجه ؟

أجابته بينما تعيد الهاتف إلى داخل حقيبة يدها: حياه بتجهز الشنطة مصره تروح لأهلها ف سوهاج .. وأخوها كان مهددها قبل كدا لو راحت هناك هيقتلها .. لكن هي راسها وألف سيف إنها تروح دلوقتي .. معلش أنا لازم أروح أشوف حكايتها إيه

لم يعرف لما قال ذلك ولكنه فعل: أنا جاي معاكي

أومأت موافقة فقد ينجح هو فيما قد تفشل فيه، كان مزيجاً من الغيظ والغيرة يأكل في قلب خليل وهو يراها تسير بصحبة حمزه، لقد كان دائماً على يقين أنه ترك بها أثراً وحباً لن تستطيع إعطاءهما لغيره، غروره الذكوري صور له أنها لن تستطيع متابعة حياتها مع سواه كما فعل هو، لقد أجلت حياتها فعلاً لكن لتهبها لطفلتها المفقودة فحسب.

جذبت طفلة يده تلفت إنتباهه إليها: مش هنروح يا بابا ؟

أومأ متمسكاً بأصابعها الصغيرة عائداً بها إلى المنزل حيث تنتظره زوجته الثانية.

****

أسرعت في إتجاه غرفتها التي تشاركها مع حياه بينما بقى حمزه في الصالة يصل إلى مسامعه الحوار الدائر بالداخل ... كان حواراً حاداً تتحدث فيه حياه بكل حسم وإصرار.

حنان: يا بنتي هتروحي فين دلوقتي .. أخوكي الله أعلم هيعمل فيكي إيه

حياه بعند: مش مهم، يعمل اللي يعمله، هأسافر يعني هأسافر

صرخت بها: وأنا مش هأسيبك تسافري وترمي نفسك ف النار يا حياه !

بادلتها حياه الصرخ بصراخ أكبر، صرخ يصدر من أعماق القلب قبل الصوت: هأسافر يا حنان، أبويا بيموت وأنا السبب، كسرت الراجل اللي كنت بالنسبة له أهم حاجه، الراجل اللي رباني وحبني أكتر من أي حد، كان بيشوفني صاحبته قبل ما أكون بنته، اللي عاملني أحسن من أي حد ف بلدنا بيعامل بنته، عاملني على إني بني أدمه وهما بيعاملوا بناتهم على أنهم غلطات ف حياتهم، مع كل دا أنا كسرته، خليته يمشي بين الناس راسه في الأرض، كأني اثبتلهم إن معاملتهم هي اللي صح وتربيته هي اللي غلط .. ما تعرفيش النار اللي جوايا إيه وأنا بأسمع عياط أختي في التليفون وهي بتقولي أبويا تعبان والدكتور بيقول حالته بتتدهور .. هأروح أشوفه بأي شكل حتى لو فيها موتي

جرت حقيبتها خلفها، توقفت قبل أن تصطدم بجسد حمزه، حجبت الدموع عنها الرؤية، أوقفها سائلاً بقوة: رايحه فين ؟

أجابته بتحدي: ما يخصكش

تحداها بقوله: أي حاجه تخص مراتي تبقى بتخصني بالظبط !

****

توقف الزمن أمام عينيها، تشعر الآن بحال من أماته اللّه مئة عام ثم أحياه ليجد الحياة تسير من حوله وهو لم يشعر بما حدث، أصبحت تجلس الآن أمام المأذون يعقد قرانها على حمزه بعد أن تولى والده أحمد أمرها وأصبح هو وكيلها، شردت تتذكر سبب ما هي تعيشه الآن .. إنه ما حدث قبل يومان.

لم تصدق أذنيها .. لقد طلب منها الزواج حقاً لكن بطريقة ملتويه، انسحبت الجدة تتعكز على حفيدتها مشيرة لها بضرورة الإنسحاب .. يجب عليهما الجلوس بمفردهما جلسة تملؤها الصراحة والحديث الحر المنفرد.

جلس حمزه وأشار لها بالجلوس، جلست مسلوبة الإرادة غير مصدقة أن من أدركت مؤخراً حبها له تناسى استياءه منها وطلب الزواج بها، لكنها أفاقت على كلماته التي لا تحمل أي لمحة من الرومانسية أو الحب .. فقط نبرة جدية لا غير.

- إنتي عايزه تروحي لأهلك مش كدا ؟

هزت رأسها كتائهة في صحراء جدباء، لما فتح هذا الموضوع وما علاقته بما قال، أجابتها كلماته القادمة لكنها جرحت أنوثتها و .. قلبها.

- لو رجعتي دلوقتي أهلك مش هيسكتوا .. ويمكن أخوكي ينفذ تهديده، لكن لو رجعتي متجوزة ماحدش هيكلمك .. ع الأقل هتلاقي حد تتحامي فيه، وتقدري تقفي قدام عيلتك أقوى من كدا

سألته مبهوتة: وأنت عشان كدا عايز تتجوزني ؟

حمزه ببرود: عشان دا ف مصلحتي ومصلحتك

ضيقت جفنيها قائلة ببطء: مصلحتي وعرفناها .. إنما مصلحتك أنت إيه ؟

- ماما زي ما إنتي عارفه نفسها تجوزني إنهارده قبل بكره .. بكدا هأقدر أريحها، كمان مي مي مضايقه جداً من ساعة ما رجعتيها وما بقتش تشوفك

نظرت له بشك غير مقتنعة بمبرراته: دي مش مبررات كفايه

أضافت بتروي: أنا سألتك مصلحتك أنت إيه .. مش مصلحة غيرك !

صمت قليلاً قبل أن يصارحها: كنت معجب بواحدة واتخطبنا .. لكن بعد كدا اتعرفت على واحد جاهز ومعاه فلوس أكتر فسابتني واختارته

أضاف بعد صمت أخر: دلوقتي أطلقت وعايزنا نرجع لبعض تاني .. متوهمة إني لسه بأحبها وإني عايزها وبأفكر فيها .. جوازي هيثبتلها إني طلعتها من دماغي وفي نفس الوقت تبعد عني

أحست أن كل حرف نطقت به حنجرته كأشواك تغرس داخل قلبها تُدميه حتى الموت، أخذت نفساً عميقاً تُرجع به دمعاتها حتى لا تهطل أمامه: أنا مش موافقة على عرضك دا يا باشمهندس حمزه

طعنته في كبريائه كما في رجولته، رفضت عرضاً كان يعتقد أنها ستطير فرحاً لسماعه، رد بكل تعقل بقى لديه: عايزه تزوري والدك المريض .. هتزوريه لوحدك وتفتحي جروحه وكمان مش بعيد تخسري حياتك .. كدا أحسن ولا ..

صمت ليعطي لكلماته التأثير المرجو، هو يعلم موضع كلماته وطريقة نطقها بنبرة معينة، نطق أخيراً متأكداً من ترقبها: ولا تروحي مع جوزك .. معززه مكرمه .. تمشي في وسط البلد وراسك مرفوعه على عكس ما تروحي لوحدك .. أكيد والدك مهما كان يعني هيبقى همه إنه يطمن عليكي وإنه في حد معاكي بيحافظ عليكي ويصونك عشان لو جراله حاجه لا قدر اللّه .. أظن هو رفض الأولاني دا عشان كان شاكك ف إنه مش قد المسئولية ومش هيطمن عليكي معاه

نهض ملتقطاً نظارته الشمسية ومفاتيحه من فوق الطاولة: ع العموم أنا هأسيبك تفكري .. معاكي الليل كله وبكره أخد الرد .. عن إذنك

رحل وتخبطت هي في أفكارها، وكزتها حنان في ذراعها لتستفيق، لقد رفع المأذون المحرم معلناً إتمام كتب الكتاب فقد اتفقا أن يكون هذا زواجهما فقط أو بالأصح هي من اقترحت، لقد تمنت أن ترتدي الثوب

الأبيض لكن هناك شرط اختل فاختلت معه باقي الموازين .. العريس لا يحبها.

ضمتها الجدة مباركة زواجها، التقت نظراتها التائهة مع نظرات سمية الحانقة، منذ عرفت بقرار ولدها بالزواج من حياه وهي لم تهدأ، حاولت إقناعه بالعدول عن رأيه لكنه لم يستجب، قررت اقتصاصه بعدم الحضور لكن أحمد أصر عليها فهو ولدهما الوحيد وهي التي لطالما تمنت هذه اللحظة فكيف تتخلى عنها مهما كانت شخصية العروس؟؟ .. رغم ذلك لم تنل العروس رضاها خصيصاً عندما شعرت من ثوبها الرمادي المحلى بالخرز الفضي أنها ليست راضية بهذه الزيجة مثلها .. إذاً لما وافقته ؟؟

ابتسمت نجلاء وهي تلثم وجنتيها: ما تعرفيش فرحت قد إيه لما عرفت إنك هتتجوزي حمزه، ربنا يسعدكوا يا رب .. هو دا فعلاً الإنسان اللي هيقدر يصونك

ابتسمت إبتسامة باهتة، اصطحبها حمزه في وقت لاحق إلى منزل والديه حيث تقرر إقامتهما به، دخلت تسبقه إلى غرفته التي لحسن الحظ ملحقه بحمام خاص، تبعها.

- كمان أسبوع أو عشر أيام كدا ونسافر .. فيه مشروع ف إيدي ولازم أخلصه ما ينفعش أسافر وأسيبه

ألقى كلماته الباردة وتركها متجهاً إلى الحمام، جلست على طرف الفراش تفكر .. إنها قبلت الزواج منه لحبها له الذي ملئ خلايا قلبها، تمنت أن تصبح زوجته ولو لفترة محدودة فلم يعد لديها ما تخسره بل كانت

ستخسر متعة أن تكون بجوار من تحب، ستحتفظ ببعض ذكرياتها معه تعينها على ما بقى لها.

فور خروجه تناولت من حقيبة ملابسها ما ستقضي به ليلها واتجهت إلى الحمام دون أن تنظر إليه، تخشى رؤية نظرة تجرحها وتدمي قلبها.

بعد فترة خرجت مرتدية حلة نوم طفولية تتشابه كثيراً مع ما ترتديه مي مي، حاول كتم ضحكته مبدياً إنشغاله بمطالعة ملفات تخص عمله، اتجهت إلى الفراش عندما سمعته يقول: نامي على الناحية التانية أنا بأحب أنام ع الناحية دي ...

تدحرجت إلى الجهة الأخرى وتدثرت بالغطاء لتغط في سباتٍ عميق، أجهدها التفكير خلال الأيام الماضية دون أن يترك لها فرصة لأخذ قسط من الراحة، بعدما تأكد من نومها تسلل إلى جوارها يتلمس شعرها للمرة الأولى، لقد كان غجرياً متمرداً ذو كبرياء وأنفة كما هو حالها، تعبر خصلاته عن شخصية صاحبتها، تبسم ثم انزلق داخل الغطاء يشم بقايا رائحتها العالقة في الوسادة حيث وضعت رأسها لثواني، أزكمته الرائحة فراح في النوم.

****

رقدت على فراشها بعد أن هجرها النعاس، حالما توضأت الجدة مرت بحجرتها تطمئن عليها، انضمت إليها وحنان في ملكوت أخر لا تشعر بسواها.

- بتفكري ف حياه مش كدا ؟

هزت رأسها قائلة بشرود: أنا بأفكر ف اللي هيحصلها

إلتفتت تحدق في عيون جدتها تتحدث بثقة: حياه بتحب حمزه، سألتها ف مرة عن شعورها ناحيته بس اتهربت مني بعينيها قبل جوابها .. هي نفسها ما كانتش عايزه تعترف بكدا .. هي قبلت بجوازها منه مش عشان عيلتها لا .. عشان هي عايزه تتجوزه .. أنا عارفاها كويس هي كانت حاطه في دماغها تروحلهم مهما كان اللي هيحصلها إيه .. معقوله بعد كدا تقبل بجوازه من واحد مش بيحبها علشان عيلتها؟ .. ما أظنش

ابتسمت الجدة بخبث: ومين قالك إنه مش بيحبها ؟؟

اتسعت عيني حنان دهشة: قصدك إنه ....

أومأت: زي ما هي بتحبه وبتكابر هو كمان بيعمل كدا .. بس أنا شوفت الحب ف عيونه، أصل بردو بالعقل فيه واحد هيتجوز واحدة عشان خاطر أخته الصغيرة ومامته خصوصاً بعد ما عرف حكايتها؟ .. كمان مامته كان شكلها باين إنها مش طايقه حياه ولا راضية بالجوازه من أصله وجت غصب يبقى إزاي عشان رضاها؟

تجعد وجه حنان بقلق: تفتكري ممكن تعاملها وحش ؟

ربتت على كتفها بحنان: يا بنتي اللي ربنا كاتبه هيكون وبعدين حياه هتعرف تتصرف هي عدت حاجات أصعب من كدا .. بعدين تعالي هنا ..

إنتي إمتى هتبطلي تخافي ع الناس وتشيلي همومهم أكتر من نفسك ؟؟ .. مش عارفه أنا لو حصلي حاجه هأسيبك لوحدك إزاي..

ضمتها حنان بقوة ونهرتها: ما تقوليش كدا واللّه أزعل منك .. دا إنتي اللي بقيالي يا تيته

- لا اللي باقي لك فعلاً هو ربنا .. كل من عليها فان

أضافت مازحة لتزيح غيمة الحزن: أوعي يا بت كدا كتمتي نفسي .. هاتأخر ع النوم ومش هأعرف أصحى لصلاة الفجر بسببك !

ضحكت حنان: طيب تصبحي على خير

نبهتها الجدة مغادرة: وإنتي كمان نامي .. عندك مدرسة الصبح .. هو أنا مش هأرتاح من الجملة دي ولا إيه؟؟ هههههه

تمددت حنان على فراشها مقهقهة، جدتها هي شمس حياتها الضاحكة تنسيها هموم الدنيا بمداعباتها .. أدامها اللّه فوق رأسها.

****

تقلبت في نومها ثم فتحت عينيها على حمزه الذي يقف أمام المرآة يرتدي ساعته منهياً استعداده للذهاب إلى عمله، راقبته مدعية استغراقها في النوم .. تتمتع برؤيته خفية، ارتسمت إبتسامة صغيرة على شفتيها .. إبتسامة مليئة بالحب والشوق.

إلتفت فجأة ناظراً في عينيها، خجلت منه بشدة ونظرت صوب الأرض، أبتلع إبتسامة أبت الظهور على ثغره، قال مقطباً: أنا نازل .. سلام

نهضت بعد تأكدها من ذهابه واتجهت إلى الحمام تبدل ملابسها وتستعد لما ينتظرها من حماتها المصون.

خرجت لتجدها جالسة وحدها بعد أن ودعت مي مي إلى مدرستها، لقد أقنعتها بضرورة ذهابها إلى مدرستها لأنها أبت المغادرة متحججة بأن حياه يمكن أن تعود لتدريسها، رغبت سمية بإبعاد أي يد لها عن الطفلة حتى لا تضرها مجدداً.

دنت منها باسمة: صباح الخير

لم تعرها أي إنتباه وظلت تقلب في صفحات مجلة بيدها، شعرت حياه بالحرج من تلك المعاملة لم تدر ماذا تفعل حتى أتاها صوت مُنجدها من الخلف.

ربت على كتفها بحنان: مالك واقفة كدا ليه؟ .. دي مش مرة أول تنورينا .. أي نعم بصفة جديدة لكن بردو المفروض إنك عارفانا وواخده ع البيت

- معلش أصلي مرتبكة شوية

غمزها باسماً: طب ممكن الجميل يعملي فنجان قهوة ؟؟ .. بقالك كتير ما عملتليش فنجان مظبوط

أومأت بسعادة: من عنيا .. دقايق ويكون جاهز

انطلقت إلى المطبخ سعيدة بمهمتها الصغيرة، جلس إلى جوار يسألها لائماً: ليه كدا يا سمية؟

ادعت الجهل: ليه إيه؟

- يعني مش عارفه

ألقت المجلة بعيداً وقالت بعصبية ملحوظة: مش طيقاها يا أحمد .. حاساها ما تستاهلش ابني

- طب ولو نجلاء اللي حصل فيها كدا ؟ .. كنتي هتحسي بإيه لو حماتها عاملتها بالطريقة دي ف حاجه حصلت غصب عنها ؟

صمتت قليلاً قبل أن تقول مبررة: ما هي كمان مش مفرحه ابني .. في واحد يروح شغله يوم صبحيته بردو إلا لو كان مش طايق وشها ؟؟

- ليه تحملي البنت ذنب مش ذنبها ؟؟ .. إنتي أصلاً عارفه ابنك ما يقدرش يستغنى عن شغله يوم على بعضه .. وبعدين مش الأحسن إنك تساعديهم خصوصاً إنه اللي حصل حصل خلاص؟

قدمت حياه حاملة القهوة تقول بمرح: وعندك أحلى فنجان قهوة لأحلى عمو في الدنيا

ضحك أحمد متناولاً فنجانه: تسلم إيدك .. عن إذنكوا هأروح أشوف الوردات بتوعي اللي ف البلكونة

حلما غادر نهضت سمية تلحق به هي الأخرى لكن يد حياه أوقفتها، همست بصوت يكتم شهقات البكاء: إنتي ليه بتعامليني كدا ؟ .. أنا عملتلك إيه ؟

نفضت سمية ذراعها بقسوة: إنتي عايزه تلبسيني تهمه يا بت إنتي ولا إيه ؟؟ .. أنا عاملتك إزاي إن شاء الله؟

قالت بمرارة: فاكراني مش واخده بالي من نظراتك ليا إمبارح وإنك مش طايقاني ولا راضيه عن جوازي من حمزه ؟؟ .. ولا من معاملتك وإنتي بتبعدي مي مي عني .. كل دا عشان عرفتي حكايتي؟ .. حضرتك كنتي مربية أجيال .. مُدرسة وبعدها ناظرة مدرسة .. لو حصلت مشكلة لطالبة في مدرستك زي اللي حصلتلي يا حاضرة الناظرة كنتي هتعامليها زي ما بتعامليني كدا ؟؟ .. كنت فاكره إنه قلبك كبير وهيستقابلني .. هيعوضني عن حنان ماما –اللّه يرحمها- هتخديني في حضنك وتطبطبي عليا .. تقوليلي ما يهمكيش أنا جانبك، مامتك ماتت أه بس أنا هنا .. بس يظهر إني كنت غلطانه .. أعذريني على ظني

استدارت تخطو إلى غرفتها أو بالأحرى غرفة حمزة، أوقفها نداء سمية فنظرت إليها بقلق باكية، فتحت سمية ذراعيها وإبتسامة تخترق الدموع المتساقطة على خديها: تعالي .. حضني مفتوحلك دايماً .. زيك زي نجلاء يا حياه

ارتمت بين أحضانها تبكي، تبكي على أمها المتوفاة، على حضن شقيقتها الذي حرمت نفسها منه، على أيام العذاب التي مرت بها، بكت كل ما مرت به حتى الآن.

****

كان قلبها يأكلها على حياه، لقد أصبحت الراعي لها منذ أن التقتها، ذهبت تزورها في منزلها فقد حفظت العنوان بعد زيارتها الأخيرة له.

فتحت لها سمية الباب وابتسمت بوجهها: أهلاً وسهلاً .. إتفضلي

دلفت إلى الداخل معتذرة: معلش جيت من غير معاد .. بس أنا كلمت حياه على موبايلها بيديني مغلق وما أعرفش نمرة البيت هنا وكنت قلقانه عليها جداً

هدأتها سمية وهي تطلب منها الجلوس والاسترخاء: ما تقلقيش .. موبايلها فصل شحن، لسه مكلمه نجلاء وهي معاها وطمنوني

- هي مش هنا؟

- لا خرجت مع نجلاء يتمشوا ويغيروا جو .. بقالها أسبوع في البيت مش بتخرج، أول ما عرفت من حمزه إنها يومين وتسافر لأهلها طارت من الفرحة وقررت نجلاء تاخدها يجيبوا هدوم جديدة .. إزاي عروسة من غير هدوم جديدة يعني؟ .. أصلاً لولا السربعه اللي كانوا فيها أنا كنت جبتلها شئ وشويات

تعجبت حنان لنبرة الحب القافزة من كلماتها منذ متى تحولت من الحماه إلى الأم الحانية، حاولت الإعتذار للمغادرة ولكن سمية تمسكت بها بشدة حتى عودة حياه.

قدمت مي مي في تلك اللحظة تحمل عروستها وتقترب من سمية بحزن، سألتها سمية عما بها، أجابت وهي توشك على البكاء: إيد العروسة فكت

تناولت منها الذراع المفصول عن جسد الدمية في كف والكف الأخر حملت به باقي الجسد، نظرت لها بحيرة وقالت معتذرة: معلش يا مي مي مش بأعرف أصلحها، روحي إلعبي بواحدة تانية

لمحت حنان الحزن يزداد على الوجه الملائكي، مدت كفيها: هاتي أنا هأركبهالك

ركضت مي مي إليها مسرعة بالدمية تناولها إياها بحماس، نهضت سمية ضاحكة: طب عقبال ما تركبيها بقى أكون عملتلنا كوبيتين عصير ف الجو الحر دا .. شكله هيبقى صيف صيف يعني

انتهت من إعادة الدمية لوضعه الأصلي كما لو أنه لم يحدث لها شئ، قالت مازحة: شوفتي أنا جراحة شاطرة إزاي؟ .. عقبالك

ضحكت مي مي: ميرسي يا طنط

داعبت خصلاتها المتناثرة: العفو يا حبيبتي

تحركت حنان دون أن تلحظ الهاتف المحمول الموضع على فخذيها، نسيت أمره تماماً حال حديثها مع سمية بعد أن حاولت إجراء مكالمة أخيرة مع حياه وهي تقف على باب المنزل، مالت مي مي تلتقطه وتعيده إلى حنان عندما تجمدت بسمة الشكر على شفتيها وطغى الفزع على عينيها، لقد تدلت القلادة وظهرت إلى العيان.

ابتلعت ريقها بصعوبة تسأل: هي السلسلة دي بتاعتك ؟

أومأت مي مي بسعادة ممسكة بقلادتها: أيوه .. دا اسمي اللي مكتوب .. حلوة مش كدا ؟؟

دارت الدنيا بها، مصادفه أم شئ أخر، أمن الممكن أن تكون هناك قلادتنا بنفس الشكل تماماً يمروا بعمرها؟، سحبت حقيبتها وغادرت دون نطق حرف.

جاءت سمية تحمل كأسين من الشاي لكنها تفاجأت من غياب حنان، سألت الطفلة عنها فأشارت بأنها لا تعلم: هي فجأة قامت ومشيت ومش قالت حاجه

تعجبت سمية لكنها تجاهلت الموضوع وبدأت تلعب مع مي مي في إنتظار عودة حياه لتخبرها ما حدث وتعرف من صديقتها ما حدث.

****

قلبت نظراتها بين المرضى، فواحدة لم تتعدى عشرين ربيعاً تبكي بقهر وتشكو لمن تبدو أنها والدتها: ليه ما خلتنيش أجيب جنى معايا يا ماما

- معلش يا بنتي .. بس عيلة عندها ٣ سنين هتيجي تعمل إيه هنا؟

زاد بكاء الفتاة: عايزة أشبع منها وما أسبهاش لحظة .. يا عالم هأقدر أروح ولا ...

جذبت الأم ابنتها إلى أحضانها باكية مقهورة: إن شاء الله خير وترجعي لبنتك بصحة وعافية

اقتلعت نظراتها من متابعتهما عندما شعرت بيد تربت على كفها المرتعش فوق حقيبتها، كانت امرأة في الخمسين من عمرها تبتسم مواسية: إن شاء الله هتخلصي منه بسرعة .. ما تخافيش

أومأت في صمت فعادت المرأة تتحدث: باين عليكي من نظراتك، بصي حواليكي واحمدي ربنا كلنا جالنا اللي ما يتسمى دا .. بس كل واحدة وظروفها .. ربنا يشفيكي يا حبيبتي

تدخلت حياه في الحوار: طب وحضرتك هنا من إمتى ؟؟

ارتسمت إبتسامة واهية تكاد لا تلحظ: بقالي سنة ونص

عضت نجلاء على شفتيها بفزع لاحظته المرأة: ما تخافيش أوي كدا .. إن شاء الله إنتي مش هتطولي كل دا

شرعت في قص حكايتها عليهم: أنا مصرية بس عايشة في اليمن، جيت هنا عشان العلاج .. وبقالي سنة ونص لا شوفت ولادي ولا روحت اليمن

بينما نجلاء مازالت لم تستوعب الصدمة دار الحديث بين السيدة وحياه: طب وجوز حضرتك فين؟

ظهر الأسى على ملامحها: متوفي من خمس سنين

- هو لو مافيهاش إزعاج الكانسر فين؟

- في الرئة

- ربنا يشفيكي

- تسلمي يا حبيبتي

ثم أضافت موجهة الحديث لنجلاء: ويشفيكي إنتي كمان يا بنتي

خرج الرجل من غرفة العلاج برفقة الممرض، حان الدور على نجلاء، دخلت تتبع تعليمات الممرضة، لقد جاءت من قبل ليخبرها الطبيب بما عليها فعله، فبعد أن يتحدث إليها قليلاً تتجه إلى العلاج مع الممرضة التي تعرف ماذا تفعل جيداً ثم تعود للحديث معه مرة أخرى .. انتظرتها حياه في الخارج تحاول التخفيف عن تلك الفتاة اليافعة وتتسامر مع المرأة الخمسينية.

حاولت أن تتمالك نفسها بعد أن ثبتت الممرضة الكانيولا في وريد يدها اليسرى، اندفع الكيماوي ليختلط مع دماءها وينتشر في جميع أجزاء جسدها، كتمت تأوهات كادت تهز العيادة بأكملها، شعرت بأن النار قد اضرمت في ذراعها لتنتشر في جسدها، حدثتها الممرضة في أي شئ وكل شئ لتشتت إنتباهها .. فما زال الطريق أمامها طويلاً.

بعد انتهاء الجلسة رافقتها حياه إلى حجرة الطبيب الذي نظر إلى نجلاء متبسماً: إزيك يا مدام نجلاء دلوقتي ؟؟

ابتسمت بسخرية: ما أنا لو كويسة كنت هأجي أعمل إيه هنا يا دكتور ؟

حافظ على إبتسامته وظل يحدثها عن علاجها وأعراضه الجانبية وكم من الممكن أن يستغرق .. إلخ من الأمور التي جعلتها تشعر بأن الموضوع أكبر بكثير مما تخيلت .. رغم أنها ظنتها كبيراً من الأساس.

أنهى حديثه: بس أهم حاجه النفسية يا مدام نجلاء .. دي ساعات كتير بتبقى أهم من العلاج نفسه

عادت نجلاء لسخريتها: أصلاً لو نفسيتي كويسة مش هأجيلك تاني

ابتسم إبتسامة أخبرتها أنه يعلم أن ما بيدها حيلة وستأتي رغم أنفها، ذلك أغاظها وجعلها تغادر مهرولة من الغضب حتى لم تلحظ المرأة الخمسينية التي ودعتها هي وحياه.

أسفل البناية التي تحتلها العيادة توقفت نجلاء قائلة: روحي إنتي يا حياه، أنا هأتمشى شوية قبل ما أروح

قبلت حياه بذلك فهي تعلم أنها تريد الإنفراد بنفسها فانصرفت تدعو لها بالشفاء والرضا بما قسمه الله تعالى فهي تشعر بنقمتها على ما حل بها .. ولكن كيف تلومها؟

- بس إنتي مش ناوية تقولي لحد بردو ؟؟

- لا

- أنا مسافرة كمان يومين ومش عارفه هأغيب قد إيه .. هتعملي إيه ؟

- عادي وفيها إيه ؟؟

- عادي إزاي !! .. هي عشان أول جلسة الدكتور عملها خفيفة لكن بعد كدا الله أعلم هتقدري تصلبي طولك لوحدك ولا لا .. إنتي ما شوفتيش الرجل اللي كان خارج كان عامل إزاي ؟؟

صرخت بها: أنا كويسة ومافييش حاجه، ما تقلقيش عليا لو عايزه أقول لحد هأقوله مش هأخد إذنك يعني !

زفرت حياه تحاول تفهم عصبيتها: خلاص اللي يريحك

همت بالإنصراف لكن نجلاء أوقفتها معتذرة: سامحيني .. ماكانش قصدي

ابتسمت: ولا يهمك .. بس لازم تقولي لفادي ع الأقل .. هو لازم يقف جنبك ويساندك

أومأت لها قائلة: إن شاء الله

انصرفت كل واحدة في طريقها، مرت نجلاء بجوار أحد المحال وأعجبها فستان شديد الجمال والأنوثة، لكن فجأة أختفت سعادتها بإيجاد ما يناسب ذوقها عندما تذكرت بأنها ستموت في أي لحظة وقد لا يأتي عليها اليوم الذي سترتديه فيه ثم انطلقت مسرعة صوب منزلها لتخفي بين جدرانه أهاتها المتوجعة.

حمدت ربها على عدم عودة زوجها أثناء مكوثها في الخارج، ألقت الحقيبة كيفما أتفق وتوجهت إلى الشرفة تنظر إلى السماء وعينيها مليئة بالدموع.

- ليه يا رب تعمل فيا كدا ؟؟ .. ليه أنا ؟؟ .. أنا عملت إيه يا ربي في دنيتي أو ف حد عشان يحصلي كدا ؟؟ .. أنا مش موافقة على فكرة ع اللي بيحصلي دا ! .. مش راضية بـ دا

انهارت أرضاً تبكي شلالاً من الدموع، تتألم مما حدث ويحدث لها، في البداية حرمت من نعمة الإنجاب والأمومة ثم هذا المرض الملعون.

ألقت نظرة على مكان الجرعة التي أخذتها، وجدت وريدها قد نفر بشدة يكاد يخرج من معصمها رافضاً ما مر به من سائل كاو يجعله يجف من دماؤه، لاحظت كذلك تورم ذراعها.

اتكأت على سور الشرفة قبل أن تتوجه إلى غرفتها تتحمم وتحاول إزالة حزنها وألمها ليتم تصريفهم مع المياه إلى أنابيب الصرف ثم تستعد للذهاب إلى النوم على غير عادتها من إنتظار زوجها.

****

فتحت أبواب الخزانة على مصرعيها تتناول ما بداخلها من ملابس وتدسها إلى الحقيبة المفتوحة على الفراش .. كان ينقصها جناحان لتطير وتحلق إلى أهلها فقد استبد بها الشوق.

دلف إلى الحجرة بهدوء وفي حالة فات بصخب فلن يلفت انتباهه .. أخذتها السعادة إلى عالم أخر ملئ بالتفاؤل والأمل وقتها وإن حدثت حرب عالمية ثالثة ... لن تهتم، ظل يتأمل سعيها بين الخزانة والحقيبة برشاقة.

انتهت من حزم ملابسها التي ما تزال معدودة حتى ذلك الحين، في نفس اللحظة التي شعرت بنظرات مصوبة إلى ظهرها، استدارت ووجدته أمامها .. قالت بإبتسامة: أنا خلصت، لميت هدومي كلها

عقد ذراعيها مرتدياً قناعه الجليدي كلما حدثها أو نظرت إليه: ناويه تروحي ما ترجعيش ولا إيه ؟؟

هزت كتفيها: لا مش كدا .. أنا ماعنديش هدوم كتير فحطيتهم كلهم

- وبالنسبه لأنه لسه فاضل يومين ؟؟ هتقضيهم إزاي مادام شلتي الهدوم كلها؟

أشارت إلى جبينها: ما هو هنا فيه عقل عشان كدا سيبت طقمين يكفوني اليومين الجايين

كتم إبتسامته قائلاً بجدية: بكره ننزل وتشتري لبس تاني

قطبت عينيها تفكيراً ثم قالت بعد هُنية: بس مش معايا فلوس تكفي .. أخدت أجازة من المدرسة وما قطعتهاش وما قبضتش المرتب طبعاً

رد بقوة: وأنا بأعمل إيه هنا ؟ .. جيبي اللي إنتي عايزاه وأنا اللي هأدفع

هم بالمغادرة لكنها أمسكته من ذراعه، نظر إليها .. عينيها معتمتين من الغيظ والغضب الذي لم يفهم لهما سبباً بيناً.

كزت على أسنانها: وأنا مش عايزه منك حاجه

ذكرها بقسوه: ما تنسيش إنك مراتي ومن حقك إني أصرف عليكي وألبيلك كل طلباتك

نظرت إليه باستغراب متمتمة بسخرية: من ساعة ما اتكتب كتابنا دي أول مرة تقول إني مراتك وإنه ليا حقوق وعليك واجبات

برقت عينيه للحظة صدمتها لكنها اختفت قبل أن تستوعبها فظنت أنها تخيلتها، تراجعت لا إرادياً عندما اسند كفيه على الحائط المحيط برأسها، حدق داخل عيونها بقوة والخبث يملؤه:

- عندك نية تديني حقوقي يعني ولا إيه ؟؟ .. لو مستعدة أنا ما أقدرش أقول لا بصراحة

دفعته بعزم بعيداً فتنحى منصاعاً بهدوء مستمعاً إلى كلماتها الحانقة: أنا ما اسمحلكش إنك تتكلم معايا بالطريقة دي .. أنت دماغك راحت بعيد مافيش حاجه من دي

ابتسم بمكر: إنتي اللي دماغك راحت بعيد .. أنا قصدي حقي ف إني أنام ع السرير كله لوحدي مش نص سرير

غمزها ملاحظاً توترها، أسرعت هي بإخفاءه قائلة بمكر أكبر: بس أنا كان قصدي بحقوقك واللي وصلني يعني هو العشا ... معلش أصلي ما عملتوش إنهارده وهتأكله من إيد طنط سمية بقى

أضافت متلكئة: لتكون افتكرت حاجه تانية ولا حاجه

دفن غيظه ممسكاً بمقبض الباب يقول بصرامة تُلغي أي كلمة اعتراض: بكره الساعة خامسة هأعدي عليكي نروح نشتري الحاجات اللي نقصاكي .. مش هأخلي أهلك يعلموني أصرف على مراتي

تركها صافعاً الباب خلفه، قررت الإنصياع لأنها هزمته في هذه المعركة مما أثر على ثقته بنفسه كما أثر بأعصابها وإن استمرت في جذبها سينفر منها دون رجعه ... ضارباً بمخططاتها في الحصول على الحب والنيل بقلبه محطمة أسواره وحصونه الدفاعية .. ضحكت حتى بدت نواجذها فما رأه منها إلى الآن ليس إلا بعملية استعداد لمعارك أكبر تحقق من خلالها فتوحات لا تُنكر.

****

كانت تغط في النوم على ساق جدتها التي تتابع أخبار المساء قبل اتجاهها إلى فراشها لكن أفزعها صوت جرس الهاتف الذي دق فجأة كأنه يعلن بسوء الخبر القادم من الجهة الأخرى واستعجاله كذلك.

انتفضت حنان من نومها ثم اتجهت إليه تدعو الله أن يكون خيراً لكن دعوتها جاءت متأخرة .. أدركت ذلك عندما سمعت لهاث خليل على الطرف الأخر وقد فتك القلق والذعر ما تبقى من بقايا صوته.

سمعتها الجدة تتمتم بجملة وحيدة تضع بعدها السماعة: أطلب الدكتور وأنا مسافة السكة وجايه

استفسرت منها عن المتصل وإلى أين وعدت بالذهاب في تلك الساعة من الليل .. ترددت في إخبارها ولكن ليس هناك من مفر: خليل بنته تعبانه ومامتها مسافرة وهو مش عارف يعمل إيه

بغضب جامح: وإنتي مالك وماله ؟؟ .. حتى بعد ما سابك بردو مش سايبك في حالك !

- البنت مش ذنبها حاجه يا تيته، وبعدين هو لو عنده حد تاني يلجئ له ماكانش كلمني

عقدت ذراعيها وأدارت وجهها بعيداً: أنا مش عارفة هتفضلي عبيطة كدا لحد إمتى .. كل ما يشاورلك ولو حتى من بعيد تجري عليه وتقوليله شبيك لبيك

أمسكت حنان بكف جدتها متنهدة: ومن إمتى يا ستو يا حبيبتي إحنا لما يطلب مننا حد حاجه نرفض؟ .. إنتي ربتيني على كدا ؟

نزعت الجدة يدها: مهما تقولي أنا مش راضية عن مرواحك ومساعدتك ليه، وبعدين أم إيه دي اللي تسيب بنتها مع راجل وتأمنله حتى على كرسي الصالون .. جالها قلب تسافر كدا إزاي؟

تنهدت حنان: الله أعلم بظروفها ... هــا .. أروح بقى يا تيته؟

أشفقت على حفيدتها الحنون ومع ذلك قالت: روحي يا حنان .. عشان عارفه إنك مش هتحلي عني غير لما أقولك كدا بس عايزه أعرفك

حاجه ... أنا مش مرتاحه لمرواحك دا بس مش هأمنعك ف نفس الوقت .. عقلك في راسك تعرفي خلاصك

اتجهت الجدة إلى غرفتها بعد أن قفزت حنان مسرعة ترتدي ملابسها لتتجه إلى خليل تعينه على ما يمر به، كزت الجدة على شفتيها: أه لو أعرف العمل اللي عاملهولك راميه فين بس .. كنت حرقته هو وصاحبه بجركن جاز !

****

تأوهت وهي ترفع رأسها الساقطة على أحد كتفيها ثم تُعدل جلستها وتدلك رقبتها .. نظرت حولها وجدت خليل يتمدد على أريكة في أحد الأركان ويغط في نوم عميق، عادت بنظرها إلى الوجه الصغير الغاطس في نسيج الوسادة وعلى جبينه قطعة قماش مبلله .. أمسكت الصحن الموجود على الطاولة المجاورة للفراش وبدأت تعصر قطعة قماش أخرى وتستبدلها بالموضوعة على جبين هدى.

اتجهت إلى المطبخ تُعد الإفطار .. وضعته على صينية وعادت به إلى الغرفة .. أيقظت هدى بهدوء التي نهضت بصعوبة لا تكاد تفتح عينيها لتفتح فمها حتى .. بدأت تناولها لقيمات صغيرة من الطعام فقط لتعطيها القوة على المقاومة لأن الدواء لا يؤخذ على معدة خاوية.

تقلب خليل بقلق وأفاق على صوت حنان تشجع هدى بهدوء على متابعة تناول طعامها، ابتسم بحب لقد اشتاق إلى وجهها الذي كان أول ما يراه

كل صباح فيتأكد بأن هذا أجمل أيام حياته وأن اليوم يخبئ له من الخير الكثير.

انتزع نفسه من أفكاره فلا يصح أن يفكر بها هكذا فهي لم تعد تخصه في شئ .. كم ألمته تلك الخاطرة .. نفض جسده من موضع نومه واقترب منهما متسائلاً عن حالها الآن، أجابته دون النظر إليه وهي تتابع إطعام هدى.

- الحمدللّه أحسن .. درجة الحرارة نزلت بس خوفت لتعلى تاني فحطالها الكمادات، وأهو بأفطرها عشان أعرف أديها الدوا

- الحمدللّه .. مش عارف أشكرك إزاي يا حنان

- لا شكر على واجب

- إنتي أخر واحدة المفروض كنت أطلب منها الطلب دا خصوصاً ..

قطع جملته بقلة حيلة لا يعرف كيف يختمها، نهضت ونظرت له بقوة: مافيش حاجه، أي حد كان هيطلب مني مساعدة مش هتأخر عنه

سألها بغيظ: حتى جارك دا اللي اسمه بدر

رفعت أحد حاجبيه مستغربة: طبعاً .. دا جاري ومن حقه عليا أساعده وقت ما يحتاجني

أضافت قبل أن تسمع أي رد منه: لازم أمشي، أصلاً وجودي هنا لحد الساعة دي غلط

تنهد معتذراً: أنا أسف تعبتك معايا .. بس منال راحت تزور والدتها في المنوفية عشان تعبت فجأة وما رضيتش تاخد هدى معاها لأحسن تتعدي

أومأت بتفهم: ربنا يرجعهالكوا بالسلامة .. عن إذنك

رافقها إلى الباب الذي فُتح بمجرد اقترابهما منه، دلفت منال إلى المنزل لتقابلها هذه المفاجأة، شهقت صارخة: هي دي بتعمل إيه في بيتي يا خليل !

جحظت عيونه تنهرها على كلماتها وقال من تحت ضروسه: هأفهمك بعدين يا منال

وضعت منال يديها بخصرها: لا أنا عايزه أفهم دلوقتي .. أغيب يومين عند ماما أرجع ألاقي الهانم دي مشرفة ف بيتي ؟؟

اعتذرت حنان وأمسكت بالباب تفتحه: عن إذنكوا

نشبت منال مخالبها في ذراع حنان بعنف: مافيش خروج من هنا غير لما أعرف بتهببي إيه ف بيتي!

أزاح يدها من فوق ذراع حنان صارخاً بصوت يغلب صوتها حدة: قولتلك هأفهمك .. ولمي الدور يا منال بدل ما ترجعي عند أمك بس المرة دي على طول

ألجمتها كلماته وشيعت حنان بنظرات حاقدة تحمل من الكره ما لا يستطيع تحمله إنسان، ركضت مسرعة تمنع دموعها من التساقط حتى تنفرد بنفسها .. تردد في ثنيات ذاتها .. ليتني استمعت إلى اعتراض جدتي

لكن إحساس الأمومة وخوفي على الطفلة كأنها طفلتي المفقودة أفقدني أي تفكير منطقي سوي.

****

أغلق أنس كتابه بعد أن أتم فروضه ثم نهض متجهاً إلى حاسوبه الآلي يضغط زر بدء التشغيل .. سحب مقعده واستقر به منتظراً عمل الجهاز.

فور إعلان استعداد الجهاز للعمل حتى انطلق يفتح حسابه على موقع التواصل الإجتماعي "الفيس بوك" .. تحمس بشدة عندما رأى أمامها إشارة خضراء تدل على تواجدها ، بدأ الحديث معها..

- السلام عليكم ^_^

- وعليكم السلام :).

- إزيك ؟

- الحمدللّه أنت عامل إيه يا أنس؟

- أهو زي ما أنا

- لسه مافيش أخبار عن أختك ؟

- لا لسه :(.

- معلش هترجع قريب إن شاء اللّه ;(

- يا رب ^^

P:- المهم أنت ركز ف دراستك وبطل تلاكيك

- هههههههههه حاضر .. بس إنتي عاملة إيه مع مامتك ؟

- الحمدلله بأكلمها على طول وبأزورها يوم الجمعة .. وف أجازة أخر السنة هأروح أقعد معاها ^^

- طب الحمدلله .. ربنا يديم المحبة بينكوا

- أنت السبب ف دا لولاك ماكنتش كلمتها تاني وفضلت بعيد عنها مش عارفه أشكرك إزاي

- ما تقوليش كدا يا هبه دا كان هيحصل بيا أو من غيري

- ^_^

توقف الحديث وظل أنس يفكر في موضوع للحوار لكنه لم يجد فقرر إلتزام الصمت، شرع يتصفح الصفحة الرئيسية يقرأ منشورات الصفحات التي يتشرك بها ومنشورات أصدقائه.

استوقفه هذا المنشور ليقرأه بتمعن .. وكان ما كُتب به حرفياً " السؤال: هل صحيح أن النبي -صلَّ اللّه عليه وسلم- أرشد إلى تغطية الإناء الذي فيه طعاماً وشراب؟

الإجابة: نعم، الأصل في المسلم إن بات فلا يجوز له أن يترك الآنية التي فيها الشراب، أوالصحاف التي فيها الطعام إلا وهي مغطاة، ولو وضع في الثلاجة فأرجو أن تكون بمثابة الغطاء.

وتغطية الإناء ليلاً واجب، وهذا خيرللمسلم في دينه ودنياه والأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك.

فقد أخرج مسلم في صحيحه أن النبي -صلَّ اللّه عليه وسلم- قال: "غطوا الإناء وأوكوا السقاء وأغلقوا الباب، وأطفئواالسراج؛ فإن الشيطان لا يحل سقاء ولا يفتح باباً ولايكشف إناء...".

وفي حديث آخر في مسلم أيضاً يقول -صلَّ اللّه عليه وسلم-: "غطوا الإناء، وأوكوا السقاء؛ فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء"، ولعل في هذا سراً عجز عنه الأطباء، ولعلهم يعرفونه في يوم من الأيام. ولعل هذا سبب لحصول الداء في أو لأمره، الذي لم يكن قد عرف من قبل.

وقد أكد النبي -صلَّ اللّه عليه وسلم-،على هذا الأمر تأكيداً شديداً، فقال: "فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً، ويذكراسم اللّه فليفعل"، وهذا خير للمسلم في الحال والمال، والمعاش والمعاد.

#واللّه_أعلم. "

ما أن أنهى قراءة المنشور حتى ركض إلى شقيقته وزوجة أخيه يطلعهما على ما عرفه، تعجبتا بشدة وعلقت زهرة بتفكير: عشان كدا كل سنة بيطلع وباء جديد وينتشر

شاركتها عائشة رأيها: تقريباً .. مش بعيد واللّه

أنس: أبقوا غطوا الأكل كويس

زهرة: إحنا عموماً مش بنسيبه غير لما نغطيه بس هناخد بالنا أكتر بعد كدا

أومأ أنس وعاد يتصفح المنشورات مرة أخرى متنقلاً بين منشورات عن فنانين لا معنى لها وأخرى عن طريقة تقشير الثوم .. ومنشور عنوانه "المغنية ... شاهد صورها عندما كانت تنام تحت شجرة الجميز" .. ومرة عراك بين ناشط سياسي وعضو بأحد الأحزاب وكيف يسب كل منهما الأخر .. ثم وصل إلى النكات وأصاحبي وغيرهم من الشخصيات الفيسبوكية الأصيلة لتخفف عنه عناء ما رآه قبلاً من منشورات تسبب له الملل من كثرة تكرارها.

****

صعدت إلى القطار وجلست برفقة حمزه إلى جوار النافذة تشيع عائلته التي أوصلتهم إلى المحطة، اعتدلت في جلستها بعد أن ابتعدوا عن أنظارها، شردت بعيداً تتخيل موقف أهلها إذا رأوها بعد هذا الغياب، لقد مر حوالي العام وهي لا تدري عنهم شيئاً والعكس أصح.

لاحظ شرودها لكنه لم يعلق .. توقع سببه وما يسبب لها التوتر .. هو كذلك متوتر لا يعلم رد فعل أناس لم يقابلهم ولم يسمع عنهم شيئاً، لكن إن كانت هي مثالاً عليهم فهو يتوقع العناد ويباسة الرأس وأنهم سيحتاجون إلى مجهود ليس كبيراً بل خرافياً.

فكر أن يتجاذب معها أطراف الحديث لكنه تراجع عندما وجدها تسبح في عالم بعيد كل البعد عنه وعن الواقع .. أثر إلتزام الصمت فهو كذلك لا يدري كيف يبخر خوفها وهو لا يعلم ما ينتظره.

****

حملت حقيبتها وقبضت على يدها الراقدة فوق كتفها بقوة ثم بدأت تسير بتمهل إلى خارج أسوار المدرسة غير مدركه لأصوات الأطفال المتصاعدة وعراك بعض الأطفال نتيجة كلمة قالها أخر .. بعض الأطفال يصعد إلى الأتوبيس سعيدين بعودتهم إلى منازلهم .. غارقة هي في أفكارها.

لم تنسَ حنان أمر مي مي والقلادة التي رأتها تلتف حول عنقها، أمن المعقول أن توجد قلادتنا بنفس الشكل والتطابق لتلك الدرجة ؟؟؟

في شهرها السابع بعد علمها بأنها سترزق بفتاة، لم تكن الأرض تسعها من السعادة، ستأتي الفتاة التي تدربت منذ طفولتها على دُميتها لتصبح أماً لها .. فكانت تمشط لها خصلاتها الصناعية وتجعل والدتها –رحمها اللّه- تجدل لها ضفائر كالتي تستكين على كتفيها .. كذلك تبدل لها ملابسها وتقوم بتفصيل ملابس خصيصاً لها من قصاصات الأقمشة .. حتى أنها لم تتركها أثناء استحمامها بل كانت تأخذها لتستحم برفقتها.

تمددت على فراشها ترفع قدمها على وسادة كما أمرها الطبيب ثم تناولت دفتر وقلم من أعلى الطاولة المجاورة للسرير .. وضعت طرف القلم في فمها

لحظات تفكر حتى شعت إبتسامة فوق ثغرها وبدأت تخط بضعة خربشات لتنتج قلادة في غاية الجمال.

دلف خليل إلى الحجرة يطمئن عليها، حالما رأته أشارت له ليقترب بلهفة، تبسم جالساً بجوارها يحيط كتفيها بذراعه ..

قالت بسعادة لا مثيل لها: إيه رأيك في السلسلة دي يا خليل؟؟

تأملها دقيقة بتمعن قبل أن يعلق بهدوء: حلوة أوي يا حنان .. بس لمين دي ؟؟

ثبتت نظرها على الرسمة قائلة بعيون لامعة: دي سلسلة رسمتها لـ ميّ بنتنا

نظر لها متعجباً: إنتي خلاص هتسميها ميّ ؟

هزت رأسها وعيونها تحدق في عيونه: أيوه .. أنا كنت مسميه عروستي ميّ وكنت بأعاملها أكنها بنتي مش عروسة خالص .. وكنت وعدتها من وأنا صغيرة إني لما أخلف وأجيب بنت هاسميها ميّ على اسمها

قهقه خليل: أنا أعرف توعدي واحدة صحبتك مش عروسة يا حنان ههههههه

قطبت جبينها: وفيها إيه لما أوعد عروسة يعني !

قبَّل شعرها قائلاً بحنان: مافيهاش حاجه يا حبيبتي

أعاد الحديث إلى القلادة .. سألها وعيونه تستقر على الدفتر: ومتخيلها تبقى إزاي بقى؟ من الدهب يعني؟

هزت رأسها بعنف رافضة: لا، أنا عايزاها تبقى فضة .. بأحسه كدا رقيق .. هيناسب السلسلة أكتر وهيخليها أحلى .. الشكل دا ما ينفعش معاه غير الفضة

تخيل ما قالته وتمتم بشرود: فعلاً هتبقى حلوة .. الاسم مكتوب بشكل حلو أوي ما شاء الله

ابتسمت ونهضت على مهل: هأدخل الحمام بقى قبل ما أنام

داعبها ضاحكاً: أنا لو عملت تذكرة على الحمام دا هأكسب دهب

بررت بخجل: هو ذنبي يعني؟ .. ما هو الحمل السبب مش بإيدي يعني

- معلش .. خلاص كلها شهرين وترتاحي

فور إختفاءها في الحمام تناول الدفتر وشق الورقة التي تحوي الرسمة بين طياتها عاقداً النية على تحويلها من مجرد خربشات على ورق إلى حقيقة ملموسة مهما كلفه الأمر.

أفاقت على اصطدام فتى بها يركض لاحقاً بالكرة، ابتسمت رغم أنه لم يكلف نفسه عناء الإعتذار، تابعت السير عائدة إلى أسعد ذكرياتها .. يوم فات خليل إلى المطبخ بينما تجلس برفقة جدتها تتسلى بالحديث إليها وهي تعد كعكة عيد ميلاد ابنتها الثاني.

نظرت إليه مستغربة: أنت رجعت بدري ليه ؟؟ .. حصل حاجه ؟؟

ابتسم وركع على ركبتيه أمامها في حين تركت الجدة ما كانت تقوم به وقد انتابها القلق، أخرج من جيبه علبة حمراء وفتحها لتجد حلمها تحول إلى واقع تستطيع القبض عليه وقت لمسها للقلادة الفضية التي تحمل اسم ميّ فيزيدها بهاءً في نظرها.

انتزعت نظراتها قصراً عن القلادة لتنظر له بأعين دامعة: عملتها إزاي دي ؟؟

هز كتفيه بخجل: أخدت الورقة اللي فيها الرسمة ووديتها لجواهرجي يعرفه واحد صاحبي وقبل يعملهالي

همست ببطئ: وجبت فلوسها منين ؟؟

- من ساعة ما ورتيني الرسمة وأنا سألت تكلفتها هتبقى كام وبقيت كل شهر أخد فلوس من المرتب بس مبلغ بسيط ما تحسيش بيه ولو حسيتي مش هتسأليني السبب مادام ما قولتلكيش أنا لوحدي .. وخصوصاً إنه حاجه بسيطة .. بقيت أخد المسافة مشي من هنا للشغل وأنا رايح أو وأنا جاي

بدهشه: يعني أجرة الأتوبيس هي اللي هتعمل فرق ؟؟

تبسم وقال مازحاً: جنيه رايح وجنيه جاي أدي ٢ جنيه في اليوم يعني ٦٠ جنيه في الشهر بالنسبه ليا المبلغ دا كبير أصلاً هههههه وبعدين فين صفة الزوجة الموفرة اللي فيكي يا حنان .. دفنتيها فجأة ولا إيه

ابتسمت بحب وانضمت إليه أرضاً تتلمس خصلات شعره: تعرف .. أنت أكبر نعمة ربنا رزقني بيها ف الدنيا دي .. ربنا يخليك ليا وما يحرمنيش منك أبداً .. ما أعرفش ممكن يحصلي إيه من غيرك

أنتهى الأمر بضمة ونحنحه من الجدة .. ألبست طفلتها النائمة القلادة متمنية ألا تنزعها أبداً.

لم تكن وقتها تدرك أن فراق الأم لوليدتها أكثر إيلاماً من فقدان المرأة لحب حياتها .. فغريزة الأمومة أقوى الغرائز حتى من غريزة إشباع الجوع أو الحاجه إلى النوم .. خصوصاً لو كانت امرأة ولدت لتصبح أماً كحنان.

****

وصل القطار أخيراً إلى المحطة المقصودة، هبط حمزه يحمل الحقيبة التي استوعبت أشياءهما معاً وسارت هي إلى جواره بتوجس ..

نظر حوله فلم يجد أي وسيلة نقل متوفرة سوى .. الـ توك توك، نظر إليها مستفهماً عما سيفعلانه، ابتسمت هي لأول مرة منذ الصباح وهزت كتفيها: هو دا اللي موجود

- أنتوا ما عندكوش تكاسي ولا إيه ؟؟

اتخذت وضعية الدفاع وأجابته: طبعاً عندنا، بس دا معاد غدا وتغيير ورديات

مشيراً برأسه إلى الـ توك توك سألها متمنياً منها النفي: أكيد مش هنركب دا مش كدا ؟

حاولت كتم ضحكتها قائلة بجدية: وهو أنت شايف حل تاني؟ .. ولا عايزنا نستنى لحد ما يجي تاكسي؟؟

زفر بحدة وقبض على ذراع الحقيبة بقوة مستغفراً فيما زادت محاولاتها لمنع القهقهات العالية من الخروج .. توجه إلى الـ توك توك الذي دوره الآن في نقل الزبائن وسأله عن العنوان الذي أخبرته به حياه سابقاً .. جلست حياه بسرعة وهدوء فهي معتادة على ركوبه بينما ارتبك حمزه فهو لأول مرة يركبه في حياته خصوصاً بجثته الضخمة تلك والتي لا تتناسب مع حجمه.

أخيراً استقر في مكانه ووضع الحقيبة التي ليس لها مكان سوى فوق ركبتيه، انطلق الـ توك توك في إتجاهه غير عابئ بالطريق وتضاريسه أو بالمارة ... اتخذ حمزه عهداً على نفسه أنه لن يركب توك توكاً مرة أخرى .. دائماً ما رآه يسير في الشوارع ويتعجب من هؤلاء الذين يركبونه .. أول مرة رآه اعتقد أنه عربة فرت من مدينة الألعاب .. لا يعتبره وسيلة نقل بل وسيلة للإنتحار أو اللعب الخطير كالصاروخ في دريم بارك.

تنهد براحة مترجلاً منه وبعد أن نقد الفتى الذي لا يتجاوز الحادية عشر من عمره إلتفت ليجد حياه متسمرة تنظر إلى المنزل برهبة وشوق في ذات

الوقت، اقترب منها ووقف برهة يتأمل المنزل مثلها وجده شديد الإتساع وبه حديقة كبيرة أيضاً يبدو أنهم تخطوا الطبقة المتوسطة بمراحل.

ربت على كتفها وتقدم بينما هي تتبعه بتؤده، كانت البوابة مغلقة حاول فتحها بلا جدوى، أمسكت بساعده: استنى .. تلاقي عم فتح الله قافله وراح عشان يتغدى

تنهد: أنتوا إيه حكايتكوا مع الغدا بقى؟؟ .. كل البلد بتتغدى ف نفس الوقت ؟!

ألقت عليه نظرة جانبية: مش أحسن ما سكان البيت الواحد كل واحد فيهم ياكل ف معاد شكل ؟

صمت عندما رأى رجلاً يهرول من الغرفة الملحقة بجوار البوابة يقوم بضبط عمامته فوق رأسه بينما يقبض على طرف جلبابه تحت إبطه، يلوك بقايا غداءه، ويقول بلكنة صعيدية بحته: أنا چاي أهو .. مين هناك ؟؟

ثم أضاف غير مصدقاً عيونه عندما توقف أمامهما ولمح حياه عبر البوابة: إيه دِه .. ست حياه !

ابتسمت: أيوه أنا يا عم فتح اللّه

شرع في فتح البوابة بسرعة وسعادة وهو يتمتم على عجل: يا أهلاً يا أهلاً يا ست حياه .. واللّه البيت ما كان له طعم من غيرك

- تُشكر ...

ثم أضافت بتردد: هما جوا ؟؟

تجلى الحزن على ملامحه: أه كلاتهم جوا، مافيش غير محمود بيه اللي راح يشوف الغيط، والباشا الكبير بقى يخرج من عيا يقع ف التاني .. والله دي عين وصابتكم يا ست حياه

شعرت بالنار تكويها فهي السبب فيما حدث لوالدها ولا تستطيع إنكار ذلك، أمسك حمزه ذراعها يحثها على التقدم بينما ألقى عليه فتح الله نظرة نارية تسأله بشك عمن يكون.

أجاب حمزه بثقة وقوة التساؤل الذي رأه في عينيه ولم ينطقه: أنا حمزه .. جوزها

حث حمزه خطاه وحياه تسير خلفه مسلوبة الإرادة تاركين خلفهما الصدمة تعلم ملامح الحارس دون أي إجابة على تساؤلاته التي لا تخصه في شئ.

وقفت أمام الباب تنتظر مصيرها بعدما دق حمزه الجرس، سمعت صوت شقيقتها يقترب من الباب قائلة: أيوه جايه

اتسعت حدقتيها على مرأى أختها التي كانت أسرع منها في رد فعلها، جذبتها إلى أحضانها بقوة تقبلها كيفما أتفق تعبر عن شوقها بالكلمات والأحضان، نظر حمزه إلى الحديقة وأولهم ظهره حتى يتيح لهما حرية أكبر.

زهرة وقد استبد بها الشوق: وحشتيني أoووي يا حياه

بكت لبكاء شقيقتها: وأنتوا أكتر والله

أشارت لها زهرة لتدخل فلاحظت مرافقها لأول مرة، عادت بنظرة مستفهمة لحياه التي أجابتها: هأحكيلك كل حاجه دلوقتي بس عايزه أطمن على بابا الأول .. هو كويس ؟

جلست معهما في المضيفة وقصت على حياه وضع والدها: من ورا محمود قعد يسأل على شادي دا ويعرف كل حاجه عنه .. مش عارفه إيه اللي سمعه عنه سببله أزمة قلبية ومن ساعتها أي حركة بسيطة بتتعبه ومش بيخرج من أوضته والدكتور قال ماحدش يزعله ولا يقوله حاجه تضايقه

زادت دموعها: يا حبيبي يا بابا .. أنا السبب في اللي أنت فيه دا

سأل حمزه مضيقاً حدقتيه: يعني ما قالش إيه اللي عرفه قدامكوا ؟؟

أجابته زهرة وهي ما تزال تسأل عن علاقته بحياه: لا، محمود بس اللي يعرف ومش راضي يقول لحد .. بيقول دي صفحة وانتهت

طلبت حياه بلهفة: طب أنا عايزه أشوف بابا يا زهرة .. عشان خاطري

اصطحبتها إلى غرفة والدهما بينما بقى حمزه بإنتظارها فتلك اللحظة من حقها وحدها، دلفت إلى حجرته على مهل فوجدته راقداً في سكينة مغمضاً عينيه، تلمست يديه ودموعها تتساقط: أنا أسفة يا بابا، ما كنتش أعرف إنه كل دا هيحصل بسببي .. أنا ندمانه على اللي عملته يا رب تسامحني

غادرت مسرعة فهي لم تتحمل رؤية والدها مستلقياً هكذا، دائماً ما كان كثير الحركة لا يهدأ ولا يرتاح إذا جلس في مكان واحد لفترة طويلة، مرت على أنس ووجدته كالعادة أمام الشاشة المضيئة يضرب على لوحة المفاتيح.

- كأني سيباك من نص ساعة بس .. يا ابني ارحم عينيك دي !

انتفض مصدوماً ثم نزع نظارته يدلك عينيه بقوة ويمسح عدساتها قبل أن تستقر على أنفه وفوق أذنيه مرة أخرى.

ضحكت: شوفت عفريت ولا إيه ؟؟

ركض إليه بسعادة يضمها: حيااااه .. وحشتيني

عقدت ذراعيها حوله: وأنت وحشتني أووي أووي

- الحمدللّه إنك رجعتي البيت كان وحش أوي من غيرك

- الحمدللّه .. يلا ننزل عشان أسلم على عيشه والتؤام اللي وحشوني جداً

بعدما وصلت إلى السلمه الأخيرة وقفت وجهاً لوجه أمام شقيقها الأكبر محمود، كانت عينيه تطلقان شراراً وصرخ بها: إنتي إيه اللي رجعك يا فاجرة ؟؟؟

هم أن ينهال على خدها بصفعة قوية لكن يداً تسببت في تعليق ذراعه بالهواء، قال حمزه بقوة شديدة لا تقبل مجادلة: مراتي ماحدش يمد إيده عليها حتى ولو كان أخوها

حمدت زهرة ربها فعندما رأت عائشة تفتح الباب ليطل منه شقيقها حتى ركضت إلى ذلك الغريب تطلب منه التدخل فبالتأكيد محمود لن يجعلها تمر مرور الكرام لكن ما فاق الدهشة لديها أن حياه أصبحت زوجته !

قطب محمود بشدة: مراتك ؟؟ .. أنت بتقول إيه ؟؟ .. أومال فين شادي ؟؟

حمزه بحزم: شادي دا ماضي وراح لحاله .. أنا الحاضر والمستقبل

وجه محمود نظراته إلى حياه قائلاً بسخرية: هو إنتي فاكره أنه لما تيجي متجوزة إحنا هنسامحك ونعدي اللي عملتيه دا بالساهل كدا ؟؟

نظرت حياه أرضاً بينما أجابه حمزه: إحنا بس شوفنا إنكوا لازم تعرفوا حياتها دلوقتي شكلها إيه وأنها كويسه .. وكمان تطمن على أبوها مش أكتر

محمود بعنفوان: وأديكوا أطمنتوا .. اتفضلوا بقى برا

تناول كفها وهم بالخروج لكن صوتاً رغم ضعفه إلا أن الحزم كان واضحاً فيه: لا أنتوا هتستنوا هنا

نظر محمود إلى أعلى السلم الذي يعلوه والده وهتف بهدشه: إيه الكلام دا يابويا ؟؟

نظر إلى محمود شذراً: عايز الناس تاكل وشنا وتقول طردوا بنتهم برا هي وجوزها ويفضلوا يلتوا ويعجنوا ف كلام وخلاص؟؟

وجه حديثه إلى زهرة وعائشة: حضروا لهم الأوضة عشان يقعدوا فيها وجهزوا لهم الغدا

أومأت كلتهما وأسرعتا تنفذان ما أمر، بينما عاد نظره إلى حمزه: أما أنت بقى .. ففيه كلام كتير بينا لازم يخلص

أومأ حمزه: تحت أمرك

ركض أنس يسند والده إلى غرفة المكتب وحمزه يعاونه بينما غادر محمود إلى عمله مرة أخرى دون أن يتناول الغداء الذي جاء من أجله يحمل داخله حنقاً على فعلة والده كذلك غضباً أنه على صواب فيما فعل.

أغلق أنس الباب على حمزه ووالده في غرفة المكتب كما أمره وأتجه إلى حياه قائلاً: تعالي نقعد ف أوضتي لحد ما يجهزوا الغدا والأوضة بتاعتك كلها شوية وتكون جاهزة

تحركت خلفه وقلبها يدق بعنف متسائلة عما يدور من حديث الآن بين حمزه ووالدها.

****

مرت حنان على منزل سمية بحجة أن حياه أوصتها بالإطمئنان عليها كل حين، تأملت أن تُحل ظنونها إما بالإيجاب أو بالسلب حتى لا تبقى معلقة بأمل واهٍ.

استقبلتها سمية بترحاب وجلست برفقتها تتناول القهوة الساخنة، أتت مي مي وجلست أمامهما تلعب، شعرت حنان بسعادة لا توصف لرؤيتها من جديد.

فتحت الحديث مع سمية: ما شاء الله ربنا يخليهالك، هي عندها كام سنة؟

ابتسمت: داخله في الـ ٩ سنين

زادت الأمال لدى حنان فهي في نفس عمر ابنتها إن ما كانت معها الآن: بس مش واخده شبه منك أو من حد فيكوا خالص سبحان الله

ارتبكت سمية ووضعت فنجانها على الطاولة قائلة بغموض: أه .. خلقة ربنا بقى نعمل إيه

- ونعم بالله

أثار رد فعل سمية الريبة داخل حنان لكنها لم تستخدم الضغط حتى لا تكره السيدة قدومها، وبعد تناولها للقهوة ذهبت تلعب مع مي مي قليلاً قبل أن يحين وقت انصرافها.

***

انفردا أخيراً بغرفتها، سألته بلهفة عن سر حديثه الطويل مع والدها الذي استمر أكثر من ساعتين لكنه لم يجبها ووضع الحقيبة على الفراش يتأمل الغرفة بدقة قبل أن يتمتم:

- دي أوضة بنت

أجابته بفروغ صبر: أومال حضرتك شايفني إيه ؟

قال ببرود وتمهل أثار أعصابها: أنا لما أختك قالت هنقعد في أوضتك افتكرت إني هلاقي بدل الورد دا صبار .. السجادة الرقيقة دي بدلها شوك .. لون الأوضة رمادي غامق أو أسود .. مش وردي

تمتمت بحنق: ليه داخل قبر ولا شايفني خارجة من فيلم مصاصين الدماء ؟؟ .. سيبك من الأوضة وركز معايا، بابا كان عايزك ف إيه؟؟

تلكأ وقال متجاهلاً حديثها: بس أوضة لطيفة

وقفت أمامه غاضبة وهي تحوقل: يا ابني أنت ليه مُصر تستفزني؟؟!

جلس على فراشها سانداً جسده على مرفقيه: كيفي كدا

تنهدت وسألته: بجد يا حمزه، قولي بابا كان عايزك ف إيه ؟

اعتدل في جلسته وأسند ساعديه على ركبتيه قائلاً بجدية: كان عايز يعرف حكايتي معاكي إيه وإيه اللي خلانا نتجوز وعرفتك منين

بتوجس: وقولتله إيه ؟؟

تنهد: هأحكيلك عشان لما يسألك تقولي نفس الكلام بالظبط ... قولتله إنك فعلاً روحتي مصر مع شادي بس إنتي ماكنتيش بتهربي معاه هو بس وصلك القاهرة مش أكتر .. وأنك عملتي كدا بس عشان أخدتيها تحدي

أضاف بسخرية: وطبعاً بما أنه عارف دماغك فصدقني لما قولتله كدا

عاد إلى جديته مكملاً: وأنك كنتي مقررة تقعدي عند واحدة صحبتك يومين بس لكن هي احتاجتك معاها عشان جدتها تعبانه .. وحاولتي تكلميهم تقوليلهم بس أخوكي قفل في وشك السكة قبل ما تكملي كلامك .. بعدين حكيتله اللي حصل فعلاً وأنك اشتغلتي في المدرسة خوفاً من أنهم يطردوكي لو رجعتي وبعدين جيتي تدرسي لمي مي وأنا عرفتك وحبيتك وقررت أتجوزك

لما كلمة "حبيتك" هي التي استوقفت قلبها لحظة ليستوبعها دون باق الكلام، إنه في شوق لسماعها حقاً ولكن عندما يبادله القلب شعوره وليس لإقناع والد بمصالحة ابنته، تخطت هذا وسألته: وهو اقتنع؟

أومأ: أيوه .. بس مش أوي .. عشان كدا عايزنا نقعد هنا أسبوع عقبال ما يتأكد من كلامي

مصدومة: هو قالك كدا ؟

تنهد فاركاً كفيه: لا طبعاً، هو قالي بالحرف "هتنورونا هنا أسبوع .. هتتشالوا فيه فوق الراس عشان الغيبة الطويلة دي والبنت وحشت أخواتها" .. بس أكيد قصده يقولي لحد ما أسأل عليك وأعرف إذا كنت كويس ولا لأ واللي قولته حقيقة ولا كدب

- بس كدا ؟

- أديته اسمي كامل والعنوان عشان لو حب يسأل عني .. هو ما علقش بس حسيته ارتاح لما عملت كدا لأني لولا واثق من نفسي كويس ماكنتش اتجرأت كدا ع الأقل كنت هأستنى لم يطلب هو مني

فرك وجهه بعنف: ممكن أنام بقى عشان حيلي اتهد ولا إيه ؟؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وغادرت الغرفة ليبدل ملابسه على مهل واتجهت إلى زهرة تلقي في جعبتها ما حدث كاملاً، كذلك مشاعرها التي تنمو يوماً بعد يوم نحو حمزه.

****

دفعت الغطاء بعيداً، لم تعد تتحمله تشعر أن جسدها ينبض حرارة، اتجهت إلى الحمام تستحم لعل الماء يطفئ لهيب جسدها لكن أتى ذلك دون جدوى ..

اللهب كان يتصاعد عبر صدرها إلى فمها، تتخيل أنها إذا فتحت فمها سيخرج ناراً كالتنانين، أعدت فنجاناً من النعناع كمحاولة لتحس بالراحة.

جلست تتناوله بالمطبخ وتتذكر أنها ذهبت اليوم إلى الطبيب لأخذ الجلسة، لقد قام الطبيب بتقسيم الجلسة الواحدة على مرتين .. لقد أخبرها أن ما تمر به الآن من الأعراض الجانبية للسائل الكيميائي الذي تأخذه لكنها لم تظن أنه بهذه البشاعة؛ حتى الأدوية لا تُجدي معه نفعاً.

كل جلسة تزداد نقمتها على ما هي فيه، تتساءل لما هي خصيصاً ولما الآن؟؟، عندما أدركت عدم جدوى النعناع دلفت إلى غرفتها مرة أخرى وشرعت تبحث عن علكة في مكانٍ ما داخل حقيبتها، تقلب فادي فاتحاً عينيه يسألها بصوت ناعس: بتدوري على إيه دلوقتي يا نجلاء ؟؟

وضعت قطعتين في فمها وأعادت باقي العلبة إلى الحقيبة مجدداً: كنت بأدور على لبان

متعجباً سألها: دلوقتي ؟؟

- عندي حموضة ومش عارفه أنام منها

سألها بقلق: أنزل أجيبلك دوا ؟

هزت رأسها: لا أنا هأندوغ اللبانه شوية وهتروح الحموضة على طول، نام أنت عشان عندك شغل الصبح بدري

استدار عاملاً بكلامها بينما أخفت هي دمعة حزينة فهي منذ علمها بمرضها وكذبها لا يتوقف.

****

خرج حمزه من الغرفة ليجد والد حياه "فاروق" يغادر غرفته فسأله عن وجهته، أجابه: هأتمشى شوية في الجنينة

- بس اللي أعرفه أنه حضرتك ما ينفعش تتعب نفسك وترتاح أكبر وقت وبلاش مجهود

أشاح بيده: دول مش فاهمين حاجه، الرقاد والقاعدة هما اللي بيتعبوني، بيحسسوني إنه ما بقاش ليا لازمة

- لا ما تقولش كدا .. حضرتك الخير والبركة

مد ذراعه: تعالى اسندني عشان السلالم دي هي أزمتي الكبيرة فعلاً

ابتسم حمزه: حاضر .. وهأتمشى مع حضرتك لو مافيش مانع

- لو بطلت تقول حضرتك دي هيبقى مافيش مانع

اتسعت إبتسامته: حاضر

أثناء سيرهما في الحديقة عاد فاروق يحقق معه مجدداً لكن براحة أكثر كأنه سمع عنه ما يسر: أنتوا عملتوا فرح ؟

- لا ، كتب كتاب بس

توقف فاروق عن السير وحدق به مترقباً: ليه؟؟ .. فيها حاجه تمنع الفرح واللمة ؟؟

ابتسم حمزه بثقة أراحت فاروق قليلاً: لا طبعاً، حياه دي زينت البنات، عرفت تربي فعلاً يا عمي .. كل ما هنالك إنها كانت ناوية تسافر برا وكنت عايز اتأكد بأي شكل إنها هتفضل هنا ومش هتسافر وتسيبني فقررت إني أكتب كتابي عليها ونبقى نعمل الفرح لما أقابلك ونتفاهم وأحس أنك فعلاً تقبلني جوز بنتك

للعجب أن هذا فعلاً ما كان يفكر ويشعر به حمزه مما جعل تأثير الكلام يصبح أقوى وأقنع به فاروق المحنك بشدة، تبسم فاروق وسأله: بتحبها مش كدا ؟

تبادلا النظرات للحظات حتى ابتسم حمزه في النهاية وأومأ: ومين ما يقدرش يحبها ؟

ربت فاروق على كتفه: ربنا يخليكوا لبعض يا ابني

ثم اضاف بعد دقيقة من مواصلة السير: وناوي على إمتى تعملوا الفرح بقى؟ وأديك عرفت رأيي

- أنا سبت العمال يشتغلوا ف الشقة عقبال ما نرجع تكون خلصت إن شاء اللّه وتختار العفش وتجهز الشقة وقتها نحدد معاد للفرح

- وناوي تعمله فين ؟

نظر إليه حمزه وقد فهم مقصده: هناك مالناش قرايب وسكان العمارة عرفوا يوم كتب الكتاب عن جوازنا .. فلو حابب ممكن نعمل الفرح هنا

ابتسم فاروق لإجابته التي نالت إعجابه: كدا أحسن بردو

قال حمزه بتأني متذكرا تجاهله البارحة لحياه في الحديث أو النظرات كأنها ليست موجودة بينهم: بس لو فضلت زعلان من حياه ومش راضي تبصلها أو تكلمها هي نفسها مش هتقبل تقعد هنا أو حتى تعمل الفرح هنا

نظر إليه فاروق بعند: وأنت مش راجل ولا إيه ؟؟ .. كلمتك المفروض سيف على رقبتها

هز رأسه: دا يوم بتحلم بيه أي بنت ولو مشيت كلمتي عليها ف أي حاجه هتبقى ف دي بالذات مش هأعملها مش هأكسر فرحتها عشان كلمتي تمشي ..

شعر فاروق بالفخر تجاهه وأن حياه جديرة بالغفران ففي النهاية اختارت من يستحقها ويصونها، سأله حمزه السؤال الذي تمنى معرفة إجابته: رفضت شادي ليه يا عمي ؟؟

تنهد وبعد إلتزامه الصمت دقائق أجابه: لما طلب إيدها مني أول مرة سألت عليه والكلام ما ريحنيش .. أغلبهم ما يعرفوش عنه حاجه خالص والباقي قالولي كلام ما يدلنيش على حاجه .. وحياه دي بنتي وعمري ما أجوزها لأي واحد والسلام .. دي جوهرة يا ابني ما ياخدهاش إلا واحد فاهم وعارف قيمة اللي معاه عشان ما يفكرش يبيعها ف يوم من الأيام

تأكد الآن حكمها الخاطئ على والدها، لم يكن يبغي سوى مصلحتها وأن تحيا حياه كريمة مع من يستحقها لكنها أساءت الظن به فيما أخطأ هو عندما لم يصارحها بالأسباب ليشاركها إتخاذ قرار يخص مصيرها، فلو أطلعها بنفسه على ما أخبره به الآن لكان قرار الرفض صادراً منها، لكنه أعاد ذلك إلى عقلية الرجل الشرقي الصعيدي الذي مهما حصل على درجات علمية يظل راغباً أن تكون كلمته فرماناً، يأمر فيُطاع.

****

دخل الغرفة لكن حياه لم تكن بها، قرر الذهاب ليأخذ حماماً ينعشه، لاحظ دفتر تتناثر على غلافه أزهار بنفسجية على خلفية وردية، كان أنثوياً بجدارة.

تناوله يقلب صفحاته فلم يجد سوى أسطر قليلة مخطوطة بداخله، قرأها بتروي وتمعن

" أول مرة قلبي يدق

طرت .. فرحت

توهت .. سرحت

بقى أنا عايشه ف قصة حب ؟!

لكن فجأة لاقتني وقعت

بابا رافض سيرة الحب ..!

غضبت وثورت

لكن بابا قاسي القلب

أخدت قرار .. وروحت هربت

لكن لاقتني .. رجعت ندمت

قولت يارتني ف يوم ما غضبت

واستحملت قسوة قلب

بكره مسيره عليا .. يحن!

يارتني سمعت

كنت ساعتها حفظت براءة قلب

عمره ما داق طعم الغدر .. "

تنهد وأغلق الدفتر ثم وضعه مكانه، فكر في مشاعرها الآن بعد غدر من أحبت بها، تذكر أنه قد غُدر أيضاً ولكن ليس بتلك القسوة والدناة، انصرف إلى حمامه والأفكار ما تزال تدور برأسه دون رحمة.

****

تقربت حنان من مي مي أكثر فقد وضعتها سمية في المدرسة التي تعمل بها بسبب معرفتها بالمديرة سناء وتأكدها من اهتمامها بها.

تعلقت بها بشدة تشعر في كثير من الأحيان أنها ابنتها حقاً لكنها تعود وتقتل أمالها حتى لا يصدمها الواقع الذي يتلذذ بعذابها.

أتى خليل يوماً في منتصف يوم دراسي وراقبها وهي تلعب مع مي مي وبضعة أولاد أخرين منهم هدى خلال الاستراحة .. تبسم بحب فهو رغم زواجه من أخرى وإنجابه لهدى إلا أن عشقها ما يزال راسخاً في قلبه .. يعلم أن حنان تظنه توقف عن حبها يوم طلقها وتزوج منال .. لكنه طلقها قبل أن تطلب هي منه ذلك في حال زواجه فكرامتها كأنثى ترفض مثل هذا الوضع

الشائك وكرامته كرجل تأبى أن يُذل بإنتظار تخليها عن فكرة الطلاق فقرر أن يسبقها بخطوة.

بالنسبة للمرأة الزواج والحب كالماء والهواء لا يستطيع المرء العيش بأحدهما دون الأخر بينما الرجل يستطيع الزواج دون حب فلا علاقة للأمرين معاً فلست معضلة بالنسبة إليه أن يحصل على أحدهما فقط .. بل يعد نفسه أكثر حظاً إذا تحققا معاً.

بسبب هذا المنطق لم يجد مشكلة من زواجه بمنال والتي تفهم منطقه ذاك بغريزتها الأنثوية والتي تخرج على فترات في شكل غيرة.

اقترب من حنان وحلقة الأولاد حولها، لمحته هدى فركضت إليه تصيح بسعادة، استقبلتها ذراعيه المفتوحتين على إتساعهما لكن لخيبته دق الجرس معلناً إنتهاء الراحة وبدء حصة دراسية جديدة فأطلق صغيرته رغماً عنه.

بعدما أصبح الملعب خاوياً نظر خليل إلى حنان: إزيك ؟

- الحمدللّه

كادت تهم بالمغادرة عندما استدارت تسأله فجأة: فاكر السلسلة اللي عملتها لميّ مخصوص؟

أومأ متألماً: أيوه .. مالها ؟

- هو الجواهرجي دا عمل منها نسخة تانية ؟؟

نظر إليها مستغرباً سؤالها: لا ما اعتقدش .. بس ممكن اسألهولك

ابتسمت ممتنة: يا ريت يا خليل

- هو في حاجه ؟؟

- لا أبداً .. جه على بالي بس .. عن إذنك

تركته متجهة إلى غرفة المعلمات، عقد النية على معرفة سبب سؤالها ذاك لكن بمجرد تأكده من وجود نسخ أخرى لنفس القلادة أو عدمه.

****

تلفت حوله بعد أن ترجل من السيارة التي يطلق عليها البعض اسم "الضفدعة" والبعض الأخر "الخنفسة" .. بعد اطمئنانه إلى أمان المنطقة صعد إلى بناية حديثة في الطابق الحادي عشر.

دلف إلى الشقة فور أن فتحها رجل قوي البنية ... نسخة طبق الأصل عن الموجودين أمام الفيلا التي يحتلها لمنع أي فتاة من الهروب .. نظر الرجل يميناً ويساراً ثم أغلق الباب بهدوء.

صحبه أخر إلى الغرفة المقصودة مكتفياً بفتح الباب له ليدخل ثم إقفاله فور ولوجه إلى الداخل، نظر حوله ليجد على نور ضعيف أتى من مصباح صغير بجانب الباب مكتباً ضخماً يحتل الجانب الأقصى من الغرفة

والأكثر إظلاماً يجلس عليه رئيسه يدق بأطراف أصابعه على المكتب بنغمة معينة.

يجلس على المقعد المقابل له ساعد رئيسه الأيمن "فواز" والذي يحفظ معالم وجهه على عكس رئيسه الأكبر، أشار له بالجلوس إلى الجهة المقابلة منه تفصل بينهما طاولة صغيرة موضوع فوقها مطفأة سجائر.

سأله فواز بجدية دالفاً إلى الموضوع مباشرة: أخبار البت اللي هربت إيه ؟

- حياه ؟

- أيوه .. والبت التانية اللي اسمها نيفين كمان

أجابه بحنق: نيفين قالب الدنيا عليها بس كأنها فص ملح وداب .. بس حياه أنا عارف مكانها إشارة منكوا بس وأروح أجيبها

نظر فواز إلى رئيسه كأنه يتلقى منه الأوامر عبر الظلام: لا، إحنا جبناك هنا عشان كدا .. إنسى موضوع البنتين دول وركز ف اللي معاك وبس

هتف بدهشة: إيه ؟؟ بعد اللي عملوه أسيبهم كدا ؟؟ .. طب ما غيرهم هيعمل زيهم لما يلاقونا سبناهم

فواز بصرامه شديدة: أنت تنفذ من سكات .. إحنا أدرى بمصلحة الشغل

- بس ..

أشار له بكفه أن يصمت بينما أخرج بيده الأخرى حزمة من الأموال وألقاها إليه، أمسك به مسرعاً كالكلب الذي رمى له صاحبه بالعظمه المفضلة لديه.

أمره فواز: ركز ف شغلك وبس .. وياريت كفايه أخطاء لحد هنا .. إتنين هربوا وواحدة ماتت .. والأخيرة وديناها ف مكان تاني قبل ما يحصلها حاجه هي كمان .. ركز مع البنات الباقيين وسيبكوا م اللي هربوا .. ورانا أهم من التفاهات اللي بتجري وراها دي

كان ذلك تنبيه إلى نهاية اللقاء فغادر المكتب واعداً بالطاعة ومع ذلك أضمر بداخله أنه لن يترك حياه خصوصاً وأنه سينتقم منها يوماً ما على عصيانه وتشجيع أخرى على فعل ذلك.

****

طرقات واضحة على الباب أيقظته من نعاسه، نظر حوله يتأكد من المكان الذي يرقد فيه فتذكر أنه مازال في سوهاج ضيفاً في بيت عائلة حياه، بحث عنها بعينيه في أرجاء الغرفة فوجدها تسجد بأحد الأركان وكان ضوء النهار ما زال مستتراً خلف ظلال الليل.

فتح الباب متخللاً خصلات شعره بأصابعه، تعجب لمرأى فاروق في تلك الساعة، سأله بإهتمام: في حاجه يا عمي ؟؟

تبسم فاروق: صلاة الفجر يا ابني .. أتوضى وأنزل هأستناك أنا ومحمود وأنس تحت ما تتأخرش

ألقى كلماته تلك وأختفى فوراً، عاد حمزه إلى الداخل من ثم توجه إلى الحمام، سلمت حياه من صلاتها وابتسمت بفرحة.

***

انطلق حمزه يحث خطواته على الإسراع ليلحق بمحمود، نادى عليه فتوقف الأخر مستغرباً.

بادره حمزه مازحاً: إيه ياعم .. مركب في رجلك عربيات سباق

لوى شفتيه بملل وهم بالمغادرة لكن كلمات حمزه اللاحقة أوقفته: استنى أنا جاي معاك

سأله ببلاهة: جاي معايا فين ؟؟

- مكان ما هتروح .. أنا أصلي مش واخد على قاعدة البيت دي .. هأجي معاك ولو أقدر أساعدك ف حاجه مش هاتأخر

رأى محمود في ذلك العرض فرصة لا تعوض، سينفرد بحمزه لمدة ويستشف نواياه؛ فهو رغم غضبه على شقيقته المستمر حتى الآن إلا أن أمرها يخصه مهما كانت الخلافات بينهما، هكذا عوده والده ورباه .. فحتى وإن كان الإختلاف بينه وبين أشقائه كالمسافة بين السماء والأرض يجب ألا يمنعه ذلك عن الدفاع عنهم والقلق على مصلحتهم.

قام حمزه بجولة في أرجاء الأراضي يرى المزروعات والفلاحين يعملون في الأرض، أخبره محمود أن هذه الأرض شراكة بينهم وبين عائلة عبد الرحيم التي تقطن على الطرف الأخر من البلده.

- عم عبد الرحيم دا صاحب أبويا أوي .. درسوا سوا ف القاهرة وقعدوا هناك من ثانوي كمان .. والإتنين درسوا في نفس الكلية .. كلية تجارة .. بس تفكيرهم لما رجعوا ما عجبش باقي الناس هنا .. عشان كانوا بيتمردوا على أغلب العادات .. كفاية أنه أبويا اتجوز أمي -الله يرحمها- ودي كانت زميلته وهي اللي شجعته يكمل وياخد الماجيستير .. وبعدها لما هو بعت حياه وزهرة يتعلموا في القاهرة وكمان عم عبد الرحيم بعت بنته سلمى صاحبة حياه تتعلم هناك بردو .. بس حياه وسلمى قعدوا عند عمة سلمى اللي عايشة في القاهرة لكن زهرة كانت من سكان مدينة الطالبات

- أه .. هو تفكير البنت مالهاش غير بيت جوزها دا لسه موجود ؟؟

- مافيش حاجه بتنقرض نهائي خصوصاً الحاجات اللي الأهل بيورثوها لولادهم كأنها حاجات مسلم بيها واللي يخرج عنها زي اللي يكفر بالظبط .. فيه ناس كتير فعلاً قررت تتغير وتعترض على العادات دي بعد ما شافوا زهرة وسلمى وحياه .. رغم أنهم اتعلموا في القاهرة إلا أنهم زي ما هما بس ...

فهم سبب توقفه فأكمل عنه: هروب حياه رجع الأفكار دي تاني وأتهموا دراستها في القاهرة أنها السبب في هروبها مش كدا ؟؟

أومأ مؤيداً: بالظبط .. وزي ما أنت عارف في ناس مصلحتها ف جهلنا وإن نص المجتمع المتمثل في البنات يبقى جاهل والنص التاني يضحكوا عليه أو يتصرفوا معاه بطرق تانية

- صحيح .. أنت ما قولتليش أنت دارس إيه ؟

ابتسم: أنا خريج كلية زراعة .. وأنت ؟؟

- مهندس معماري خريج فنون تطبيقية

انتبه محمود وتابعا الحديث أثناء استراحتهما أسفل شجرة مانجو: ما شاء الله، بتشتغل فين بقى؟

- بأشتغل في شركة العالمية ف القاهرة .. كنت بأسافر أنفذ مشاريع ف دول كتير ومحافظات مختلفة

استفسر محمود: طب ولما تسافر هتسيبها فين ؟؟

ابتسم حمزه: هتقعد مع أبويا وأمي .. وبعدين أنا خليت شغلي محافظات بس يعني كل كام يوم هأجي أبات يوم ولا حاجه أطمن عليها .. ما تقلقش

ألقى عليه نظرة ريبة، وفجأة ارتفعت ضجة وصخب .. رجال يركضون من كل حدب وصواب ونساء تولولن .. نهض محمود وتبعه حمزه متجهين إلى نفس الجهة التي يتسابق إليها الرجال.

سأل محمود بصوت مرتفع أحد الرجال: هو في إيه؟

أجابه الرجل لاهثاً: بيقولوا إن بيت عوض بيولع !

تركه الرجل مهرولاً فلحقا به والفزع احتل ملامحهما، وصل إلى حيث يتجمهر الناس وقد ارتفعت النيران في المنزل، كان عدد من الرجال يهرول يعبأ الدلاء بالمياه، تقدم رجل يتقافز بين الناس وقد ثنى طرف

جلبابه أسفل إبطه وكان حافياً والطين يغطي هيأته فيبدو أنه كان يعمل في الأرض عندما جاءه الخبر.

- بنتي ومَرَتي جوا يا عالم !!

تصاعدات الصرخات من النساء وزادت سرعة الرجال في إحضار الماء، لكن يبدو أن كل هذا لم يقنع النيران بالهدوء أو الإنخفاض ولو قليلاً بل أنه أثارها لتزداد أكثر فأكثر.

أمر محمود أحد الرجال أن يذهب ويبلغ المطافئ؛ فيبدو أن الحريق لن ينفض في وقت قريب بكمية المياه القليلة تلك إنما هو بحاجه إلى دفعة مياه قوية وكثيفة.

اندفع حمزه بين المحتشدين غير مهتم بمحاولات الرجال للإمساك به ومنعه، تناول سجادة من الخوص مفروشة أمام الدار ثم اقتحم بها النيران.

****

أتى أحد العاملين لديهم يطلعهم على النكبة وما حدث، ارتدى فاروق عباءته ولحق بالرجل وحياه تتبعه دون أن تستمع إلى أوامره في البقاء بالداخل، فلقد هالها معرفة أن حمزه داخل الحريق.

ما كادوا يصلون حتى خرج حمزه يحمل طفلة بالرابعة من عمرها وقد لفها بالسجادة ليحميها من دخان الحريق، تركها أرضاً على مسافة آمنة ثم عاد إلى الداخل عائداً بزوجة الرجل.

ركضت حياه إليه تدقق بكل خلية صغيرة به تتأكد أنه لم يصب بمكروه، ومع ذلك لم يخف قلقها وسألته بصوت متهدج: حصلك حاجه ؟

هز رأسه نافياً: لا أنا كويس الحمدللّه

انفجرت في البكاء راحة وحمداً للّه على عدم إصابته بمكروه، لم يدري كيف يهدئ من روعها كل ما فعله أن جذبها بين ذراعيها يربت عليها ويهدهدها.

حضرت سيارة الإسعاف والمطافئ لتنغمس كل واحدة في عملها، أمرهما فاروق أن يعودا إلى المنزل ويرتحا بينما سيظل هو ومحمود هنا حتى يستتب الأمن من جديد وينتهي كل من مهمته.

هز حمزه رأسه متقبلاً الأمر غير شاعر بأن هناك دافعاً لم يلحظه سبب ذلك الأمر وصحب حياه إلى المنزل، استقبلتهما زهرة وعائشة بالكثير من الاسئلة والاستفسارات عما حدث مما جعل حمزه يجيبهم بإختصار ثم يستأذن بالصعود للأعلى.

بمجرد أن اختليا معاً حتى انفجرت حياه به تنهره وتوبخه: أنت ليه تدخل النار كدا ولا أكن فيه حاجه، كنت هتموتني من الخوف، حرام عليك

نظر إليها صامتاً للحظات قبل أن يقول بهدوء: كان فيه طفلة وأمها في النار جوا عايزاني أسيبهم كدا عشان خايف على نفسي؟؟ .. مش هأشوف حد محتاج مساعدتي وأديله ضهري يا حياه وأنا متأكد إنك لو كنتي مكاني كنتي عملتي كدا ويمكن أكتر

نظرت له ببلاهة وهي تجلس على طرف السرير: هو إيه اللي حصل ؟

لم تسمع من الرجل الذي نقل الخبر إلى والدها سوى أن حمزه ألقى بنفسه بين ألسنة اللهب فلم تعد تسمع أو تعي أي شئ أخر.

- حصلت حريقة ف بيت واحد، ومراته وبنته كانوا جوا ومش عارفين يخرجوا

زفرت بحدة وفركت وجهها براحتيها، أتجه إلى الحمام ينفض عنه أثار الدخان وغبار الحريق، تركها تستجمع قواها وقدراتها على التفكير بهدوء ووزن الأوضاع.

****

جلست تتابع نشرة الأخبار مع جدتها لكن عقلها ليس حاضراً، يتشتت بين أفكارها تائهاً .. لا يقدر على تفسير ما يحدث .. إن كانت ابنتها فكيف وصلت إليهم وإن لم تكن فقد ضاع منها الأمل.

ابتهلت أن يرد عليها خليل في أقرب فرصة .. وإن كان بالسلب، فقط يضع حداً لدوامات أفكارها ويجمع شتات نفسها وقلبها المكلوم .. كأنه استجاب لدعواتها الداخلية فدق جرس الباب.

نهضت تفتحه تحت أنظار جدتها المتمعنة في ترقب، فهي لم يخفى عليها تغير حالها لكنها تعبت من الحديث معها دون جدوى، لقد تجادلت معها حتى تقبل عرض جارهم الطبيب بدر للزواج منها لكن هيهات فقلبها مازال متمسكاً بمن غدر وباع.

نظرت إلى خليل بدهشة وقلق، بادرها: أنا أول ما قدرت أوصل لحاجه جتلك على طول

لعقت شفتيها الجافة من القلق وتساءلت بصوت هامس: ولاقيت إيه؟

تنهد سانداً جذعه على إطار الباب واقفاً أمامه، ضيق ما بين عينيه يرصد كل تعبير يظهر على وجهها علّه يستشف سبب ما بان على ملامحها: روحت المحل بس مع الأسف .. الجواهرجي اللي عمله مات من سنتين تقريباً

ارتخت أكتافها بإحباط لكنها عادت تنتبه عندما استدرك حديثه: بس ابنه هو اللي مسك المحل بعده فسألته يمكن يكون عارف ..

حثته على المتابعة: هـا .. وقالك إيه ؟

ضاقت عيونه أكثر: قال إن مافيش سلسلة تاني شبها .. عشان دي كانت أخر حاجه أبوه عملها قبل ما تحصله حادثة ويدخل في غيبوبة

شحب وجهها فجأة وغامت الرؤية أمام عينيها، اعتدل خليل بفزع ثم أسرع يسندها قبل أن تقع أرضاً فاقدة الوعي، أتت الجدة مسرعة لمرأى اهتزاز جسدها في الهواء.

صاحت الجدة: أنت عملتها إيه تاني؟! مش حرام عليك اللي هي فيه ! .. ناوي ترحمها إمتى يا أخي

لم يهتم لصراخها بوجهه كذلك منعها له من الدخول، حمل جسد حنان المتهالك وأدخلها الغرفة فيما أسرعت الجدة بلا حول ولا قوة تستنجد بجارها الطبيب.

****

اجتمعوا على الطاولة مساءً لتناول العشاء، والحديث الدائر لم يكن سوى عن الحادثة التي لم يتوقف الجميع عن الحديث عنها.

روى محمود سبب الحريق معلقاً: مهما نقولهم بلاش حرق قش الرز دا خصوصاً جنب البيوت والأرض .. اللي عايز يحرقه يروح حتى بعيد لكن مافيش فايدة

سألته عائشة بقلق: طب وأم سعدية وسعدية عاملين إيه دلوجت؟

أومأ: الحمدللّه بخير .. لولا حمزه وأنه لحقهم قبل النار ما تطولهم كان زمانهم في خبر كان

زهرة شاكرة: الحمدللّه .. قدر ولطف

فاروق باسماً: ربنا يبارك فيك يا حمزه يا ابني .. الناس دول هيفضلوا شايلينلك الجميل دا طول عمرهم ..

ابتسم حمزه: أنا ما عملتش حاجه يا عمي .. دا واجب وأي حد المفروض يعمله

ربت محمود على كتفه مشجعاً: عاش يا بطل

تمتم أنس شارداً: يااه لو كنت موجود بس .. كنت دخلت معاك أو سبقتك كمان .. يلا المهم بقيت البطل في البلد دلوقتي وكل واحد هيجيب في سيرتك ولا بات مان

كانت حياه تمسك ملعقتها تدفع بها الطعام يميناً ويساراً صامتة، تستمع إلى تشجيع الجميع وسعادتهم بما فعله حمزه، لم تعلق لكنها فجأة صرخت ناهضة: كفاية بقى .. أنا نفسي أفهم بتشجعوه وتباركوا له على إيه ؟؟ .. إنه رمى نفسه في النار وكان هيموت ؟؟

حدق بها محمود بغيظ قائلاً بسخرية: لا عشان فكر ف ناس ما يعرفهمش وف حياتهم قبل ما يفكر ف نفسه وحياته هو بكل أنانية .. عكس ناس

لمعت الدموع بين جفونها لكنها أمسكتها وركضت إلى غرفتها بسرعة، نظر فاروق إلى ولده بغضب، بينما نظرت له زهرة بلوم: ليه كدا يا محمود بس؟

- إنتي ما سمعتيش الكلام اللي يفور الدم يعني ؟؟

زفر فاروق متمتاً بصوت حزين: يعني مانتش عارف سبب الكلام دا إيه ؟

أخفض محمود رأسه، نقل حمزه نظراته الثاقبة بينهم محاولاً فهم الحزن الذي ظهر على وجوههم جميعاً فجأة .. أجابه فاروق قبل أن ينطق لسانه بالتساءل الذي يدور بعقله: حياه متعقدة من الحرايق والنار ..

أكمل موضحاً أكثر: لما كان عندها تمن سنين كان عندها قطة صغيرة كانت بتحبها أووي وكانت بتلعب معها على طول .. لحد ما ف يوم وهي بتلعب معاها بره البيت القطة جريت منها وما عرفتش توصلها .. فضلت تدور عليها لحد ما لاقتها ف وسط النار وكان صوت النونوه بتاعتها عالي وكأنها بتستنجد بيها .. حياه كانت هترمي نفسها ورا القطة عشان تنقذها بس كانت النار اتمكنت منها وحتى لو لحقتها كانت هتعيش في

عذاب بسبب النار اللي طالت أجزاء كتير منها .. وقتها لحقناها بالعافية وفضل محمود ماسكها عشان ما تروحش عند النار ورجعها البيت بالغصب وهو بيجرها وهي مش عايزه تسيب القطة ..

برقت بضع دمعات في عيونه متابعاً: وقتها لما دخلت البيت لاقيتها منهارة من العياط ورمت نفسها ف حضني وقعدت تقولي "هي القطة عملت حاجه وحشة عشان النار تاخدها؟ .. هو أنت مش قولتلي اللي بيغضب ربنا، ربنا هيرميه في النار؟ .. طب القطة وقعت ف النار ليه؟ إيه اللي عملت خلى ربنا يغضب منها .. عشان بتلعب معايا ؟"

وقتها كل اللي عملته إني طبطبت عليها وقعدت أفهمها إنه دي نار بسبب حرق قش الرز ودي غير نار ربنا اللي بتبقى بعد ما الناس كلها تموت وبتبقى ف يوم القيامة .. من ساعتها وهي بتتعب كل ما تشوف حريق أو تسمع عنه ... اللي تعبها إنهارده إنك جوزها يا حمزه خافت تخسرك زي ما خسرت قطتها زمان .. ما تزعلش من كلامها يا ابني .. دا دليل على إنها بتحبك وإنك غالي عليها

أومأ حمزه سارحاً بعيداً، غير مدرك للوم الأب ابنه ومطالبته بالإعتذار إلى شقيقته.

****

شعرت بالحرارة تكاد تُطبق على أنفاسها، حريق يندلع بأحشاءها دافعاً النوم بعيداً، تلهث في محاولة لإلتقاط أنفاسها الضائعة، ارتدت إسدال

الصلاة وخرجت إلى الشرفة بيدها كوب من الحليب البارد أملاً في إخماد شعلة صدرها، لم تكن تعلم أنه سيهيج حرقتها أكثر حتى أطلعت الطبيب في وقت لاحق.

قاومت الدموع لكنها أبت أن تبقى في محبسها فهطلت تريحها وترتاح، لقد مرت عليها الجلسة أصعب من سابقاتها تمنت خلالها العمل بنصيحة حياه وإخبار أحد بما تمر به، مع ذلك لم ولن تخبر أحد مهما عانت .. فهذا ليس ذنب سواها ليشاركها المعاناة كذلك ليس ذنبها .. عادت النقمة تملأ صدرها فلم هي ولما يحدث لها هي بعينها.

وُضعت يد على كتفها وصوت يتعجب من سهرها إلى تلك الساعة: إيه اللي موقفك في البلكونة دلوقتي يا نجلاء؟

كفكفت دموعها بسرعة شاكرة لضعف الإضاة حتى لا يستتشف بكاءها: أبداً، قلقت شوية فقولت أشرب كوباية لبن عشان أعرف أنام

تشكك: إنتي مش على طبيعتك بقالك فترة .. حصل حاجه ؟

سألته متوترة: لا هيكون فيا إيه يعني ؟؟

أومأ صامتاً، يعلم أن هناك ما تخفيه عنه منذ فترة فهو لا يعرفها منذ الأمس فقط لكنه أبى الضغط عليها وتركها حتى تأتي إليه تقصّ ما تمر به بإرادتها.

****

تململت في فراشها بضيق، حركت يديها في الهواء علها تبعد تلك الهمهمات التي تفسد عليها سباتها .. لكن بلا جدوى.

ركزت لتلتقط الكلمات جيداً لعلها تنتهي منها حتى تعود لنومها من جديد: يا بنتي كفاية نوم .. دا إنتي لو ما نمتيش بقالك سنتين كان زمانك صحيتي .. ع العموم إنتي حرة .. أنا عملت اللي عليا ولو فاتك الفجر حاضر مش ذنبي بقى

بمجرد أن إلتقطت أذناها كلمة "الفجر" حتى انتفضت وسألت بفزع: هو الفجر أذن ؟

اعتدل واقفاً: أيوه .. قولت أصحيكي قبل ما أروح المسجد مع الجماعة

نهضت من فراشها بينما غادر هو إلى المسجد، أدت فريضتها واستكانت على سجادة صلاتها تسبح وتذكر الله.

عاد بينما تُنهي تسبيحاتها، لمحت نظراته المتعلقة بها مما جعل الإحمرار يكسو خديها، اقتربت منه ونظرها لا يتزحزح عن موضع قدميها: أنا أسفة ..

نظر لها مندهشاً: بتتأسفي ليه ؟

هزت رأسها بحرج: عشان الكلام اللي قولته إمبارح ومعاملتي ليك .. ماكنتش أقصد صدقني

رفعت رأسها تنظر إليه بعيون تحمل براءة العالم داخلها، رأى الصدق والتوسل الحقيقي كي يغفر لها كلماتها .. تلك الكلمات التي لم تكن

لتعبر شفتيها سوى لخوفها عليه، أمن المعقول أن يكون ظلمها .. أنها ليست بتلك البشاعة التي ظنها، أنها مجرد ضحية من ضحايا وحوش زماننا .. لم يستطع أن يُبقي على غضبه من كلماتها أكثر فارتسمت إبتسامة مغفرة على شفتيه جعلت شفتيها تردها له أكثر جمالاً وحلاوة.

- شكراً

شرد في عذوبة صوتها ورقت همسها، قبل أن يتمتم ببلاهة: على إيه ؟

اتسعت ابتسامتها: عشان صحتني أصلي الفجر .. كان هيروح عليا لولاك .. مش عارفة ما سمعتش المنبه إزاي

- بس عادي .. إيه يعني لما يفوتك الفجر؟ .. ممكن تصليه صبح عادي

هزت رأسها بقوة: لا .. أنا أخدت عهد على نفسي إني أصلي كل فرض ف وقته مهما كان .. وبعدين صلاة الفجر ليها طعم تاني عكس لما أصليه صبح

أومأ بصمت، عادت للحديث: أنا هأنزل أساعد زهرة ف تحضير الفطار

أوقفها بسؤاله: أنا بقالي يومين هنا وما شوفتش البلد .. ممكن بعد الفطار تفرجيني عليها؟

قرعت طبول قلبها بسعادة وأومأت بفرحة: أكيد .. هتعجبك أوي أصلاً

تركها تركض بحبور تقفز على درجات السلم، كأنه أسمعها من الغزل ما يجعل القلب يهوي إلى القدم فيما تعجب هو من ذاته، لما عرض عليها ذلك فجأة دون تفكير؟؟

****

أغلق الدُرج متأففاً، نسى أين وضع الملف منذ يومين، فتح أحد أدرف خزانة الملابس وبحث بين طيات الأقمشة بلا جدوى ..

انتقل إلى درج طاولة الزينة لعله وضعه هناك في حين غفلة أو وضعته هناك نجلاء، فتش في الدرج بينما يُدخل ذراعه الأخرى في سترة البذلة .. وجد ظرفاً تعجب شكله وحجمه، أخرج محتواه ووضعه على طاولة الزينة بينما أمسك الظرف بين شفتيه محاولاً قراءة محتوى الأورق في نفس الوقت الذي يحارب لإدخال ذراعه الأخرى في السترة.

سقط الظرف من بين أسنانه وتشتت نظراته فوق سطور الكلمات، نادته نجلاء عدة مرات لكن ما من مجيب، وقفت على الباب مؤنبة: بقالي ساعة بأنده عليك .. يلا الفطار جاهـ ..

قطعت جملتها عندما تتبعت نظراته المسلطة على الأورق أمامه، نظر إليها وعينيه تلتمع بشدة هامساً: ليه خبيتي عليا ؟

بكت وانهارت أرضاً: ماكنتش عايزه أشيلك همي

دنى منها وعاونها على النهوض، أجلسها على طرف السرير وسحب مقعد طاولة الزينة وجلس أمامها .. يديه تحتوي كفيها، كاتماً دموعه سألها بصوت متهدج: عرفتي من إمتى؟

هزت كتفيها وبدأت تروي له كل ما مرت به، حتى ما تتسبب فيه الجلسات الكيميائية من أعراض جانبية وألم بالإضافة للحالة النفسية.

شعر أنه مكبل بالأصفاد ، هي تعاني وتتألم بينما ليس بيده شئ ليخفف عنها ، انضم إلى جوارها وضمها إلى صدره، غمرتها دموعه رغماً عنه وعنها.

****

سارا جنباً إلى جنب بعدما ترك حمزه السيارة التي استعارها من محمود على جانب الطريق، كانت حياه تشير له إلى هذا المكان أو ذاك .. تشرح له تاريخ محافظتها باستفاضة: إحنا دلوقتي في منطقة أبيدوس .. المنطقة دي ارتبطت بأسطورة إيزيس وأوزوريس وأكيد أنت عارفها

- أيوه .. هههه محسساني إني جيت من بطن أمي على هنا ما عدتش على مدارس خالص، يا بنتي أنا خريج فنون تطبيقية .. عارفه يعني إيه فنون تطبيقية ؟؟

- خلاص ما تزوقش بس.. المهم نرجع لموضوعنا.. أبيدوس دي كانت عاصمة مصر في عصر ما قبل الأسر والأسر الأربعة الأولى .. وكانت المركز الرئيسي لعبادة الإله أوزوريس وكان المصريين زمان بيحجوا ليها عشان يبكوا على الإله أوزوريس حارس الحياة الأبدية ..

بعد سير في المعالم الأثرية ومشاهدتها لأكثر من خمس ساعات .. جلسوا في أحد المطاعم يتناولون غداءهم .. سألها حمزه بُغتة وهما في إنتظار وصول الطعام: إنتي ليه لابسه على طول أسود من ساعة ما جينا ؟ .. والطرحة سودا .. حتى مافيهاش خرزة ملونة واحدة

ابتسمت ثم وضعت كأس الماء بعد أن روت عطشها: عشان ما أجرحش حد بلبسي

تعجب: وهتجرحي حد بلبسك إزاي ؟؟

عقدت كفيها على الطاولة أمامها ودنت منه قليلاً: بُص يا سيدي .. إحنا أغلب الناس في البلد اللي إحنا عايشين فيها على قد حالهم .. الموضة والأزياء لا يعرفوها ولا تعرفهم .. أنا وسلمى اللي هي صحبتي وجارتي .. درسنا ف القاهرة .. لما رجعنا لاحظنا الناس بتبعد عنا .. المهم وصلنا في الأخر أنهم افتكرونا عشان اتعلمنا وأخدنا شهادة هنتكبر عليهم .. شافوا إن لبسنا بيبقى زي تكبر عليهم وعلى بناتهم .. عشان كان بيبقى ملون وبأشكال وموضات مختلفة مع إنه ما يختلفش كتير عن اللبس اللي بتشوفني بيه .. وإحنا ما حبناش نضايقهم ولا نحسسهم أنهم أقل مننا مع إنه ممكن يكون العكس .. فبقينا بنلبس اللي على مزاجنا في البيت أو لما نبقى سوا لكن لما نخرج نلبس عباية سودا وطرحة سودا من غير أي حاجه.

تركزت نظراته أكثر على ملامح وجهها الطفولية، ارتسمت بسمة تفهم أخجلتها، وصل الطعام فانشغلت به .. لقد استهلك اليوم طاقتها فتركها جائعة كما لم تكن من قبل بينما حمزه يأكل بهدوء ليتسنى له مراقبتها قدر المستطاع.

سألها بينما يدعي إنشغاله بتقطيع الطعام وسألها كأنه سؤال عرضي لم يقصد شيئاً من وراءه: هو شادي دا .. عرفتيه إزاي؟؟

كانت على وشك الإختناق باللقيمة التي ابتلعتها وتوقفت في حنجرتها، سعلت فناولها كأس الماء وقد كسى البرود معالم وجهه، هذا كله حصل لها عندما سألها كيف قابلته إذا ما رد فعلها إن رأته أمامها.

بعد أن هدأت وجمعت شتات نفسها أجابته بهدوء افتقدته داخلياً: كان بيشتغل في موقع أثري مع علماء أثار .. المكان مش بعيد عن بيتنا .. كنت بأتمشى أنا وسلمى ف البلد وبعدين لما عرفنا أنه في حفر وعلماء قولنا نروح نتفرج .. قابلته هناك

حرك السكين بين أصبعيه بتوتر وسألها بلا مبالاة ظاهرية: حبيتيه ؟

زفرت بقوة: لا .. افتكرت إن دا حب .. بس ما كانش كدا

ابتسم بسخرية: يعني عشان اللي عمله معاكي غيرتي وجهة نظرك ؟

أصابته بنظراتها الحادة القوية: لا .. قبلها، بس مش بوقت كافي إني أرجع ف اللي عملته

صمت تماماً لما بقي من الوجبة وأثناء قيادته عائداً إلى منزل أهلها، كأن الحديث لم يتوقف لما يقرب من الساعة سألها مُهاجماً: ما دام عرفتي إنك مش بتحبيه، سلمتيه نفسك ليه ؟

نظرت إليه بغضب لكنها أجابته بهدوء: حتى لو كنت بأحبه ما كنتش هأسلمه نفسي .. إلا ف نطاق شرعي وهو الجواز

ألقى عليها نظرة عابرة قبل أن يعلق نظره بالطريق أمامه، سألها مجدداً باستهزاء: أومال إيه ؟ ... ساقكي حاجه أصفرا يعني ؟

التفتت إليه بكامل جسدها وصرخت بها منفعلة: لا .. ما سقانيش بحاجه أصفرا لأنه مش هيحتاجها ... لما يبقى فيه أربع رجاله قد الحيط واقفين على باب الفيلا من برا وممنوع حد يخرج غير بإذنه .. وإنه كل اللي ف البيت بيمشوا بأمره ولو عمل إيه مش هينطقوا .. هأهرب منه إزاي ولا هأروح فين ؟؟

صرح ببرود غاضب: بس في الأخر هربتي ..

- أه هربت .. عشان لما أخد مني اللي كنت هأهرب عشانه .. أداني الأمان ولو شوية وسمحلي أخرج تحت عين المراقبة .. أفتكر إني زي الباقي.. هاستسلم للأمر الواقع وأخضع لإرادته وطلباته .. بس مع أول فرصة قدرت أهرب .. هربت !

أكملت عندما توقفت السيارة قبل أن تندفع إلى خارجها: أنت قولت م الأول إننا أتجوزنا عشان أنت ترضي والدتك وتبعد عنك واحدة غير مرغوب فيها، وأنا عشان أهلي يسامحوني وينسوا اللي حصل .. إنما إنك تهاجمني وترفع عليا مدافع اللوم والعتاب فـ دا مش من تخصصك يا باشمهندس .. فاهم ؟؟

أغاظه حديثها فهي في نظره المخطئة، وحقه أن يهاجمها ويسئ إليها كما يشاء؛ فالمخطئ يتلقى اللوم دون تعليق حتى وإن كان ضحية للثعابين.

صف السيارة ونزل مهرولاً خلفها، اصطدم بأنس وسأله عن حياه: حياه لسه طالعة فوق دلوقتي .. هو حصل حاجه يا أبيه ؟

لم يرد وتابع تقدمه صاعداً إليها، كانت تحوم في الغرفة كـ لبوة محبوسة في قفص وتم حرمانها من الطعام لعدة أيام.

دخل كالإعصار وصفع الباب خلفه، أمسكها من ذراعها هادراً في وجهها: وليكي حق تتكلمي أصلاً ؟؟ .. وبعدين ما تنسيش إني جوزك يا هانم فاهمة ؟؟ .. يعني من حقي أعرف كل كبيرة وصغيرة ف حياتك

حاولت انتزاع ذراعها من بين يده القوية فيما تصرخ بوجهه: لا مش من حقك، إحنا كان بينا إتفاق .. أنت كنت عايز تتجوزني عشان مصلحتك وأنا كمان.. لكن مش أكتر من كدا .. وأي سؤال منك فيه تدخل ف حياتي مش مسموحلك بيه !

أسندها إلى الخزانة خلفها التي ارتجت من وقع جسدها، ومن بين أضراسه تمتم بقسوة: أنا اللي أقول إيه اللي مسموح بيه وإيه اللي لا..

لا تعرف كيف أو ماذا حدث حتى تحولت نبرة صوته إلى همس مُغري ناعم جعل الدم يتجمد في شرايينها: ماشي؟

سقط حجابها بعد أن حله دون أن تشعر متخللاً خصلاتها بأصابعه وظهر كفه الأخر يداعب بشرة وجهها المخملية، تابع بنعومة: تعرفي .. شعرك لايق عليك أوي ..

شد على شعرها حتى تأوهات بألم مغمضة عينيها: لولا إنك بتداريه تحت الطرحه أنا كنت شيلتهولك خالص .. عشان ماحدش يشوفه

أحست بأنفاسه تلفح وجهها وتتركز على ثغرها: نسيت أقولك .. إن من ضمن اللي هأسمح بيه لنفسي .. إني أخد حقوقي كزوج كاملة

أسر شفتيها بين شفتيه على حين غفلة، وقفت هي مستسلمة لما يفعل دون مقاومة، لما تقوم وهذا ما أرادته .. أردت أن تحيا معه حياة زوجية طبيعية دون أغراض أو مصالح.

تركها بعد فترة متراجعاً وقال بجدية حازمة: أنا اتفقت مع والدك .. إننا هنتجوز تاني وهنعمل فرح كبير لما نخلص تجهيز شقتنا .. عشان يبقى عندك علم

فتحت عينيها بتروي مرددة دون فهم: نتجوز ؟

ابتسم ساخراً: هو أنا ما قولتلكيش؟ .. مش أنا قررت إني أفضل متجوزك لأخر يوم في عمرك، وإن جوازنا هيبقى حقيقي ميه ف الميه .. بكل الحقوق والواجبات اللي عليا وعليكي

لمس خدها ضاحكاً قبل أن يغادر الغرفة، لكنه توقف قبل أن يغلق الباب خلفه، تأملها بعمق قائلاً مع غمزة من عينيه: بس هنأجل حقوقي وواجباتك لحد ما نعمل الفرح .. مبروك يا عروسة

تناولت وسادة من فوق السرير ورمتها على الباب بحنق ثم ارتمت على السرير وكل خلية من جسدها تنبض غيظاً .. لم تمر دقيقة قبل أن تضحك ملئ شدقيها: مجنون والله مجنون

تلمست شفتيها حيث قبلها وارتسمت ابتسامة حالمة عليها، ضمت إحدى الوسائد إلى قلبها: بس بحبك أعمل إيه بقى .. يا نصيبي يا حلالي

****

منذ يومين وهي لا تتحرك من غرفتها، لا تتحدث إلى أحد، فقط تأكل بضعة لقيمات بعد إلحاح شديد من جدتها التي في بعض الأحيان توشك على البكاء إليها متوسلة.

أخبرها بدر أنها أصيبت بصدمة نفسية شديدة سببت لها تلك الحالة وأنها سمعت ما لم يكن هيناً بالمرة، كانت الشكوك كلها تدور حول خليل الذي روى لها ما طلبته منه حنان ونتيجته، لم يكن به شئ يفعل بها ذلك .. إلا معرفة سبب ذلك السؤال وبعد مرور تلك الأعوام.

فكرت حنان في أن تكون مي مي هي ابنتها .. دائماً ما كانت تناديها بذلك وخليل أيضاً، لقد أنبتها جدتها وحذرتها أنها ستعاني بشدة عندما تدخل ميّ الحضانة فيصعب عليها حين ذاك أن تعلمها اسمها الحقيقي وليس اسم الدلال الذي تدعوها به، لكنها لم تهتم فهي تريد أن تدلل طفلتها إلى أقصى درجة.

أخذت حنان قرارها، ستنتظر عودة حياه وتحاول معرفة قصة مي مي فرغم تأكدها أن القلادة ليس لها شقيقة إلا أن حياة طفلة أكبر من هكذا دليل .. ستكتفي برؤية مي مي في المدرسة حتى إشعار أخر.

****

أصر فادي عليها بضرورة إخبار والديها، فهي ابنتهما في النهاية ومن حقهما معرفة أمر يمس حياتها.

رافقها هذه المرة إلى الجلسة، صدمها رؤية السيدة التي كانت تسكن في اليمن، لقد كانت سعيدة في أخر مرة مهللة بقرب شفاءها، لقد أخبرها الطبيب أن تقوم ببعض التحاليل ليتأكد من اختفاء المرض تماماً من رئتها .. إنها تدخل الآن على كرسي متحرك والتعب قد نال من ملامحها، اندفعت إليها متسائلة عما بها ..

ابتسمت المرأة: فجأة ما بقتش قادرة أقف على رجلي وبقيت مش قادرة أتوازن ..

أضافت بهدوء شديد: المرض اتنقل للنخاع الشوكي .. حكم عليا أقعد ف الكرسي دا

اهتز شفتي نجلاء بشدة ولمعت الدموع في عينيها، قلبها تمزق إرباً لما حدث مع هذه المرأة الطيبة، لما يحدث ذلك معهم.

لم تدري أنها نطقت ذلك بصوت عالٍ حتى سمعت إجابة المرأة وهي تبتسم: ما هو يا بنتي لو كل واحد قال إشمعنه أنا .. ماحدش فينا هيعيا ولا يحصله حاجه .. أكيد ربنا له حكمة ف كدا .. لو ما عرفتهاش دلوقتي .. مسيري هأعرفها .. سواء هنا في الدنيا ..

أشارت بسبابتها إلى الأعلى مضيفة: أو حتى ف الأخرة

فكرت نجلاء في كلامها، لم تتحدث مع زوجها طوال الطريق وحتى عندما وصلوا إلى بيتهم كذلك، تفهم هو سبب انشغال أفكارها وتركها لحالها فهي يجب أن تتقبل ابتلاء اللّه –عز وجل- مهما كان صعباً عليها تقبله.

وقفت في الشرفة كعادتها حينما يسحبها التفكير، لقد قالت المرأة أن هناك حكمة إلهيه فيما يحدث .. ليس في مرضها فحسب لكن في كل الأمور التي تحدث لها حتى أتفه الأشياء من وجهة نظرها .. لقد ظنت أن حرمانها من الإنجاب هو نقمة لكن تراه الآن نعمة .. في حالتها هذه بالكاد تهتم بنفسها فكيف إن كان لها طفل يتطلب المتابعة الدائمة في كل لحظة.

لقد رأت أن غياب فادي في عمله أكبر مشاكلها وأشدها إثارة لغضبها لكن بعد معرفتها لمرضها كانت تحمد اللّه على ذلك حتى لا يراها حالما تعود من جلسة علاجها وكيف تكون شاحبة ذابلة.

إنها رأت العديد من الأمور نقمة لتجدها في وقتٍ لاحق نعمة، إن منظور المرء للأمور يختلف على حسب حالته النفسية وقت حدوثها وما يمر به وقتها، بكت بشدة لسوء ظنها بربها، لقد أساءت إليه بشدة.

لمحها فادي تبكي فانضم إليها شاعراً أن ما قضته مع أفكارها حتى الآن هو كافٍ، ضمها إلى أحضانه مُخففاً عنها، تمتمت من بين دموعها وشهقاتها: أنا أساءت لربنا أووي يا فادي .. بدل ما أقول الحمدللّه وإنه فيه غيري

كتير يمكن عذابهم أكبر ومرضى أكتر مني أو مش لاقيين علاج حتى .. كنت بأقول إشمعنه أنا

ربت على كتفها بحب: بس أديكي عرفتي غلطك وخلاص .. ربنا غفور رحيم يا حبيبتي

هزت رأسها بشدة وهي ما تزال ساندة إياها على كتفه: بس أنا مش مرتاحة

- عارفه إيه اللي هيريحك ؟؟

رفعت رأسها مسرعة: إيه ؟؟

كفكف دموعها: إنك تروحي تتوضي وتصلي .. اقعدي أقري قرآن واستغفري ربنا كتير واحمديه أكتر .. وقتها هترتاحي وتحسي إنه سامحك

تبادلت معه النظرات ثم هزت رأسها: معاك حق

دفعها إلى الداخل: طب يلا روحي أتوضي .. مستنيه إيه ؟؟

نظرت إليه بحب وارتمت بين ذراعيه: أنت أصلاً أكبر نعمة من ربنا، أي راجل غيرك كان زمانه ساب مراته بعد ما عرف المرض اللي عندها وكمان مش بتخلف ..

أمسك ذقنها بين أصبعيه: ما تفكريش في الكلام دا .. أنا عمري ما هأسيبك .. لإنك روحي .. حد يقدر يعيش من غير روحه بردو ؟؟

ابتسمت بسعادة: أنا بحبك أوي

حملها بين ذراعيه ودار بها في أنحاء الغرفة صارخاً بقوة: وأنا بموت فيكي .. بأعشـــــقك

ضمت يديها حول عنقه ضاحكة، لقد ظنت لفترة أن حبه لها أنتهى لكنها الآن تدرك أنه إزداد .. فالحب الحقيقي لا تضعفه الأيام بل تقويه الصعوبات والابتلاءات.

****

وقفت أمام المحل تختار من بين العديد من الأنواع ما تحبه وحمزه يتأملها صامتاً، لقد ملأت كيساً كاملاً حتى الآن ولم تفرغ بعد، تنهد: يا ابنتي ما تخلصي .. مش كفايه اللي ف إيدك ؟؟ .. هتلحقي تاكلي دا كله إمتى بس ؟؟

نظرت إليه بضيق: دا على أساس إني هأكلهم لوحدي يعني ؟؟ .. يا عم استنى الطريق طويل والواحد لازم يعمل إحتياطه ف الحاجات اللي هيتسلى بيها

ربت أنس على كتفه ضاحكاً: ما تحاولش .. مش تقف غير لما تفضي المحل كله

ألقت حياه لوح من الشوكولاته على أخيها قائلة: كُل دي وأسكت !

فعل كما طلبت مستمتعاً بالنوع المفضل لديه، أخيراً وقفت باسمة: خلاص خلصت .. حاسب بقى

زفر محاولاً إخفاء بسمته: أشهد أن لا إله إلا اللّه ..

وضعت يدها على خصرها قائلة بحنق: بكره تُشكرني يا اسمك إيه

أمسك يدها بقسوه وأسقطها عن خصرها قائلاً بلهجة ترفض النقاش: اتعدلي وإنتي واقفة .. ما تنسيش إننا ف وسط الناس .. والحركة اللي عملتيها دي ما تتكررش تاني .. الهدوم بتلزق عليكي وتبين شكل جسمك .. ودا ماينفعش ولا إيه ؟

نظرت أرضاً مُهمهمة: أسفة .. مش هأعمل كدا تاني

أحس أنه يقف أمام طفلة أنبها والدها بسبب فعل لا يليق، ابتسم بحب وحنان دانياً منها يهمس في أذنيه بخبث: بس ما عنديش مانع لما نبقى في أوضتنا لوحدنا تعمليها

أزداد أحمرار وجنتيها مما جعله تضربه على كتفه: بس يا قليل الأدب

ضحك مقهقهاً لرد فعل بينما اكتفت هي بالإبتسام، تنحنح أنس: القطر وصل .. لما تروحوا أبقوا هزروا براحتكوا .. راعوا مشاعر السناجل اللي زيي

بعثر حمزه شعر أنس بقوة: طب أبقى سلملنا على كل اللي ف البيت يا عم السنجل

صعدا إلى القطار، وكانت حياه تودع شقيقها بيد والأخرى تكفكف دموعها، مسح حمزه دموعها بيده: خلاص بقى كفايه عياط

شهقت حياه: أصلهم هيوحشوني أوي

- هأبقى أجيبك تاني تزوريهم وهما هيجوا .. مش شوفتي وعد باباكي إنه هيجي يزورنا أول ما نجهز شقتنا؟ .. واللّه لولا صوت ماما اللي قلقني ف التليفون كنا قعدنا يومين كمان

مسحت أنفها بالمنديل لكن صوتها ما زال يُنبأ بالبكاء: طيب

همس بنبرة ماكرة: افتكري إنك إنتي اللي بتحرضيني ..

تلفت حولها ليتأكد أن لا أحد ينتبه لهما ثم طبع قبلة خاطفة على وجنتها، شهقت بفزع: إيه اللي أنت عملته دا؟

لاحظ إلتفات جميع ركاب القاطرة إليهما فوضع يده على شفتيها هامساً: يا بنتي اسكتي فضحتينا هو أنا غررت بيكي ولا حاجه .. دا إنتي مراتي يا متخلفة !

وضعت يدها في خصرها ونظرت له بغضب: أنا بردو متخلفة يا باشمهندس ؟؟

دفع يدها بعنف لتسقط عن خصرها وضاقت نظراته التي يتطاير منها الغضب: وستين متخلفة .. مش قولت إيدك ما تتحطش على وسطك ؟ .. ولا هي قلت أدب وخلاص

رأى الندم على وجهها والحزن في عيونها التي لمعت منذرة بتجدد البكاء، فمال عليها بحب مُدعياً أنه يعيد ضبط حجابها وهمس في أذنها: بس أحلى متخلفة شافتها عينيا

نظرت إليه ببعض الضيق فأضاف غامزاً: دا أنا اللي متخلف وألفين متخلف كمان إني قولت للقمر دا كلمة ضايقته

أشرقت بسمتها المضيئة فعلق هائماً: خلاص أنا هأشتم نفسي مرة قبل الأكل ومرة بعد الأكل عشان أشوف الضحكة العسل دي يا عسل

لمح اتساع حدقتيها مصاحباً لقبضة تمسك بكتفه، إلتفت إلى الوراء ليجد عامل القطار ينظر إليه شذراً قائلاً: التذاكر يا أستاذ

تنهد حمزه بضيق وسلمه التذكرتين، بعد أن فحصهما الرجل بدقة أمره: يا ريت تقعد عدل يا حضرت وتلم نفسك .. اللي يشوف شكلك وأنت باين عليك محترم كدا ما يشوفش تصرفاتك

صدمه هجوم الرجل عليه: تصرفات إيه ؟؟ .. دي مراتي !

ابتسم الرجل بسخرية: أومال صرخت ليه لما قربت عليها ؟

- عادي .. بتتكسف

نظر الرجل إلى كفها الموضوع فوق فخذها قائلاً: وفين الدبلة ما دام مراتك ؟

لم يدري بما يجيب فألقى عليه الرجل جملة أخيرة قبل أن ينصرف: أقعد بأدبك أحسنلك يا أخ

تجهم وجه حمزه، ولم تدري حياه بما تخفف عنه فالتزمت الصمت لما بقي من الوقت حتى أنها فقدت الشهية لتناول كل ما قامت بشراءه.

****

فتح باب منزل والديه ودلف إلى الداخل حيث حياه تلحق به في صمت استمر طويلاً، حالما رأته والدته أغلقت مصحفها وركضت تضمه باكية .. كأنه القشة الأخيرة التي فجرت آبار دموعها المكبوتة.

ضحك حمزه مشدداً أحضانه حولها: أنا كنت مسافر أه بس مش للدرجة دي يا ماما .. المفروض إنك متعودة على سفري دا

تقدم منهما والده موضحاً: ما هو مش عشانك أنت خصوصاً بس هي جت فيك

ربت على كتف زوجته: اهدي يا سمية مش كدا .. هتقلقي الولاد عليكي

جملته الأخيرة أضافها عندما لاحظ نظرت الخوف والتوتر في عيون حمزه وحياه، اقتربت حياه من حماتها تدعمها: مالك بس يا ماما سمية .. إيه اللي مزعلك ؟

أجهشت سمية في البكاء أكثر وأكثر مما جعل حمزه يبدأ في فقدان السيطرة على أعصابه، اقترب منها وأمسكها بقوة سائلاً بقسوة ونبرة لا تقبل إلا إجابة شافية: إيه اللي جرا؟

أخفت والدته وجهها خلف كفيها: نجلاء يا حمزة .. نجلاء

قست قبضته أكثر متمتماً من بين أضراسه: مالها ؟؟

- عندها الكانسر يا حمزه .. أختك جالها المرض الوحش

لم يستوعب ما قالته والدتها قبل هنية .. أدار رأسه ينظر إلى والده علَّه ينفي قول أمه لكنه بالعكس تماماً أكده والحزن مستقر بقاع حدقتيه .. دخل في دوامة من الأفكار والتخيلات .. تخيل حالة أخته الآن ونفسيتها .. لقد كانت تقيم الدنيا ولا تقعدها عند إصابتها بشكة دبوس أثناء إرتدائها الحجاب فما بال رد فعلها الآن ؟؟

لم يفق إلا عندما تجاوزته حياه مسرعة لتلحق جسد الأم المتهالك، أمسك أحمد زوجته فزعاً من مرأى زوجته تفقد وعيها، عادت سرعة البديهة إلى حمزه فأخذ مكان زوجته صارخاً فيها بقوة: روحي اطلبي الدكتور بسرعة

أضاف عند رؤيته لمي مي تحاول الإختباء خلف الجدار باكية: وخدي مي مي على أوضتها

جرت حياه تخرج الهاتف من حقيبتها ثم حملت مي مي على ذراعها الأخر متجهة إلى غرفتها، طلبت من الطبيب أن يسرع بالقدوم شارحة الوضع بإختصار.

أنهت المكالمة بتوتر لتجد مي مي منكمشة في أحد الأركان باكية بحرقة، ركعت إلى جوارها تجذبها إليها حتى تستكين بين ضلوعها: هي كويسة ما تخافيش، تعبت شوية بس والدكتور ف الطريق هيديها حاجه تخليها أحسن

تعلقت بها الطفلة: هي على طول بتعيط من ساعة ما سافرتوا .. ما تسفروش تاني يا حياه لا إنتي ولا أبيه حمزه عشان ما تزعلش تاني

ارتسمت إبتسامة مرغمة على ثغر حياه كرد فعل على براءة الصغيرة وملائكيتها، شددت ضمها إليها: ما تخافيش هي هتبقى كويسه وإحنا مش هنروح ف حته

ارتفع رنين الجرس أسرعت حياه تفتحه لكن حمزه كان قد سبقها مُستقبلاً الطبيب ثم وجهه إلى الغرفة التي ترقد بها والدته غائبة عن الوعي، أصطحبت حياه الطفلة معها إلى المطبخ تُعد عصير الليمون لها وللبقية بينما عقلها منشغل في التساءل عما وصلت إليه حالة نجلاء الآن كذلك الدعاء لوالدة حمزه بالشفاء والصبر على هذا البلاء.

****

وقفت بجوار طاولة الطعام تفرغ بقاياه في طبق واحد وترص الصحون الفارغة فوق بعضها ليسهل عليها نقلها إلى المطبخ، عقلها مازال منشغلاً في موضوع القلادة وابنتها الضائعة في حين يديها تقوم بالعمل أوتومتيكياً.

إلتفتت إليها جدتها متسائلة بعد أن أزاحت عيونها عن شاشة التلفاز المضيئة أمامها في عرض لأحد البرامج التي تداوم على متابعتها: يا بنتي الباب بيضرب بقاله ساعة مش ناوية تفتحي ولا إيه ؟

سألتها متعجبة: هو بيرن أصلاً ؟

حدقت بها جدتها: سلامة سمعك يا حنان .. روحي افتحي الباب ربنا يهديكي

تنهدت حنان بقوة وذهبت تفتح الباب لتجد أمامها منظر لم تكن تتخيل يوماً أن ترى فتاة به، ذلك جعلها تفتح فمها على إتساعه غير مدركة لأسئلة جدتها عن هوية الطارق.

****

تقدمت حياه تحمل كؤوس العصير .. تناولها لوالد زوجها أولاً يليه حمزه، تناولوه منها بلا روح كأنهم مسيرين، سألتهم قلقة: الدكتور قال إيه ؟

أجابها أحمد: إنهيار عصبي بسبب الضغط النفسي اللي هي فيه .. أداها حقنة مهدئة ونامت

تنهدت بشبه راحة، سألها حموها: مي مي فين؟

- نعست من كتر العياط

زفر أحمد: طب الحمدللّه .. عشان ما تعملش دوشة وتخلي سمية تنام أحسن

انسحب حمزه بصمت ودلف إلى غرفته، تبعته نظرات حياه المشفقة وهي تفكر في مشاعره الآن حيث والدته وشقيقته على فراش المرض، ترددت أتنهض وتتبعه أم تظل حيث هي تتابعه من بعيد وتتركه يفكربمفرده.

أخرجها من حيرتها حموها قائلاً بتشجيع وإبتسامة حنونة: روحي وراه .. ما تسبهوش لوحده

أضاف رافعاً كأسه: وتسلم إيدك ع العصير .. هأشربه وادخل ارتاح أنا كمان

أومأت باسمة واتجهت إلى الغرفة حيث يجلس حمزه ضاغطاً رأسه بين كفيه ومرفقيه يستندان على ركبتيه، أضاءت النور وجلست إلى جواره على الأريكة في صمت لا تدري ماذا تقول أو كيف تواسيه وتخفف عنه.

- أنا مقدرة خوفك على أختك بس لعله خير .. أكيد ربنا له حكمة ف مرضها

حك فروة رأسه بقسوة: مش قادر أتخيل إنها ممكن تموت وما أشوفهاش تاني .. مش قادر

دنت منه: كلنا هنموت ف يوم من الأيام .. ماحدش فينا مُخلد .. الفرق طريقة الموت .. فيه اللي بيموت ف حادثة عربية واللي بيموت محروق .. اللي بينتحر .. اللي بيتثبت وهو راجع بيته بعد ما قبض مرتبه عشان بداية شهر جديد وهيسدد ديونه وبطعنة سكين ينهوا حياته .. اللي بيموت بمرض واللي بينام وما يجيش عليه نهار وهو حي ..

تنهدت قبل أن تضيف بأسى: واللي بيموت ف أقذر مكان وهو بيعمل أكبر الكبائر عشان ماقدرش يقاوم وفقد الثقة في النجاة

نظر إليه يتأمل كلماتها فيما أكملت باسمة بهدوء: وأنا مش بعيد أموت قبلها كمان حتى لو ماعنديش كانسر ..

توقفت عن الحديث فقد جذبها حمزه يحتويها بين ضلوعها ويخفيها بين طياته .. مبخراً كل الحديث التالي الذي قضى على بقايا أشلاء قلبه المكلوم، دفن وجهه في عنقها يشتم رائحتها المارة عبر النسيج الخاص بالحجاب.

- ما تقوليش كدا .. لا إنتي ولا هي هيحصلكوا حاجه وأنا موجود

أبعدته عنها لكنها ندمت على ذلك عندما حرمت من دفء حضنه: كل واحد مكتوبله الساعة اللي هيموت فيها بس ف النهاية كلنا هنموت .. الموت مش وحش أوي كدا .. بالعكس دا يمكن يكون راحه مقابل عذاب كتير ف الحياة

تنهد بقوة مخرجاً كل ما يعتمر بداخله: لازم أشوف نجلاء وأعرف حالتها إيه بالظبط وتقبلها للوضع دا إزاي

تسرعت حياه قائلة بإبتسامة: ما تخافش عليها فادي معاها ومش سايبها .. ربنا يخليهم لبعض، وبدأت تتقبل مرضها، بدل ما كانت ناقمة على اللي هي فيه ومش راضيه عنه

ضيق عينيه ونظر إليه بترقب: وإنتي عرفتي منين كل دا ؟

أجفلت حياه، ابتلعت ريقها بصعوبة مقررة أن تخبره بالحقيقة: أصل .. أصل أنا كلمت نجلاء إمبارح أطمن عليها وحكتلي

انتفض واقفاً ونظراته النارية تصعقها: وإنتي كنتي عارفه بمرضها ؟؟

اخترقت أذنيها نبرته الغاضبة وطلته عليها من فوق زادت ذعرها وانكماشها، همهمت: أيوه

هدر: ومن إمتى وإنتي عارفه يا هانم ؟!

نظرت أرضاً: من بعد ما عرفت على طول .. كنت أول حد تقوله

هم أن يصفعها لكن إخفاءها لوجهها خلف ذراعيها المتعامدين جعله يقبض على يده بشدة ويغادر الغرفة صافعاً الباب خلفه.

سمعت إغلاق باب الشقة الرئيسي فنهضت تنظر عبر النافذة، وجدته يصعد إلى سيارته وينطلق بها بأعلى سرعة مندفعاً بين شوارع المحروسة الصاخبة دون أن يحدد وجهته.

انهارت باكية تتشبث بالستائر، لم تدم سعادتها سوى فترة وجيزة حتى عادت التعاسة تحتل حياتها من جديد، إنها كالضيف ثقيل الظل الذي يفرض وجوده على صاحب الدار.

****

ضمتها حياه بقوة وشوق، لم تصدق أذنيها عندما حادثتها حنان تخبر بالضيفة التي بإنتظارها في منزلها، حاولت الإتصال بحمزه لكنه لم يجب ثم أغلق هاتفه نهائياً، وجدت بقية من في المنزل يغطون في سبات عميق

فاكتفت بكتابة ورقة وضعتها على الطاولة بجوار باب الشقة تخبرهم فيها أنها ذهبت لحنان ولن تتأخر.

ضحكت حنان: أنا هأروح أعملكوا كوبيتين عصير عقبال ما تخلصوا اللقاء العاطفي دا

تركتهم حنان وانسحبت بينما جلستا متجاورتين، أمسكت حياه بيدها وهي تسألها: عرفتي تهربي إزاي ؟؟

تنهدت فتون: البوليس هجم على الفندق اللي كنا فيه أخر مرة .. مش عارفه مين اللي بلغ أو عرفوا إزاي لأنه دي كانت أول مرة نروح هناك وأكيد المكان مش مشبوه .. قدرت أهرب وفضلت أجري لحد ما حسيت إني بقيت ف أمان .. ولحسن حظي كنت بأخلي الورقة اللي ادتيهالي معايا على طول .. عقبال بقى ما قدرت أوصل لهنا مشي كانت عدت ساعات كتير

- طيب و.. شادي؟ قبضوا عليه؟؟

هزت كتفيها: مش عارفه، أنا كنت مشغولة إني أهرب لكن ما أعرفش هو وكريمة والكام بنت التانين اتمسكوا ولا لا

تعجبت: كريمة مين ؟؟

ضحكت ببؤس: دي البضاعة الجديدة، بعد ما هربتي إنتي ونيفين .. شادي قدر يعلقها زينا

تنهدت بحسرة، حضرت حنان ضاحكة: ومعاك إتنين عصير وصلحه

شاركتها الفتاتين الضحك، جلسن سوياً يتسامرن قليلاً قبل أن تسأل حياه: وناوية تعملي إيه دلوقتي ؟

نظرت فتون بعيداً: مش عارفة ..

طمأنتها حنان: إنتي خليكي هنا معايا لحد ما تعرفي عايزه تعملي إيه ف حياتك

هزت فتون رأسها بقوة: لا لا، أنا بس جيت عشان أطمن على حياه وأشوفها وبعد كدا أمشي

أمرتها حنان بنبرة لا تقبل المناقشة: خلاص أنا قررت وإنتي مالكيش خروج من هنا

تنهدت فتون: بس ..

ربتت حنان على كتفها: خلاص بقى إنتي هتنوريني هنا يا فوفو

أضافت: إنتي صحيح دراستك إيه؟

أجابتها بخجل: كنت معهد تمريض ..

حنان: ومالك بتقوليها وإنتي مكسوفه كدا ؟ .. دا إنتي حتى ملاك رحمة

غمزتها حياه: أيوه بقى ملاك بس قمر

ضحكت فتون، دامت جلستهم سوياً لمدة ليست بالقصيرة حتى تثاءبت فتون ناعسة فما مرت به ليس بالهين، رافقتها حنان إلى الغرفة وعادت لتجد حياه تجمع أغراضها لتذهب.

اعتذرت لها حياه: معلش يا حنان أدتها عنوانك .. لأني ماكنتش عارفه هأقعد فين ولا بيتي ف أنهي حته .. كنت حاسه إن هيجيلها الوقت وتهرب لأنه المكان دا مش مناسب ليها

ابتسمت حنان: بالعكس يا حبيبتي دا شئ يسعدني، كفايه إنك هتديني الفرصة إني أساعدها إنها تبني حياتها من جديد .. بيتي مفتوحلها ولأي حد عايز يمشي ف الطريق الصح

ضمتها حياه: ربنا يجزيكي خير

أبعدتها حنان وهي تنظر لها بقوة: بس إنتي فيكي حاجه مش طبيعية إنهارده

توترت حياه وهربت بنظرها بعيداً: لا أبداً، تلاقيه تأثير السفر بس

حركت سبابتها: لا، إنتي عينيك كان شكلها معيط لما جيتي .. بتخبي إيه عني يا حياه؟

تنهدت حياه بعمق وتجمعت الدموع بعيونها مرة أخرى، روت لصديقتها كل ما حدث علها تجد لديها المنفذ أو ما يثبت لها أنها لم تخطئ.

أنبتها حنان: إنتي اللي غلطانه

فغرت فهها: أنا ؟؟

ضحكت حنان لمظهرها: أيوه، أولاً عشان دا جوزك وما ينفعش تخبي عنه حاجه

تمتمت حياه بوجنتين حمراوتين: بس إنتي عارفه إنه جوازنا مش طبيعي

غمزتها حنان: ما إنتي لسه ما سمعتيش ثانياً

أضافت بجدية مصطنعة: طالما مش هتقدري تخبي إنك مخبية يبقى ما تخبيش أساساً !

ضحكت حياه على كلماتها وعلى جديتها المفرطة، شاركتها حنان الضحك قليلاً ثم سألتها: وأخبار مي مي إيه ؟ زمانها مضايقه عشان مامتها أوي

تنهدت حياه: لو تشوفيه فضلت تعيط قد إيه لحد ما نامت م التعب

تمزق قلب حنان من مجرد تخيلها لمنظر الطلفة الباكي: بس صحيح.. مش غريبة إنه واحدة في سن مدام سمية تجيب واحدة صغيرة زي مي مي ؟

هزت كتفيها: لا عادي، بس هي أصلاً ..

قطعت حديثها فجأة مدركة أن ما كانت ستنطقه يتعدى نطاق صلاحيتها، حثتها حنان على المتابعة لكنها رفضت قائلة باعتذار: مش هأقدر أقولك سامحيني، ماما سمية أمنتني ع الكلام دا أول يوم كنت مع مي مي فيه وما قالتهوليش غير عشان أقدر أتعامل مع مي مي بطريقة صح

أومأت حنان بيأس لكن هناك .. داخل عقلها كما قلبها إزداد الشك، انصرفت حياه وتركتها لتكهناتها.

****

تسلق سور يحيط بأحد البنايات المهجورة ثم هبط في الجهة الأخرى واقعاً على قدميه كأحد المحترفين، ركض بعد ذلك مسرعاً حتى صعد إلى طابق متوسط ليس بالأخير فيسهل اقتناصه وليس بالمنخفض يسهل على الحيوانات والحشرات الإنقضاض عليه، فكلما ارتفع الطابق كلما قلت الفئران والحشرات كما تتاح له مراقبة ما حوله إلى حد ما.

جمع بقايا أخشاب متكسرة هنا وهناك أشعلها عن طريق حك خشبتين معاً كما يفعل الكشافة فتلك لم تكن المرة الأولى له في العيش بهذة الوسيلة.

انكمش حول النار، ينفث أنفاسه بين يديها أملاً في إنبعاث الدفء عبر أوصاله لكن بمجرد الإنغماس في أفكاره الشيطانية التي تدور برأسه نسي البرد والصقيع .. وذلك الخراب الماكث فيه.

- وراكوا وراكوا .. هأخد كل واحد كان السبب في اللي أنا فيه دا وهيدوق اللي عمره ما داقه .. الصبر حلو.

****

عاد حمزه متأخراً فلم يعلم بخروج حياه وعودتها، أتجه إلى الغرفة ولم يجدها، بحث عنها حتى وجدها تتطعم مي مي في المطبخ كان سيغادر بهدوء لكن مي مي لمحته وابتسمت له ببراءة: أبيه حمزه

ادعى أنه أتى ليروي عطشه، فتح الثلاجة وأخرج دورق مياه كما سحب كأس يملؤه، تابعته حياه وسألته: أنا اتصلت بيك بس أنت ما ردتش

هز كتفيه بلا مبالاة: ما سمعتش

عادت تسأله: بس لما جيت أتصل تاني أداني مغلق

بنفس النبرة: يمكن فصل شحن

انصرف وتركها متجهاً إلى الغرفة، جلست مع مي مي حتى غطت في النوم من جديد قبل أن تتوجه إلى غرفتها لترتاح هي الأخرى فقد كان يوماً طويلاً وشاقاً.

دخلت إلى الغرفة وسمعت صوت صنبور المياه في الحمام فعلمت أن حمزه يأخذ حماماً، تنهدت وبدلت ملابسها وقبل أن تصعد إلى فراشها لمحت هاتفه على طاولة الزينة، ترددت لكنها حزمت أمرها .. تناولت الهاتف وألقت نظرة عليه لتكتشف أن شحنه يحتوي على ثلاث شرطات .. إذاً لم يكن قد أنتهى شحنه كما برر.

أعادته مكانه وصعدت إلى السرير تبكي بحرقة، لقد أخطأت وتلصصت على هاتفه وهذه هي النتيجة عوضاً عن النوم براحة ستنام باكية حزينة، لو تثق به قليلاً تلك الثقة العمياء التي أعتادتها قبلاً.

خرج بعد دقيقة من الحمام، ألقى على ظهرها الموجه ناحيته نظرة طويلة قبل أن ينضم إليها مطفئاً الضوء لتعم الظلمة جميع أرجاء الغرفة وتكتم هي شهقاتها بين ثنايا أنسجة الوسادة.

****

استيقظت متأخرة بعد أن أضناها النوم المتقطع، نظرت إلى جوارها وابتسمت بسخرية، لقد رحل حتى دون أن يودعها كأنها ليست له بزوجة، إلى متى ستظل معاملته لها بتلك الطريقة وهذا الجفاء، إنها مقاطعها منذ عشرة أيام.

نهضت واغتسلت قبل أن تذهب تطمئن عن حماتها وتعطيها دواءها، كادت تصطدم بأحمد أثناء خروجه من الغرفة، أوشكت على الحديث لكنه أشار إليه بالهدوء والصمت معللاً بعد إحكامه غلق الباب: لسه رايحه في النوم دلوقتي

- بس دواها

ربت على كتفها بحنان: ما تقلقيش، أدتهولها

ثم أضاف متخابثاً: وإنتي كمان شكلك عايزة تنامي

تهربت من نظراته منسحبة: هأروح ابدأ أجهز الغدا .. عن إذنك

تنهد لكنه تركها، وضعها مع حمزه غير مستقر منذ عادا من تلك السفرة، لم يرد التدخل في حياتهما ظناً منه أنهما سارا أكثر تعقلاً

وتحملاً للمسئولية حتى يحلان سوياً مشاكلهما الزوجية لكن يبدو أنه أخطأ في ذلك.

****

مسحت على مكان دخول الحقنة بقطنة ثم كررت العملية بعد خروجها بسلاسة دون أن تسبب أي وجع للمريض، قامت بإلقاء الحقنة بعد الاستخدام في السلة المخصصة لها وهي تبتسم للمريض إبتسامتها الصافية: بالشفا يا حاج

أجابها الرجل الستيني: ما شاء اللّه عليكي يا بنتي إيدك بلسم، دخلت وخرجت من غير ما أحس

اتسعت إبتسامتها واكتفت بذلك كإجابة، رأت لمعان عيونه ونظراته المصوبة إلى نقطة ما خلفها تلاها بوصلات من المديح منقطع النظير، إلتفتت لترى مع من يتحدث ولمحت الطبيب يبتسم سعيداً برأي مريضه.

- بجد يا دكتور كان فينها من زمان !، أنا بقيت أخد الحقنة وأنا مطمن

ثم أضاف متذمراً: مش التانية اللي بتدي الحقنة ف لوح خشب !

ضحك الطبيب بدر: معلش أنت استحملت معانا كتير

نظر إلى فتون: وربنا رحمك وجزاك خير على صبرك كمان

رحل الرجل والرضا يعلو وجهه فمنذ عملت فتون ممرضة في عيادة الطبيب بدر وهو لا يتعرض لعواقب أخذه للحنقة وتابعتها من آلام تقض مضجعه.

وضع بدر يديه في معطفه الأبيض والسماعة الطبية تحيط عنقه: يظهر إنه إيدك خفيفة فعلاً الكل بيشكر فيكي، حتى الحاج رمضان اللي ما بيعجبوش العجب

هزت كتفيها ونظرت أرضاً بخجل: دا شغلي يا دكتور، المهم أكون عند حسن ظن حضرتك

أكملت: هأروح دلوقتي أجيب نادر من المدرسة، تأمرني بأي حاجه تانية قبل ما أمشي؟

هز رأسه واستدر لكنه قبل أن يغادرها: ابقي فكريني أشكر حنان على ترشيحها ليكي، بجد عملت فيا جميل مش هأنساه أبداً

شعرت بالسعادة حقاً، لقد ظنت أن حياتها أنتهت بعد ممارستها لأحد الكبائر وأن غضب الله سيحاوطها مغلقاً كل الأبواب حولها، لكن حنان وجدتها لم يتركاها تقع في قاع أفكارها السوداء بالعكس شجعوها وأعطوها الأمل، فما من أحد كامل ولا خالٍ من العيوب، دائماً وأبداً ستبقى أبواب الرحمة والمغفرة مفتوحة أمام من طلب التوبة في أي وقت.

لحسن حظها أن الطبيب بدر كان يبحث عن ممرضة بدل التي كانت تعمل لديه لأنها قررت التقاعد مبكراً لكبر سنها وعدم قدرتها على تلبية احتياجاته كطبيب، رشحتها حنان لتلك الوظيفة مادحة فيها لا تقول عنها سوى قصائد المدح رغم عدم علمها سواء إجادة ذلك العمل أم لا، لكنها بكلامها ذاك شعرت بالتشجيع وأنه يجب عليها أن تثبت مهارتها ولا تسئ لماء وجه حنان .. من وثقت بها وساندتها.

عدلت من ملابسها بعد أن نزعت زي التمريض، تنهدت براحة فهي الآن لا ترتدي سوى ما هو محتشم، لقد كرهت نفسها وجسدها، لم تعد تتحمل أن يظهر منها إلا كفيها ووجهها بالإضافة إلى شعرها.

تناولت حقيبتها ملقية نظرة أخيرة على العيادة لتتأكد من أن كل شئ في محله وأنها تركت المكان على أكمل وجه، أطفأت الضوء وأغلقت الباب خلفها تاركة الطبيب يسبح بين أبحاثه ودراساته حتى عودتها مع ملاكه.

****

ضمت كفيها سوياً وهي تقف إلى جانب مكان حارس المدرسة في إنتظار خروج الطلاب، لقد طلب منها أحمد أن تذهب لإحضار مي مي فهو لا يشعر بأنه على ما يرام ليذهب كذلك حمزه لديه الكثير من الأعمال يتوجب عليه إنهاءها، جعلها تقبل وتنصاع لرغبته، وإن كانت نفسها تنفر من الخروج أو رؤية أحد.

دق الجرس أخيراً معلناً موعد الإنصرف، رغم عدم مرور عشر دقائق على وقوفها إلا أنها شعرت بأنهم عشر سنوات، خرجت مي مي وكفها يتشبث بكف حنان في سعادة.

ابتهجت حنان لمرآها: أخيراً يا وحشة شرفتيني برؤيتك الكريمة ؟!

رسمت إبتسامة باهتة على شفتيها: سامحيني، حقك عليا

تأملتها حنان للحظات صامتة تحاول معرفة ما أمرها، توصلت إلى قول: أنا هأوصلك إنتي ومي مي إنهارده عشان شكلك مش عاجبني

لم تعترض وسارت جوارها في صمت حتى توقفت حنان قائلة لمي مي: تحبي تاكلي آيس كريم ؟

أومأت مي مي بسعادة وانطلقت تحضر لنفسها بما أعطته لها حنان مثلجات بالطعم الذي تهواه، استغلت حنان الفرصة ووجهت حديثها إلى حياه بجدية: مالك زعلانه عليها كدا ؟؟

نظرت لها حياه بتعجب وعدم فهم: مين دي؟

أخرجت حنان الجريدة من حقيبتها وسلمتها إليها متمتمة: دي، اللي اسمها جميلة

شهقت حياه بفزع عندما قرأت خبر وفاة جميلة إثر سقوطها من شرفة أحد الفيلات المشبوهة فور إنقضاض الشرطة عليها خوفاً من القبض عليها منذ فترة ثم تلى هذا الخبر ما قصته عليهم فتون، ربط الصحفي بين الواقعتين وهروب الشخص نفسه "شادي" من كلتيهما.

همهمت: دا حصل إمتى دا؟

أشارت حنان إلى التاريخ المكتوب أعلى الجريدة: الخبر دا اتنشر يوم ما جات فتون، بس ما شوفتهوش غير دلوقتي صدفة .. ما إنتي عارفه مش بأحب الجرايد وبترفع الضغط عند تيته .. بس فيه مُدرسة معايا بتحب

تقرأ الأخبار البايته حتى لو عدى عليها أسبوع ولما لمحت الخبر أخدت منها الجرنال

حوقلت حياه بأسف: ربنا يرحمها .. هي فتون عارفه ؟

- أمين .. كلمتها سألتها قالتلي أنه شادي مارضيش يقولها حصل إيه مع جميلة لما هربوا أول مرة وكانت لسه عارفه مني

ضاقت عينيها معقبة: ما دام ما تعرفيش الخبر دا، أومال إيه اللي عامل فيكي كدا ؟؟

اكتفت حياه بالتنهد قائلة: حمزه عرف إني كنت عارفه عن مرض نجلاء وما قولتلوش

عادت مي مي فانقطع الكلام لكن حنان بعقلها الراجح استشفت رد فعل حمزه فصمتت لا يمكنها التدخل ولن تستطيع مواستها .. فليس بيدها حيلة لذلك قررت لزوم الصمت حتى أوصلتهم إلى باب البناية واتجهت عائدة إلى منزلها بعد رفضها التام للصعود.

شردت في أفكارها وحياتها، إنها قلقة بشدة، فما فعلته لا تدري إن كان صواباً أم خطأ، سيجلب الشقاء أم السعادة والفرحة، ظلت تستغفر خلال طريق العودة علّ الله يخفف عليها من وقع ما سيأتي أياً كان.

****

دلفت إلى المنزل وشرعت تحضر الطعام لمي مي حتى تتفرغ لمذاكرتها وحل واجباتها المدرسية، لم ترغب مي مي بأن يساعدها أحد لكنها طلبت أن تراجع إجابتها فور إنتهاءها منها، رضخت حياه لطلبها.

اطمأنت على سمية وأنها ليست بحاجه لشئ، لم تجد أحمد في المنزل، تعجبت لذلك فقد أرسلها لتحضر مي مي خصيصاً لأنه يشعر بالتعب.

جلست لا تدري ماذا تفعل، تريد الإلتهاء حتى لا تتخاطفها الأفكار، لمحت في أقصى الغرفة التي أمامها مكتبة ضخمة، قررت أن ترى ما بها وأن تستعير ما يشد إنتباهها.

إن غرفة مكتب أحمد تحتوي على مكتبة ضخمة، ليس الجزء الذي رأته من الخارج فقط، بل تحتل جدار أخر في حين يشغل المكتب الجدار الثالث وأريكة مريحة بجوار ضوء يبدو أنه مخصص للقراءة عند الجلوس عليها.

مرت بعينيها على الكتب لتجد كتب لا تنتمي لإهتماتها؛ سياسية وفلسفية كذلك لغوية، فقدت الأمل في العثور على كتاب من مجال تحبه، فجأة استوقفها كتاب عن الأحاديث النبوية وتفسيراتها، جذبته في سعادة واسترخت في الأريكة المجاورة للباب وغرقت في القراءة لا تشعر بما حولها، حيث أن أسلوب الكتاب نقلها إلى عالمه غير عابئ بعالمها.

****

حان موعد الجلسة التي صارت تذهب إليها برفقة زوجها، في إنتظار دورها جلست تتحدث مع فادي في شتى الأمور لكنها لمحت طيف أحد تعلمه.

لقد أختفى بريق عينيها الذي داومت على الحفاظ عليه مهما كان ألمها، لقد اشتد الإبتلاء عليها حتى ذبلت كزهرة اقتلعت من البستان وتركت في الهواء معرضة للذبول، لحظها أوقفت مرافقتها الكرسي المتحرك إلى جوار مقعدها.

سألت السيدة عن حالها ولما هي بائسة، فأجابتها بصوت أنهكه المرض: بقالي سنة ونص هنا بأتعالج وما شوفتش ولادي، كنت مستنية اتأكد إني خلاص شفيت الحمدللّه بس رجع أقوى من الأول

- هما عايشين في إيران مش كدا ؟

أومأت، فعادت تسألها: طب هما مش بيجوا يزوروكي ليه؟

- مشاغل الحياه يا بنتي وبعدين اللي بيجلهم على قد اللي بيروح، هيجوا يعملوا إيه هنا؟ يشوفوني وأنا بأتعذب وبأموت

ضمت كفيها بين يديها ونهرتها: أوعي تقولي كدا، دا إنتي اللي كنتي مصبراني ع اللي أنا فيه .

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها لكنها لم تعقب، كان فادي منتبهاً للحوار لكنه لم يحاول إبداء ذلك حتى لا تشعر السيدة أنه متطفل.

دخلت نجلاء إلى جلستها عندما أتى دورها، جلس فادي يتجاذب أطراف الحديث مع السيدة حتى وصل إلى مبتغاه.

****

لم تشعر بفتح باب غرفة المكتب ولا مراقبة أحدهم لها، لقد كانت مأخوذة بما تقرأه وبكم المعلومات التي لم تكن تسمع عنها شيئاً، لقد كانت جاهلة بالمعنى الحرفي.

فجأة أعتمت الصفحات نتيجة للظل الساقط عليها، نظرت خلفها لتجد حمزه واقفاً بملامحه الجامدة، حدقت به في صمت كما فعل هو إلى أن قطع الصمت قائلاً بمزاح وإبتسامة مفاجأة: واللّه وطلعتي مثقفة كمان يا بنت عم فاروق

لولا الإبتسامة لظنت أنه يهزأ منها، لم ترد أن تسبب مشكلة لمجرد ظنون فهزت كتفيها ورفعت نظارة وهمية عن طرف أنفها: طول عمري مِثـئـفة

قهقه على مظهرها وكلامها: مِثـئـفة مرة واحدة ؟؟ .. طب قومي يا مِثـئـفة حضريلي الأكل عشان جعان

علت الدهشة وجهها، فمنذ غضبه منها كان يأكل بنفسه أو لا يأكل متحججاً بتناوله الطعام خارجاً، أومأت في صمت ونهضت بعد أن تركت الكتاب على الأريكة رغبة في العودة وتكملته.

استوقفها على الباب قائلاً بتحذير: واعملي حسابك أنك هتاكلي معايا !

- بس ...

هز رأسه رافضاً أي اعتراض، اقترب منها وتحسس خدها بظهر يده قائلاً بحنو: إنتي ما كالتيش حاجه من الصبح ولونك مخطوف من قلة الأكل .. كدا مش هينفع

اقشعر بدنها للمسته والحنان الطاغي في كلماته، تحول فجأة إلى لهجة غاضبة: كل دا ما عملتيش الأكل ولسه واقفة ! .. ستات أخر زمان والله

تركها وأتجه إلى غرفته محاولاً كتم ضحكاته لما رآه على وجهها من صدمة لتحوله المفاجئ بلا سبب، ضربت كفاً بكف: أقسم بالله الراجل دا أتجنن، أخر برج من دماغه عشش فيه الحمام وبقى غير قابل للاستخدام هههههههه

توجهت إلى المطبخ تسخن ما أعدته سابقاً، وضعته على طاولة المطبخ بعد أن تأكدت من نوم سمية وعدم عودة أحمد حتى الآن، ومي مي ترغب في اللعب.

بمجرد وضعها للطبق الأخير على الطاولة أنضم إليها حمزه وجلست متلذذاً برائحة الطعام، قبل أن يسكب لنفسه سألها: إنتي اللي طابخة الأكل دا ؟

ترددت قليلاً خافت أن تجيب بالإيجاب يتركها ولا يتناول الطعام كما فعلها قبل أيام، حزمت أمرها: أيوه

أخذ ملئ الملعقة الكبيرة وسكب في طبقه وشرع يتناول بشهية شديدة، يمدح نَفَسَها في إعداد الطعام ومهارتها.

لجمت أسئلتها عما قلب حاله إلى ما بعد الأكل؛ حتى لا تتسبب في فقده للشهية لأي سبب، أكلت بهدوء وهي تستمتع برؤيته يأكل كأنه لم يذق الطعام منذ .. خلافهما.

لم تقدر على منع ضحكتها: أنت شكلك يفطس من الضحك، عامل زي العيل الصغير اللي بعد ما قضى شهر ياكل ف طبيخ مامته اللي مش بيحبه أخيراً حنت عليه بالبيتزا هههههههههه

نظر لها شذراً وقد ضاقت عيناه: بس على فكرة دي مش بيتزا، دي صينية بطاطس

أخرج لها لسانه مغيظاً بينما هي ازدادت في الضحك حتى كادت تسقط من فوق مقعدها، لم تلحظ الإبتسامة الحانية التي ظهرت على وجهه؛ لقد اشتاق حقاً لرؤية الفرحة تلمع في عيونها.

***

أنهى مذاكرته وجلس على حاسوبه، سجل دخوله إلى مواقع التواصل الإجتماعي بالترتيب فيس بوك ثم تويتر ليتابع أخر الأخبار وإن جد جديد.

بحث عنها في قائمة الأصدقاء ولكنها لم تكن متوفرة، جلس يعبث في هذا أو يقرأ ذاك حتى أضاء الضوء الأخضر مشيراً لدخولها لنفس الموقع.

أسرع يحدثها وهي تجيبه حتى أنقضت أربع ساعات دون أن يشعر أياً منهما، حان وقت نومها للذهاب إلى المدرسة صباحاً كذلك هو.

أغلق صفحته الشخصية واندفع داخل سريره بشوق إلى الأحلام الوردية ورؤيته لها في منامه، متناسياً حديثه مع شقيقته الذي لم يؤثر به ربع التأثير.

****

جلست على الأريكة في غرفتهما وهو إلى جوارها، يمسك يدها الغارقة بين كفيه، تنهد مبتسماً بهدوء ليخفف من وطأة الموقف: أنا معترف إني غلطان في معاملتي ليكي الأسبوع اللي عدا دا، بس حطي نفسك مكاني .. أختي عندها السرطان وأنا ما أعرفش .. وبعدين أكتشف إن مراتي عارفه وما قالتليش .. كنت لسه بأديكي الأمان وبنحدد حياتنا سوا هتبقى ماشيه إزاي .. وألاقيكي مخبية عني حاجه مهمة زي دي

قالت بصوت خافت: واللّه ما كان بإيدي، نجلاء هي اللي أصرت أني ما أقولش لحد وما حبتش أرفض عشان لما تروح الجلسة تبقى تقولي .. عشان ما تبقاش لوحدها .. وما كنتش عايزاها تفقد ثقتها فيا

رد ببرود قاس: بس إنتي فضلتي ثقتها هي فيكي على ثقتي أنا فيكي !

طرفت الدموع من عينيها بغزارة: أسفة، أنا ماكنتش أعرف إن كل دا هيحصل، كنت فاكرة إنها هي هتقولكوا بعد ما تهدا من صدمتها شوية وتبقى عرفت منها

ترك يديها وأمسك وجهها يمحو الدموع وقد تمزق قلبه لرؤيتها: طب إنتي بتعيطي ليه دلوقتي؟ مش إحنا أتفقنا إننا هنتكلم بهدوء زي إتنين كبار عاقلين؟؟

أومأت في صمت فتابع: وإنتي فاكره لما أشوفك بتعيطي أنا كدا هأفضل عاقل؟

رفعت رأسها إليه وحدقت في عيونه بقوة لتستشف مقصد كلامه، دفعها عنه بروية ناهضاً، تخلل شعره بأصابعه متمتماً بعصبية: يا بنت الحلال ما تستفزنيش !

أجابتها ببراءة وملائكية: هو أنا عملت حاجه ؟

عاد للجلوس جوارها بسرعة وتناول وجهها بين كفيه، لثم شفتيها في شوق ورغبة، صدمها ما يفعله لكنها شعرت بدقات قلبها تتنافس، وجسدها يفقد قدرته على البقاء متوازناً، ارتفعت يديها لا شعورياً تحيط بعنقه لكنه فجأة دفعها كما ضمها.

أمسكها من كتفيها وهزها بعنف: اتهدي بقى اتهدي .. هتبوظي كل اللي بأخطط له، ببراءتك دي واستهبالك

عقدت حاجبيها وذراعيها: حاضر، بس إيه اللي بتخطط له ؟

تنهد بقوة: الأول لازم نقفل المشكلة اللي حصلت دي عشان ما تتكررش تاني، ماشي؟

أكمل عندما رأى موافقتها فهي لا تريد أن يغضب منها مرة أخرى: لما تحصل أي حاجه تخصك أو تخص حد من عيلتنا يبقى لازم تقوليلي .. حتى لو الجن الأزرق قالك ما تقوليش لحد .. أنا لازم أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك وعن أي حد يخصنا .. غير كدا مش عايز أعرف حاجه .. أتفقنا ؟؟

هزت رأسها: أتفقنا

نهض فسألته إلى أين هو ذاهب، أجابها: ثواني وراجع

جلست تنتظره وهو لم يغب، عاد وفي يده عدداً من المجلات ناولها إياها وأنضم إلى جوارها: أختاري منهم اللي يعجبك ولو ما عجبكيش حاجه أجيبلك غيرهم أو حتى ننزل ندور بنفسنا

قلبت صفحاتها سريعاً وهمهمت بعدم فهم: دي مجلة أثاث ! هأعمل بيها إيه ؟

أحاط كتفيها بذراعه: إنتي فاكرة إننا هنعيش هنا طول عمرنا ولا إيه ؟ .. أكيد هيبقلنا شقة خاصة بينا .. الشقة موجودة هأخدك بكرة تتفرجي عليها، أنا مشطبها وعامل الديكورات بس ناقص العفش

غمزها: ودا عليك أنت بقى يا جميل .. أنا واثق ف ذوقك

جعدت نفسها بين أحضانه وعاقدة ذراعيها خلف عنقه هاتفة: بجد ؟؟ أنا مش مصدقة نفسي

استنشق عبير رائحتها لكنه أبعدها على مضض، زفر بحدة: يا زفتة إنتي !.. مش قولتلك أتهدي ! .. هتخليني أتهور ومش هأقدر أستنى للفرح

عادت تجلس مكانها وعدم الفهم عاد إلى عقلها: فرح ؟ .. فرح إيه ؟؟

حدثها كأنه يتكلم إلى طفلة وهو يحل حجابها الذي لم تفكر في نزعه منذ عادت: إحنا أتجوزنا من غير فرح ولا أهلك كمان حضروا .. واللي أعرفه أنه كل بنت بتحلم باليوم دا ومن حقها تعيشه .. ولا إيه رأيك ؟

نظرت في الجهة الأخرى وقالت بألم: بس دا لما تكون لسه نضيفه ونقية.. دا رمز اللون الأبيض للفستان وأنا لا دي ولا دي

أمسك ذقنها وأدر وجهها ناحيته، مسح دمعة سقطت من عيونها سهواً، قال بجدية وحزم: إنتي نضيفة أوووي ونقية جداً، اللي حصل دا حصل غصب عنك .. عشان كدا كأنه ما حصلش، أنسيه .. حياتك هتبدأ من معرفتنا لبعض

أسندت رأسها إلى صدره تستشعر الأمان بينما تخلل خصلات شعرها بأصابعه، بعد فترة أبعدها سانداً جبهته إلى جبهتها وقال مازحاً: يا بنتي إنتي ليه مصرة تخليني أتسرع ؟؟ .. هنفرش الشقة وبعدين نعمل الفرح .. وقتها بقى أبقي استفزيني براحتك ع الأخر .. ولو ما استفزتنيش ساعتها .. أنا اللي هاستفزك

نظرت بقوة في عيونه: بس سواء استنينا أو لا .. مش فارقه، هي مش أول مرة ليا

نهض مبتعداً عنها، أغمض عينيه وقبض يديه بشدة محاولاً الهدوء وتمالك أعصابه حتى لا يقول ما لا تحمد عقباه، نظر إليها أخيراً فلمح خوفها وتوجسها، تأكد أنها نادمة على كلمات قالتها دون وعي، خاطبها بهدوء: إحنا مش قولنا ننسى ؟

تمتمت كطفلة أخطأت وتتلقى العتاب: أسفة

أومأ: يلا روحي غيري هدومك عشان ننام، أنا أه هأستنى لحد الفرح بس مش معنى كدا إنك ما تنميش في حضني ع الأقل ..

ابتسمت بفرحة وأتجهت إلى الحمام تبدل ملابسها، ألقى هو جسده على الأريكة متذكراً قدوم والده إلى مكتبه لأول مرة منذ عمله هناك ليحدثه بشأن ما يحدث بينه وبين حياه منذ عادا، نصحه والده: أنتوا لسه ف أول الجواز وكمان ما اتعرفتوش على بعض كفايه قبله .. فأكيد كل واحد لسه ما يعرفش إيه اللي بيضايق التاني وإيه اللي بيحبه، اقعد معاها وفهمها غلطها .. قولها ما بأحبش حد يخبي عني حاجه خصوصاً مراتي .. هي مش هتقولك لا

ثم ضحك غامزاً إياه: وبردو مش هتسمع الكلام ومش هتقولك كل حاجه يعني .. أكيد هتقول مرة وما تقولش عشرة .. عادي .. المهم اللي ما يتقالكش يكون مالوش لازمة ومش هيأثر عليكوا أو على حد يهمكوا سوا .. وهي مرة ف مرة هتميز اللي يتقال واللي لا .. بس الصبر .. الصبر يا حمزه !

استمع لنصائح والده بإنتباه وتيقظ لكنه رفض فكرة مصالحتها، سينتهي الأمر إما عاجلاً أو آجلاً، ولكن ليس الآن أو حتى اليوم .. لكنه لا يدري ماذا حدث له عندما رأها تنظر له برهبة وخشية، وضوء المصباح الذي كانت تقرأ عليه أضاف لوجهها ضعفاً أكثر، مما جعله يتراجع ويبدل وجهه الجامد إلى وجه أخر.

بدل ملابسه كذلك لكن قبل أن يرتدي القطعة العليا من ملابسه خرجت حياه من الحمام، صرخت وأدارت ظهرها لمرأه بهذا الشكل وهي لم ترى رجلاً بدون كامل ملابسه هكذا بحياتها.

ضحك عليها حمزه وبعد أن ارتدى ملابسه توجه إليها وأدارها لتنظر إليه قائلاً بحنان: كل دا وبتقولي إنك مش بريئة ؟؟

رأى أحمرار وجهها يزداد: يا بنتي إنتي مراتي .. مراتي .. المفروض تتعودي على كدا

غمزها بخبث: أومال لما نتجوز بجد هتعملي إيه ؟؟

ضربته بقبضتها الصغيرة على كتفه، وقالت عاقدة حاجبيها بجدية مصطنعة: يا بنتي ومراتي في نفس الجملة ؟؟ .. طب أنا أصدق مين دلوقت ؟ .. وأقولك يا بابا ولا يا جوزي مش فاهمة بردو

نظر لها بمكر وحملها متجهاً إلى الفراش: أنا هأعرفك تقوليلي إيه دلوقت

وضعها على السرير وبدأ يدغدغها حتى كادت أنفاسها تختفي من كثرة الضحك، أخيراً تمدد على الفراش وأخذها بين أحضانه ليستقر رأسها على صدره وما زال جسدها ينتفض إثر موجة الضحك.

صمتا لفترة بعد أن أطفئ حمزه الأنوار إلا من ضوء خافت بجوار السرير، تمتمت حياه بتردد: حمزه

أجابها بصوت لم يدخل في مرحلة النعاس بعد: نعم

- عايزه أقولك على حاجه

- قولي ..

- أنت أتفقت معايا إني ما أخبيش حاجه عنك صح ؟

- صح

سحبت نفسها من بين ذراعيه وجلست معتدلة: كان فيه خبر ف الجرنال على أنهم عملوا كبسة على مكان دعارة

انتصب حمزه كذلك وأعاد فتح الأضواء وسألها بترقب: وبعدين ؟

تنهدت بقوة: مسكوا فيه ناس .. وواحدة من اللي كانوا معايا في الفيلا اللي حبسوني فيها رمت نفسها من المبنى عشان ما يقبضوش عليها .. وواحدة تانية قدرت تهرب وهي قاعدة عند حنان دلوقتي .. بس ..

ضاقت عيونه عليها أكثر: بس إيه ؟

ارتجف جسدها: بس شادي ما قدروش يمسكوه وقدر يهرب منهم

ضمها إلى صدره عائداً إلى وضعية النوم وأطفئ المصباح، ربت على كتفها برقة وقبل قمة رأسها: طول ما أنا معاكي ما تخافيش، ماحدش هيقدر يقرب منك ولا يأذي شعرة منك

استكانت حياه وشعرت بالأمان من نبرة صوته التي تحمل الوعيد لمن يفكر أن يمسسها بسوء، غرقت في النوم بينما ظلت الأفكار تدور وتحوم داخل ثنايا عقله .. يفكر في حل حتى يُنهي هذا الخطر المحيط بحياه إلى الأبد.

****

أتى الصباح محملاً بالسعادة والهدوء منذ أمد لم يطرقوا حياة حياه، عقب الإفطار ذهبت حياه مع حمزه إلى حيث توجد الشقة لتراه وتتخيل الأثاث المناسب لها.

كانت الشقة فسيحة، من ثلاث غرف ومساحة استقبال فسيحة تتسع لطاولة سفرة ومشتملاتها، صالة ومعيشة، كذلك المطبخ يسمح لها بحرية الحركة وبه مساحة لطاولة صغيرة.

نظرت من النافذة الملحقة بالاستقبال لتجد أُصص فارغة، تخيلت شكل النباتات بعد أن تحتويها، ستزرع ورود لترسل ريحها المنعش إلى أرجاء الشقة.

كان حمزه يتحدث مع حارس البناية بينما هي غارقة في تخيلاتها، اقترب منها حمزه وأخبرها أنه سيذهب مع الحارس ليرى صاحب العمارة

حيث أنه لم يأتي إلى هنا منذ زمن وهناك بعض الفواتير وغيرها يريد صاحب العمارة محادثته بشأنها.

وافقت أن تبقى في الشقة تتخيل الأثاث وترى ما يناسب تصميمها من أثاث المجلة التي أحضرتها برفقتها، سيمضي الوقت سريعاً، لأننا عندما نغرق في الأحلام يختلف حساب الزمان.

جلست على أحد الصناديق المقلوبة تضع علامة بجوار الأثاث الذي رأته مناسباً، استغرقها الأمر فلم تشعر بدخول أحدهم من باب الشقة المفتوح على مصرعيه، رفعت رأسها لتتفاجئ بفتاة تكبرها خمسة أعوام على الأقل، ترتدي فستاناً واسعاً يخفي تناسق جسدها يعلوه سترة من الجينز تخفي ذراعها، وعلى رأسها حجاباً بلون ثوبها الأحمر القاني.

اعتقدت أنها إحدى الجارات فابتسمت في وجهها مرحبة: أهلاً وسهلاً

وترتها نظرت الفتاة التي مسحتها من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها، رددت كأنها تحدث نفسها: بقى إنتي اللي فضلك عليا ؟

ارتفعا حاجبا حياه تعجباً: أفندم ؟

عقدت الفتاة ذراعيها وابتسمت بسخرية: أنا هاجر

توجهت عيونها إلى الجهة العليا يساراً عسى أن تتذكر، لكنها لم تتعرف عليها: هو أنا أعرف حضرتك ؟

ضحكت ضحكة ضايقت حياه، فكيف لهذه الضحكة أن تخرج من خلف هذه الملابس الدالة على الإحتشام، سألتها: هو حمزة ما

حكالكيش عني ولا إيه ؟ .. لم تكن تعلم أنها ترتديها إتباعاً للموضة الدارجة في الوقت الحالي ليس هدفها الإحتشام في حد ذاته.

سألتها بإنزعاج: إنتي مين ؟

بكل ثقة تمتلكها عرفت نفسها: أنا هاجر، حبيبة حمزه وخطيبته

وقفت حياه ونظرت لها بتحدي: قصدك كنتي خطبيبته

لاحظت تشديدها على "كنتي" فقالت بثبات: وكنت حبيبته كمان

أجابتها حياه بغيظ: وأما إنتي عارفه إنك كنتي، إيه اللي جابك ؟

نظرت حولها: أنا ساكنة ف الشارع اللي ورا وكنت معديه من هنا، بعدين جه ف بالي أشوف أخر اللي وصله حمزه في شقتنا اللي كان بيجهزها عشان تكون عشنا السعيد

ابتلعت حياه ريقها بصعوبة، لم يخبرها حمزه عن أنه أختار تلك الشقة لتكون مسكنه مع تلك المرأة، كذلك بجوار بيت خطيبته السابقة ؟؟، أجابتها بهدوء لا تشعر به: بس دلوقتي هيبقى بيتي أنا وحمزه

تطلعت حولها وقالت كأنها تحلم: يـاه نفس الألوان اللي تخيلنا بيتنا هيبقى بيها

أضافت بدلال: كمان كان نفسنا نجيب العفش من "البيت المثالي"

قبضت حياه يديها بحنق، كادت أن تذهب وتسحبها من حجابها وتلقيها خارجاً لكن قدوم حمزه أنقذ تلك المدعية من بين براثنها.

ضاقت عيونه عندما رأى حالة حياه وتمتمت باسم الأخرى بهدوء، إلتفتت إليه باسمة: أزيك يا حمزه؟

- إيه اللي جابك هنا ؟

ضحكت بخلاعة: وحشتني الشقة فجيت أشوفها

ألتوت شفتيه بسخرية: لا واللّه ؟

اعتدلت في وقفتها قائلة: أيوه .. عن إذنكوا بقى عشان اتأخرت

بدلت نظراتها بينهما: مبروك ولو إنها جايه متأخرة

انتظر خروجها ثم أغلق الباب وعاد إلى الحياه التي صوبت نظرها إلى الخارج، ناداها: حياه

دون أن تلتفت: هي دي كانت هتبقى شقتك أنت وهي ؟

تنهد: حياه

نظرت إليه بقوة غاضبة وشددت على مخارج حروفها: أيوه ولا لا ؟

فرك وجهه بكفه: أيوه

فقدت سيطرتها على نفسها وصرخت به: وأما هو أيوه .. جايبني هنا ليه ؟؟ .. لو كنت فاكرني هي، يبقى تفوق أحسن .. لأن أنا حاجه وهي حاجه تانية !

أمسكها من كتفيها وهزها بعنف صارخاً: ما تزعقيش ف وشي فاهمة ؟؟

صمتت فزعة منه ومن نظراته القاتلة، تركها عندما تأكد من طاعتها له، وضح موقفه: أنا كنت هأقولك بس مشكلة المالك دا والبواب عطلتني .. ما تخيلتش أنها هتيجي وتشوفيها كمان ! .. أيوه كانت الشقة دي جايبها عشان أنا وهي نتجوز فيها أيام لما كانت خطبتي وفاكر إنها بتحبني .. بس هي ما شافتهاش غير مرة واحدة بعد ما مضيت العقد بتاعها ودفعت المقدم

ابتسم بسخرية: وما عجبتهاش وكانت عايزه تغيرها .. لكن لما عرفت أنه خلاص الإجراءات القانونية أنتهت رضيت بالأمر الواقع .. ع الأقل بشكل مؤقت

أشار حوله: بس الألوان أنا اللي أخترتها، أنا اللي عجبني تصميم المطبخ كدا

أتجه إلى النافذة وأشار إلى أصيص النباتات: وأنا اللي حطيت دول هنا مع العلم إنها مش بتحب الزرع

عاد إليها: والأثاث إنتي اللي هتختاريه .. يبقى هي إيه اللي يثبت وجودها هنا ؟

رددت ما قالته لها: هي قالت أنكوا اخترتوا الألوان سوا

هز رأسه: لا، دي تقريباً أول مرة تدخل الشقة دي من ساعة ما شافتها ع الطوب الأحمر .. وأساساً مش بتحب اللون اللبني دا .. ولا درجة الأخضر اللي ف أوضة الأطفال .. يبقى إزاي أختارتهم ؟

- طب والعفش اللي اتفقتوا تجيبوه من نفس المجلة اللي قولتلي أختار منها ؟

ضحك بقوة جعلها تتعجب، أومأ لرأسه إلى شئ ما خلفها: قصدك المجلة اللي إنتي سايباها على الكرتونة دي؟

خجلت حياه لغباءها ولسماحها لتلك الساحرة الشريرة أن تزرع بداخلها شك تجاهه، لم تلحظ في فورة غضبها أن اسم المجلة التي كانت تطالعها كان واضحاً فاستطعت هاجر إلتقاطه بطرف عينها.

- هي مالهاش حاجه هنا، بس لو عايزه ممكن نغير الشقة وأدور على شقة تانية

هتفت بسرعة: يبقى أحسن، عشان ما أشوفش وشها تاني

سألها متعجباً: وإنتي هتشوفيها فين؟

نظرت له بلوم وعتاب: مش هي ساكنة في الشارع اللي ورانا ؟

قطب جبينه: دي والدتها اللي نقلت هنا بعد ما اشتريت الشقة دي، بس هي عايشة ف فيلا مع جوزها لكن مش هنا

صاحت متفاجأة: وأما هي متجوزة إيه اللي جابها ؟

هز كتفيه: مش عارف، يمكن بعد طلاقها رجعت هنا، ما يهمنيش .. المهم إنتي عايزه إيه؟

- عايزه نشوف شقة تانية أحسن

نظر لها بحزن وشوق: بس كدا هناخد وقت .. والفرح هيتأخر !

قفز قلبها من السعادة لرؤية شوقه في بدأهما لحياة جديدة سوياً مما دفع الظنون بعيداً، ضربت شكوكها عرض الحائط وقالت بدلال بينما تعيد ضبط ياقة قميصه: إمممم .. طب خلاص أمري لله .. موافقة ع الشقة دي

أخفت فرحتها لسعادته وأكملت بجدية: بس بشروط !

جذبها إليه: أنت تؤمر يا جميل

بسطت كفيها على صدره: أولاً.. هننزل نلف سوا نجيب العفش مش هنجيبه م المجلة دي

قهقه موافقاً: ثانياً .. أنا اللي هأختار أنواع الزرع اللي هنزرعه في الأصاري اللي ف الشباك

نظر لها متعجباً: هو إنتي بتحبي الزرع ؟

رفعت رأسها عالياً بغرور مصطنع: أومال إيه ؟ .. يا ابني أنا متربية وسط الخضرة والزرع إزاي ما أحبهومش ؟ .. وبعدين أنا وسلمى كنا زارعين شجرة برتقان وسط الأرض بتاعت بابا وشجرة مانجه وسط الأرض بتاعت باباها وكل سنة إحنا بنروح نلم الفاكهة دي ونوزعها ع الناس والعيال

نظر لها بعشق لم ينطقه بلسانه لكن نظرته كانت كافية لترتخي أطرافها، قال كأنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثها: رغم إني وقت ما اشتريت الشقة دي وبدأت أجهزها كنت مخطوب لهاجر ولسه ف وهم حبها ليا وحبي ليها .. إلا إني كنت بأختار كل حاجه على ذوقي حتى لو عارف

إنه مش هيعجبها .. تقريباً كنت بأجهز البيت دا ليكي من قبل حتى ما أشوفك أو أعرف بوجودك

ابتسمت بحب، ظلا يتبادلان النظرات حتى دفعته قائلة بحماس طفولي: يلا بقى ننزل نلحق نلف شوية ونتفرج ع العفش .. مش عايزين نضيع وقت !

أومأ ضاحكاً واتجها يجهزان عشهما الزوجي، حتى مر أسبوع أخر في دوامة شراء الأثاث وترتيبه.

***

اتجهت إلى المستشفى وقلبها يكاد يتوقف نتيجة زيادة التوتر وتسارع دقاته بشكل غير طبيعي، لسان حالها لا يتوقف عن ترديد دعاء سيدنا يونس عندما كان في بطن الحوت "لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين".

سألت عن نتيجة التحليل فطلبت منها الممرضة بإبتسامة هادئة أن تنتظر حتى تتأكد من وجودها أولاً، لم تغب الممرضة أكثر من دقيقتين لكنها شعرت بعمرها كاملاً قد مر.

سلمتها الممرضة الظرف ولما لم تفهم منه شيئاً سألتها، قرأت الممرضة التحليل بتروي وأخبرتها بنفس الإبتسامة نتيجته.

ليس فيه مبالغة إن قلنا أن تنفسها قد توقف، مصيرها قد تحدد، أيعقل أن الدنيا بهذا الصغر؟، أم أن وقت عذابها قد أتى أجل إنتهاءه ؟

سارت في الطرقات لا تدري ماذا تفعل وإلى أين تذهب، حتى وجدت نفسها أسفل البناية وتصعد السلالم غير عابئة بوجود المصعد واستعداده لتوصيلها إلى طابق الذي ترغبه.

***

تقبلت الأم مرض ابنتها وبدأت تقويها وتقوى بقوتها، وجدت نجلاء في مساعدة حياه على تأثيث منزلها وبعدها تجهيز ما يتطلبه العرس منفذ لتشغل به نفسها وتنسى فيه مرضها.

كانت من أسعد أيام حياه، تحسنت علاقتها بحمزه كثيراً وأشتد إرتباطهما سوياً، يأكل العشاء معها ولا ينام إلا بين أحضانها، يحدثها عن بعض ما مر به خلال عمله، يروي لها مشكلات الشركة التي يعمل بها رغم أنها تعجز كثيراً عن مساعدته وإعطاءه الحلول المُثلى إلا أنها تسعد لمشاركته معها في حياته المهنية.

لكن منذ متى تستمر السعادة وتترك لنا الحياة الفرحة دائمة التواجد ؟ .. إن الحياة لها رأي في هذا الشأن، فكلما زادت فترة السعادة كلما سأمناها .. فتختار عنا وقت البلاء لنتفاجئ .. وتختار عنا وقت الرخاء فتسعدنا .. وبين ذلك وذاك تترك لنا حرية الإختيار .. إما بالتقبل والصبر على البلاء فتتحول من مجرد فترة ألم وبعث للعذاب إلى فترة رضا وتحمل للإبتلاء لتكن حُجة لنا يوم البعث ونشعر بالسعادة فور إنزياح الهم .. أو نقضيها بين البكاء والعويل فيزداد الشعور بالغم ونفقد الإحساس عند عودة الفرح.

***

انقلب الوضع واهتز الاستقرار، عم التوتر وساد الغم، جلس الجميع في حالة من الصدمة .. كل شخص قد استقبل الحديث برد فعل مختلف عن الأخر .. فحتى ردود الأفعال تختلف بإختلاف الشخصيات.

نجلاء فاغرة فمها، لا تصدق تلك القصة الخارجة من إحدى الأساطير، أحمد يحوقل وينظر إلى زوجته ودموعها لا تتوقف عن النزول تفكيراً في المصير.

حمزه قاطباً حاجبيه يجمع الأحجية ليحل اللغز ويتأكد من النتيجة، أما حياه فلسان حالها مصدوم فقد جمع اللّه الإبنة بأمها بعد مرور سنوات من الفراق والعذاب.

حنان .. بعد أن روت قصتها وحكاية القلادة المعلقة في عنق مي مي والتي أثبت تحليل الـ DNA

أنها فلذة كبدها ومن ولدتها، شعرة صغيرة من رأس حنان مقابل شعرة أصغر من رأس الطفلة أثبتت صحة أمومتها فسبحان العالي المتعالى، بكت حنان أثناء الحديث ومازالت تبكي حتى بعد الإنتهاء.

قطع حمزه الصمت مستفهماً: طب والعمل دلوقتي ؟ .. مي مي إزاي هنقولها ؟

انتفضت سمية صائحة: ونقولها ليه ؟ .. مي مي دي بنتي أنا .. قعدت معايا أكتر من أمها الحقيقية !

فقدت حنان أعصابها هي الأخرى: أديكي قولتي أنا أمها ! .. أنا اللي خلفتها

عنفتها سمية: بس إنتي اللي ضيعتيها ودا عقابك لاستهتارك بيها !

اشتد بكاء حنان حرقة: مش كفاية سنين محرومة منها !، بالاسم أم لكن فين بنتي ؟؟ .. مش كفاية تفكيري طول السنين دي كلها يكون حصلها إيه ؟؟ .. خطفوها ولا بيعذبوها .. نايمة ولا سهرانة من خوفها .. بتعيط ولا بتضحك .. عايشة ولا ميتة .. لو ماتت دفنوها ولا أخد أعضاءها تاجروا بيها .. الرحمة بقى الرحمة !

انهارت في مقعدها، اقتربت منها حياه تواسيها .. استشاطت سمية غضباً تُشير إلى حياه: إنتي السبب ! .. إنتي اللي جبتيها .. لولا إنك عرفتينا عليها ما كناش وصلنا لكدا

وقف أمامها أحمد ونهرها: حرام عليكي يا سمية اللي بتعمليه وتقوليه دا ! .. دا قدر ومكتوب وإنتي عارفه كدا .. لو عن طريق حياه ولا مش عن طريقها كانت هتوصل لبنتها حتى لو عملتي إيه ! .. دي إرادة ربنا ومالناش يد فيها

هزت رأسها رافضة الاستماع لكلام تدركه وتعرف معناه لكن يأبى قلبها تقبله، وقفت نجلاء بجوار أمها تهدأها: يا ماما إنتي فاكرة حالة مي مي أول ما جات كان شكلها إيه ؟؟ .. وإزاي من صدمة فراقها عن مامتها ما كانتش بتتكلم إلا من فترة قريبة ؟؟ .. إزاي قلبك يطاوعك تفرقيهم أكتر من كدا وإنتي شهدتي عذابها !

تدخل حمزة: هي مش هتحرمك منها، ف أي وقت هتشوفيها، هي بس عايزة تعوض السنين اللي فاتتها مع بنتها وتاخدها ف حضنها؛ لكن مش هتاخدها وتعزلها عننا .. لأنها زي ما اتعذبت لفراقها مش هتعذب غيرها

رددت حنان: والله ما هأبعدكوا عنها .. هأجبهالكوا على طول .. بس دي بنتي .. نفسي أرجع أسمع كلمة ماما من بؤها .. تبات ف حضني .. وأسرحلها شعرها .. تحكيلي مشاكلها وأحلها معاها

دارت الدنيا في أعين سمية، أسرع حمزه ووالده بإسنادها وإجلاسها على الأريكة، مرت دقائق من الصمت كأن على رؤوسهم الطير.

سمية بهدوء: وهتقوليلها إزاي ؟

عاد الأمل إلى قلب حنان لكنها تمتمت بحيرة: مش عارفة

اقترحت سمية: فيه دكتور نفسي كنا بنروحله عشان حالتها لما كانت مش بتتكلم، ممكن نسأله وهو يقولنا

أومأت حنان موافقة، نهض أحمد: هأروح أتصل بيه وأحدد معاه معاد

ذهبت نجلاء تعد عصير الليمون علّه يؤثر في الجميع ويزيل التوتر، عاد أحمد وقد حدد الموعد غداً في الثالثة عصراً.

سمية بذهول متألم: بسرعة كدا ؟

حمزه: أحسن حاجه ف الأمور دي سرعة التصرف وإنها تنتهي بسرعة عشان أعصابنا ترتاح

نهضت حنان بروية: استأذن أنا .. وأسفة على المشاكل اللي عملتها والقلبان اللي حصلكوا بسببي

لم تجبها سمية وإنما اتجهت إلى حجرتها في صمت غاضب، لحقها أحمد بعد أن طمأن حنان أن كل شئ سيكون على ما يرام.

ناولتها نجلاء نصيبها من العصير: أشربي دي هتريحك شوية

تناولتها حنان بلا شعور وبعد أن رشفت رشفة واحدة أعدته إلى الطاولة ونهضت، أمسكتها حياه قبل أن تسقط وقالت: أنا هأروح معاكي ما ينفعش أسيبك ف الحالة دي

نظرت إلى حمزه برجاء: بعد إذنك يا حمزه هأبات معاها إنهارده

أومأ موافقاً: ماشي مافيش مشكلة، هادخل أجيب المفاتيح من جوا وأجي أوصلكوا

أشفقت على حالها نجلاء أفاقها من ذلك رنين هاتفها، انسحبت لتجيب في المطبخ: أيوه يا فادي

- أرجع ولا إيه ؟ .. البت نامت خالص .. وما عادش فيه حاجه أكلها لها تاني

حاولت كتم ضحكتها: الله يجازي شيطانك .. خلاص أرجع .. أصلاً كل واحد راح ف جهة

- طيب، مسافة السكة

أغلقت الخط داعية أن تمر تلك العاصفة على خير.

****

طلبت حنان أن تنفرد بنفسها وأسرعت إلى غرفتها قبل أن تتسائل جدتها عما حدث، تشبثت الجدة بحياه تطالبها بتفسير للحالة التي عادت فيها حنان.

جلست تروي لها ما حدث وإكتشافها أن مي مي ابنتها، وحدت الجدة ربها باكية: لا إله إلا اللّه، ياعيني يا بنتي، بقى بنتك قدامك من فترة وإنتي ما تعرفيش ؟ .. لا حول ولا قوة إلا باللّه

- المهم ربنا جمعهم مع بعض

- الحمدللّه، بس هي ليه حابسه نفسها كدا ؟

- أكيد لسه مش مستوعبة اللي حصل

عقبت فتون التي انضمت إليهم في منتصف الحكاية: وأي عقل يستوعب اللي حصل دا ؟

تمتمت الجدة: ربنا يستر على البنت لما تعرف، يا حبة عيني حياتها كلها هتتشقلب

طمأنتها فتون: ما تقلقيش أكيد الدكتور هيعرف يوصلها الموضوع بطريقة ما تأثرش على نفسيتها، كمان البنت بتحبها أووي ودي أهم حاجه

طلبت حياه من الجدة أن تذهب وترتاح فالغد يحتاج طاقة أكبر مما احتاجوه اليوم، رافقتها فتون لتعطيها دواءها وتتأكد من عدم احتياجها لشئ قبل النوم.

دق هاتف حياه معلناً عن وصول رسالة نصية، فتحتها لتجدها من حمزه ونصها: "نمتي ولا لسه ؟"

أجابته وهي تبتسم دون أن تشعر: "لسه"

بعد ثواني وصلتها الرسالة التالية: "هي عامله إيه دلوقتي؟"

- "الحمدللّه، اتعشيت؟"

- "لا"

- "ليه؟؟"

- "عشان إنتي مش موجوده تحضريلي العشا :("

- "ههههه طب ما تحضره لنفسك .. هو سندوتش الجبنة بقى أزمة؟"

- " طب مين يفتحلي نفسي؟ .. إنتي اتعشيتي؟"

- "لا"

- "يبقى تخرسي خالص وتقومي تتعشي .. ما تعصبنيش !!"

- "ومين يفتحلي نفسي؟ :("

- " بت أتلمي!، مش في الرسايل كمان حرام عليكي .. أنا على أخري وممكن أجي أخدك دلوقتي ونطلع على "(; بيتنا كمان .. مش أوضة النوم وصلت؟

- "اتلم يا قليل الأدب :P"

غرقت في موجة من الضحك أتت على أثرها فتون، جلست إلى جوارها باسمة: يا سلام يا سلام ع الروقان، ما ضحكتك حلوة أهي .. كنتي حرمانا منها ليه؟

وضعت الهاتف جانباً وابتسمت: إن شاء الله مش هأحرمك منها تاني .. المهم إنتي أخبارك إيه؟ .. حياتك استقرت ولا لسه؟

لمعت عيونها بسعادة: ما تعرفيش قد إيه مرتاحة ومبسوطة دلوقتي .. بأمانة ربنا عوضني بيكوا

غمزتها: أمانة أمانة يعني ؟؟

قهقهت فتون وبرقت عينيها: أيوه أمانة

- ليكوا نفس تضحكوا من غيري ؟

نظرتا إليها بخجل، اعتذرت فتون بحياء: أسفة يا حنان .. إحنا مش ..

ألقت بجسدها المستهلك بينهما على الأريكة وهي تضحك ضحكة جوفاء، قالت تخفف عنهما الحرج: أنا مش زعلانه إنكوا بتضحكوا .. أنا زعلت أنكوا ضحكتوا من غيري .. طب كنتوا نادوا عليًا أضحك معاكوا

نظرت لها حياه ثم نظرت إلى فتون تلك اللفتة التي تسأل هل فقدت عقلها أو أنها أعطته إجازة لفترة ما ؟؟، لاحظت حنان ذلك فبررت متنهدة: اللي خلاني انعزل وأقعد لوحدي .. إني أتوقعت كل واحدة فيكوا هتقولي معلش وطولي بالك ولعله خير .. إلى أخره من الكلام دا .. اللي لا بيقدم ولا بيأخر .. ما أنا عارفه أنه معلش .. وأنا بالي طويل ولله الحمد وحتى لو قصير هيجرا إيه مثلاً ؟.. هتدخلوا تلاقوني معلقة نفسي بكرافته نسيها خليل هنا عشان أحسسه بالذنب يعني ؟؟ .. وأنا ثقتي بالله أكبر من إني أشك أنه اللي بيحصل معايا دا مش خير

نظرت إليهما بعتاب: بس لو أعرف أنه في القاعدة دي ضحك وفرفشة أنا ما كنتش اتخليت عنها أبداً ..

تبادلن إبتسامة صغيرة، وانخرطن في الحديث حتى بكين من كثرة الضحك، في البداية كانت ضحكة خالية من الضحك .. تلك الضحكة التي تبدي أسنانك خلالها وتكون شفتيك على إتساعهما .. فقط لتُنسيك وجعك حتى وإن كان سببها أكثر الأسباب تفاهة في العالم .. لكن سرعان ما نسين كل شئ في العالم إلا تسامرهن، حنان اعتادت على الإختبارات .. لم تعد ترهقها كما السابق فهي تعلمت عن ظهر قلب أن التوكل على الله وترك الأمور لتسير كيفما اختارها هي أسلم الطرق وأكثرها ملائمة للمرء .. توقفت عن تشغيل فكرها فيما ليس بيدها، لكن ظل عقلها يفكر في أمر واحد .. كيفية إخبار خليل بما استجد.

****

أتى الموعد مع الطبيب النفسي بطيئاً، اختفت الضحكات كأن ألف ليلة قد مرت عليها من الشقاء ليس فقط سطوع شمس يوم واحد جديد.

توجه حمزه برفقة والديه ومي مي إلى عيادة الطبيب فيما ظلت حياه برفقة حنان في إنتظار الأخبار، جلس الطبيب في البداية معهم يتحدث إليهم ويلم بالموقف بأكمله ليحدد أنسب وضع وأسلم طريقة لتوصيل الأمور إلى عقل مي مي بطريقة يستطيع عقلها تقبله.

علق الطبيب بعد أن أنهوا حكايتهم: إمممم، هأتكلم معاها الأول لوحدنا وبعدين أقولكوا إيه اللي هنعمله

صمتوا جميعاً وخرجوا لتدخل الممرضة برفقة مي مي ضاحكة ومستمتعة بما حصلت عليه من حلوى، جلست أمام الطبيب الباسم يسألها بنبرة حانية، فهي في عمر أصغر أحفاده: إنبسطي مع عبلة برا ؟

نظرت إليه مستغربة: عبلة مين ؟

اتسعت إبتسامته: بقى أخدتي كل الحلويات اللي معاها وما تعرفيش اسمها ؟

هزت كتفيها بلا مبالاة: هي ما قالتش، وميس حنان بتقولنا إنه مالناش دعوة بحد .. لو حد عايز يقولنا حاجه نسمعله لو مش حابب نسيبه براحته

اعتدل في جلسته فقد سهلت عليه أغلب الطريق، سألها مستفهماً: مين ميس حنان دي ؟

برقت عينيها وابتسمت فرحة: دي مُدرسة الدين اللي بتديني .. وصاحبة حياه مرات حمزه بردو

نزع زوج العيون الإضافية التي توضح الرؤية أمامه وشرع في تنظيفها مدعياً عدم الإنتباه بينما يترقب ردود أفعالها من طرف عينيه: وبتحبي ميس حنان على كدا بقى ولا إيه ؟

هزت رأسها بقوة: أيوه، بأحبها أووي .. بتلعب معايا في الفسحة وبتجبلي حاجات حلوة كتير .. كمان بتحضني لما بأعيط وبتاخدلي حقي من اللي بيضايقني

ثبت نظارته: طب وهي عندها أولاد ؟

شردت تحاول التذكر ثم أجابت يائسة: لا .. أنا ما شوفتش معاها حد ولا هي قالت

اقترح: إيه رأيك لو ميس حنان دي بقت ماما .. هتتبسطي ولا تزعلي ؟

أطرقت رأسها تفكر ثم أجابت بتردد: أنا بأحب ماما سمية بس .. بس لو ميس حنان كانت ماما أنا مش هأزعل وهأبقى مبسوطة

أضافت كأنها شعرت أنها غادرة: بس بردو هأحب ماما سمية أووي

أومأ الطبيب برأسه يطمأنها، ضغط على زر بجوار يده الموضوعة على المكتب فلبت الممرضة نداءه، أمرها بحزم: خلي الجماعة يدخلوا

أضاف باسماً: وخدي مي مي وجيبلها حاجات حلوة على حسابي .. هدية مني ليها

انصرفت الصغيرة سعيدة بحصيلتها لهذا اليوم غير عابئة بجو التوتر المحيط والذي تسببت فيه، جلس الجميع أمام الطبيب في حالة من الترقب ليس لها مثيل، بعد دقيقة بدأ حديثاً جدياً: الواضح إن البنت متعلقة بيها جداً وما عندهاش مانع أنها تقبلها كأم ليها ..

أحست سمية بخنجر الغدر يندس بين طيات قلبها؛ للحظة الأخيرة كانت تقنع نفسها أن مي مي لن تقبل بأم غيرها لكن خاب أملها، سأله أحمد: يعني حضرتك شايف نقولها أمتى الحقيقة ؟

طرق بقلمه فوق سطح المكتب: لو حابين تقولولها دلوقتي مافيش مانع

هتفت سمية بعصبية: بسرعة كدا ؟؟ .. مش هتتأذى كدا ؟؟

وضع حمزه يده على مرفقها: الأحسن أننا نحسم الموضوع، ف الأخر كدا كدا هتعرف

أعاد الطبيب: زي ما قولت لحضرتك إنه هي عندها استعداد تام إنها تقبلها فأكيد مش هيأذيها دا ف حاجه

استفسر حمزه: طب ومين أحسن شخص يقولها ؟

مال الطبيب إلى الأمام في كرسيه وعقد أصابع كفيه: الأفضل تكون مدام سمية هي اللي تقول ودا طبعاً ف وجود الأستاذة حنان ..

هبت سمية واقفة بغضب: لا كدا كتير، أنتوا مش ملاحظين أنكوا بتضغطوا عليًّا بزيادة ؟؟

نهض أحمد يحاول إمتصاص غضبها حتى استكانت وعادت للجلوس فأكمل الطبيب حديثه موضحاً الحالة بشكل أكثر شفافية: لما سألت مي مي إذا كانت ممكن تقبل حنان أم ليها قبلت وبعدين بدأت تحاول تثبت إنها بردو بتحبك، كأنها بالظبط متخيلة الحالة اللي حضرتك فيها دلوقتي .. مش عايزة تزعلك منها وف نفس الوقت مش قادرة ترفض الفكرة اللي قدمتهالها .. عشان كدا إنتي أنسب واحدة تقولها لأن دا هيثبتلها أنك مش هتضايقي منها لو قبلت بالوضع الجديد .. وهيديها الأمن واستقرار أكبر

أضاف ضاغطاً على وترها الحساس: وأعتقد اللي يهم حضرتك بشكل كبير أنه ما يحصلش توتر ف أعصابها ولا إنها تبقى محتارة كأنها واقفة بين نارين وهي لسه ف العمر دا

رأى الحزن والحيرة على وجه زوجته فشكر الطبيب وودعه على وعد بإطلاعه على ما يستجد على الوضع.

****

الإنتظار يجعلك تتقلب على النار كقطعة لحم تتلظى فوق النار أثناء الشواء، محققاً المثل القائل "وقوع البلاء ولا إنتظاره".

كانت تروح وتجئ في توتر، حياه ومعها الجدة تنظران لها بلا حول ولا قوة، فكيف ستطلبان منها الهدوء وهما على وشك اللحاق بها من فرط عصبية الترقب.

نهضت الجدة مستغفرة: أنا هأدخل أقرا قرآن يهون علينا اللي إحنا فيه دا

بعد فترة استدارت لها حنان متسائلة: هو حمزه لسه ما اتصلش ؟

هزت رأسها نافية: لسه

أشارت إلى هاتفها الموضوع على الطاولة: طب ما تشوفيهم اتأخروا ليه !

رفضت بهدوء: هو قال لما يخلصوا هيتصل ويقولنا، وبعدين إنتي عارفه الموضوع مش بسيط ولا سهل .. دي حياتها كلها هتتشقلب ..

أومأت متنهدة: أيوه، ربنا يستر

- إن شاء الله

مرت نصف ساعة أخرى قبل أن يحضر حمزه ليخبرهم بما حدث، بكت حنان بحرقة لا تدري من سعادتها لدنو اقترانها بابنتها إلى غير رجعة هذه المرة أم حزناً ولوعة لسنين الفراق الطوال؟

الجدة متوجسة: طيب وماماتك هتقولها فعلاً ؟؟

أخفض رأسه بلا حول: والدي روح معاها وكان بيحاول يقنعها، هيفضل وراها لحد ما تلين، هما يومين تلاته بالكتير إن شاء الله

صاحت حنان بشراسة ودموعها لم تجف بعد: هي فاكرة نفسها إيه ؟؟ .. دي بنتي أنا، يعني ممكن بكل سهولة أخدها بالبوليس وبالقانون بس أنا اللي مش حابه أعمل مشاكل

هب واقفاً وقال بهدوء: بالعكس إنتي لو عملتي كدا يبقى أكبر غلط ف حياتك، تفتكري بنتك هيبقى إحساسها إيه لم تتسحب فجأة من البيت اللي بقالها سنين عايشه فيه .. لا وبالبوليس كمان ! .. هتحبك وقتها ؟؟؟

أمسكت حياه بساعدها وعاونتها على الجلوس: إهدي يا حنان، ما تضيعيش كل حاجه ف لحظة غضب، إنتي صبرتي حوالي ست سنين مش قادرة تزودي عليهم كمان يومين؟

أخفت وجهها بين كفيها: يا عالم حرام، حسوا بيا !، دي بنتي .. نفسي أخدها ف حضني وهي بنتي مش تلميذتي ..

بكت الجدة على مشهد حفيدتها، لم ترها ضعيفة إلى تلك الدرجة منذ اختفاء ميّ، نظرت حياه إلى حمزه بيأس تحاول الإستعانه به لكن ليس بيده شئ.

****

توقف صوت دقات الساعة المعلقة على الجدار عن الوصول إلى مسامعها، بهت الضوء كأنه يأتي من مكان قصي ليس من المصباح الواقع فوق رأسها

بعدة سنتيمترات، نظرت إلى كفها وقد علقت به كتل الشعر المتساقطة بين أصابعها نتيجة تخللها لخصلاته.

بكت وانتحبت، اختفت فجأة رباطة جأشها .. يقينها .. كذلك حمدها، فلم يكتفِ مرضها بالإضافة لعلاجه الكيميائي بالعطب الذي حدث في نفسيتها وتذبذب حياتها بل أثر على أجمل ما فيها .. جدائلها الحريرية.

أرادت الإنعزال فعرجت إلى حيث صندوق الكهرباء الخاص بالشقة، قطعت التيار عن سائر الشقة كأنها تخفي شخصها بين طيات الظلام وحنايا العتمة.

وقع إختيارها على أشد الغرف إظلاماً وركعت بها تفض ما بداخلها من بكاء تحاملت تخفيه الأيام الماضية، عاد اليأس يحتل خلايا عقلها حتى أدخل فكرة لا تمت إلى الإيمان بصلة ! .. إنه الكفر عندما يطرق باب قلب نسى أن في ذكر اللّه يطمئن القلب والوجدان .. يعقبهم العقل.

عادت تتحس طريقها إلى الحمام، أخرجت علبة الدواء الذي وصفه لها الطبيب ونظرت إليه حانقة جاحدة حدثته نفسها الأمارة بالسوء داخل عقلها: أنت من يتسبب في عذابي، تقتلني رويداً رويداً .. تبدأ بوأد مفاتني .. لتتسبب في إحراد زوجي عني ثم تأتيني بالضربة القاضية وتُجهز عليَّ .. لتكون تلك النهاية، لن تستمتع برؤية عذابي.

أمسكت كأس الماء الموضع على طرف الحوض حيث تستخدمه للمضمضة عقب غسيل الأسنان، أفرغت الدواء في كفها الصغير المتورم في بعض أجزاءه نتيجة العلاج.

أدنت الحبوب من فمها لكن فجأة تعالى صوت رنين هاتفها المحمول، نظرت لتجد هاتفها على الطرف الأخر من الحوض .. متى جاء إلى هنا ؟ .. نظرت حولها في يأس، لقد تناثرت الحبوب على أرضية الحمام.

رجع نظرها إلى الهاتف وبعد تفكير قررت رؤية ممن جاءت الرسالة؛ حتى إذا كانت من فادي تطمأنه فلا يقلق وينتبه إلى عمله .. فتحتها لتجد نصها كالآتي:

"مش عارفة ليه .. بس جيتي على بالي فجأة .. افتكرت أول يوم ليكي في العيادة وعدم رضاكي عشان كدا اقري الدعاء دا يا بنتي ربنا يصلح أحوالك .. اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى .. لا إله إلا اللّه واللّه أكبر، لا إله إلا اللّه وحده، لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، لا إله إلا اللّه له الملك وله الحمد، لا إله إلا اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه"

نظرت إلى اسم الراسل لتجده "ماما سحر"، إنها السيدة التي أقعدها المرض، تذكرت حين أعطتها رقم هاتفها في حال احتاجت شئ، أعادت قراءة الرسالة عدة مرات والدموع طفر من عيونها.

اتجهت إلى الغرفة وجلست تجمع شتات بالها، وبعدما هدأ حالها إلى درجة تجعل صوتها يخرج واضحاً اتصلت بمرسل الرسالة، أجابها صوت لم تكن تعرفه.

- السلام عليكم .. مدام سحر معايا؟

- لا أنا الممرضة، أي خدمة ؟

- ممكن أكلمها ؟

- مع الأسف لا ، هي مش هتقدر تتكلم و ..

سمعت همهمات على الطرف الأخر أعقبها تنهد الممرضة وقولها: ثواني هأديهالك بس ياريت ما تطوليش معاها عشان ما تجهدش نفسها زيادة

أومأت كأنها ستراها عبر الهاتف، سمعت صوت ضعيف يكاد يُسمع: آلو .. نجلاء ..

- ماما سحر ؟

- إزيك يا بنتي؟

- إنتي إيه اللي خلاكي تبعتيلي الرسالة دي ؟ .. وبعتيها إزاي وإنتي مش قادرة تتكلمي حتى !

- الممرضة ربنا يكرمها هي اللي كتبتها وأنا ملتها ..

أضافت بعد هنية من الصمت: جيتي ف بالي فجأة وقلبي كالني عليكي بس ماكنتش قادرة أتكلم فبعتلك الرسالة دي

- بس .. بس إشمعنه الدعاء دا بالذات ؟؟

- دا دعاء كنت بأقوله دايماً، بأخاف أنه المرض والشيطان يوصلوني لليأس من رحمة ربنا وإني أعمل حاجه أندم عليها بس الحمدللّه

- إنتي عارفه أنا كنت هأعمل إيه لما جاتلي رسالتك ؟؟ ...

ساد الصمت لحظات عادت بعده نجلاء: أنا كنت ..

قاطعتها بحزم وإن كان ضعيفاً لضعفها: مش عايزه أعرف، دي حاجه بينك وبين نفسك وربك .. ربنا يصلح أحوالنا جميعاً يا بنتي .. مهما كان اللي كنتي هتعمليه .. إنتي خلاص ما عملتهوش يبقى تقفلي عليه وأنسيه كأنه ماكانش .. قومي أتوضي وصلي .. استغفري ربنا واطلبي منه العفو .. بلاش تضيعي ثواب الإبتلاء عشان لحظة ضعف !، صدقيني وكوني على يقين .. إنه ربنا هيعوضك بأحسن من كدا واللي ينسيكي كل اللي حصل

وبعد سلامات معتادة أعقبت ذلك الحديث نتيجة إصرار الممرضة أن هذا يكفي بل ويفيض، نهضت عملاً بنصيحة صديقتها المريضة، توضأت ووقفت بين يدي اللّه تطلب العفو والسماح على ما كانت على وشك إرتكابه .. راجية أن يمدها بالصبر والجلد.

****

مضى يومان حتى حان موعد الحقيقة ووضع الأمور في مناصبها، جلست سمية على يمين الأريكة التي تحتلها حنان وقد كاد فؤادها يوشك على التوقف من التوتر، أتت مي مي بإبتسامتها السعيدة وأجلستها سمية على طرف المنضدة أمامها وتناولت يديها بين كفيها.

نظرت سمية إلى حنان تتمنى أن تطلب منها التوقف وعدم إخبار ميّ الحقيقة لكن هيهات فقد سبق السيف العذل وأتخذت حنان قرارها.

حملقت سمية في الصغيرة وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تبدأ: إيه رأيك يا مي مي ف ميس حنان؟ .. بتحبيها ؟

ألقت نظرها على حنان وأتسعت إبتسامتها: أيوه بأحبها أووي

بادلتها حنان البسمة فيما عضت سمية على شفتيها ولكنها أكملت: بتحبيها لدرجة إنك ممكن تروحي تعيشي معاها ؟

أطرقت ميّ لحظات تُفكر حتى اهتدت إلى قول: أيوه .. هي بتحكي حواديت حلوة أوي .. هتحكيلي حدوتة قبل ما أنام وهتلعب معايا كتير .. وهنروح المدرسة كل يوم سوا

قررت رمي قنبلتها مرة واحدة فقد استفزها موافقة ميّ على تركها بهذه البساطة: طب ولو قولتلك إن حنان تبقى مامتك الحقيقية وإنها عايزاكي تروحي تعيشي معاها هتقولي إيه ؟

بدلت نظراتها بينهما في صمت، لم يستوعب عقلها الصغير ما قيل لها، تدخلت حنان باسمة بقلق وريبة، ملست على غدائر صغيرتها: أنا كان عندي بنت أمورة أووي، كان كل اللي يشوفها يحبها وما يبقاش عايز يسيبها .. لحد ما في يوم عيد ميلادها لما كان عندها أربع سنين روحنا نشتري حاجات لحفلتها .. وأنا بأدفع الحساب سَهتني ومشيت، دورت عليها ولفت عليها كتيررر .. بس بردو مالقتهاش ..

أكملت سمية الحكاية: وكنت أنا ماشيه ومعايا بابا أحمد، لاقينا بنت صغيرة أمورة أوي قاعدة ع الرصيف بتعيط .. ما كانش بعيد أوي عن المكان اللي كانت فيه ميس حنان .. بس عقبال ما كانت هي وصلتله

والبوليس كمان .. كنا إحنا خدناها معانا، غلطتنا إننا حبناها فمارضيناش نوديها للبوليس .. خوفنا يعاملوها وحش أو مايكونش ليها أهل فتتعذب .. فقررنا نربيها ونراعيها .. بس مامتها أخيراً عرفت مكانها وعايزاها ترجع معاها .. إيه رأيك ؟

تعلقت نظرات ميّ وحنان ببعضهما، واحدة لا تظهر أي تعبير والأخر تتوسل راجية، تمتمت أخيراً: يعني إنتي ماما الحقيقية ؟

أرتعشت شفتاها وكستها دمعاتها فأكتفت بإيماءة من رأسها، ألقت ميّ جسدها الضئيل بين أحضان أمها وطوقت عنقها بذراعيها حتى كادت تفتك بأنفاسها.

لم تهتم حنان بأن تأخذ حاجتها من الهواء يكفيها وجود ابنتها بين ذراعيها بعد طول الإبتعاد، هتفت ميّ لتزيد من دموع أمها بالإضافة إلى فرحتها: ماما

بكت سمية على ما رأته عيناها، قبل الآن بلحظات كانت ما تزال مصرة على عدم معرفة ميّ للحقيقة ولكن منطق زوجها بأن الحق سيظهر في يوم ما سواء بإرادتها أو برفض منها، إنما وقتها ستكون هي الجانية وسيؤدي حنق حنان عليها أن تمنع عنها ميّ وحتى مجرد رؤيتها .. وهكذا حتى رضخت ووافقت على تلك الجلسة، وعندما رأت إنفعالات الأم وابنتها رق قلبها وأعطى قلبها الموافقة التامة لما قالته.

استدارت حياه تخفي تأثرها ودمعاتها بين ثنايا قميص زوجها، لقد أتفقت مع زوجها وحميها على الوقوف بعيداً ليتابعوا ما يحدث ويتدخلوا إن لزم

الأمر فما تزال سمية غير مقتنعة وقد تقول ما ليس عليها قوله بسبب حبها وتعلقها بميّ، لكن الوضع أتخذ منحنى يُدمي القلوب ويُلين أقسى النفوس.

ردد لسان حال أحمد: الحمد لك يا اللّه كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

****

سار في الطريق المهجور حتى من كلب قد يكون مسعوراً، لا يكسر ظلمة الليل فيه إلا بضعة أعمدة إنارة على مسافات متباعدة وضوء القمر الذي فجأة أختفى خلف السحب معلناً تمرده ورفضه لإنارة الطريق أمام هذا الملعون.

واضعاً يديه في جيوب سترته وقد أخفى رأسه ووجهه أسفل قلنسوة سترته، يسرع خطاه خوفاً من أن يُقبض عليه بالجرم المشهود.

وقف في فناء مبنى جديد دلالة على أن المنطقة قيد الإنشاء وستعج بالناس في القريب العاجل أو البعيد .. أجرى بصره ذهاباً وإياباً على المحيط حتى تأكد له عدم وجود مخلوق وأن عيناً من العيون لم تلمحه .. فصعد الدرجات درجتين درجتين بنشوة قاتل يمشي في جنازة المقتول.

طرق الباب ثلاثة طرقات بنغمة معينة وبدقيقة محسوبة بين الطرقة والتي تليها حتى فُتح الباب وسمح له الفاتح بالولوج.

تبعه إلى غرفة في أقصى الشقة يغمرها الظلام كالعادة إلا من مصباح يصب الضوء عليه دون غيره وأحياناً على الذراع الأيمن لرئيسه.

حدثه فواز ببرود: عايز تشوفنا ليه يا شادي ؟

أسقط شادي قلنسوته وحك رأسه تائهاً: هو مش حضراتكوا عارفين اللي حصل بردو ؟؟

بنفس النبرة: وإيه اللي حصل ؟

- بوليس الأداب عمل كابسه ع الفندق الجديد اللي روحناه، والبت فتون هربت .. والباقيين والجداد اتقبض عليهم

- وعايز مننا إيه دلوقتي ؟

- عايز مساعدتكوا عشان أرجع أقف على رجليا تاني

نهض فواز من مقعده وأتجه إليه بتؤده، دار حوله ووقف خلفه تماماً، همس بصوت قوي مخيف: أنت بقيت كارت محروق يا شادي .. خطر ولازم نخلص منه

أرتعش جسده خوفاً من مدلول كلامه وتأتأ في الحديث دون أن تخرج منه كلمة واحدة ذات معنى.

لم يلحظ ضغط رئيسه الجالس في الظلام على زر ما أعقبه دخول رجلين من لاعبي كمال الأجسام .. أقتربا منه وأمسكا بتلابيبه.

أمرهم فواز بقسوة: خدوه من هنا وخلصوا عليه ف أي حته وأرموه لكلاب السكك تنهش ف لحمه

أطاعه الرجلين في صمت وصحباه إلى مكان لا يعلم عنه أحد ولا يُسمع فيه صرخة وإن دوت أسبوعاً متواصلاً .. كاتمين أنفاسه مانعين عنه حتى حق الصراخ.

إن الدنيا دوارة .. وكما تُدين تُدان، لقد كتم صراخات العديد من الفتيات المتوسلات منه الرحمة لكنه صم أذنه .. تسبب في قتل بعضهن وإنتحار بعضهن دون أن يرف له جفن .. هناك قاض اسمه العدل .. لا يرد دعوة المظلوم إذا ظُلم ولا شكوة المقهور لكنه يُمهل الفرصة تلو الأخرى فإذا تاب وأصلح فقد أنقذ .. وإذا استمر وطلح فلا مفر من إقامة الحد عليه.

****

جلست بجوار حمزه في غرفتهما يتشاركان السعادة بما أنتهت إليه الأمور، فقد ذهبت ميّ برفقة والدتها على وعد بالزيارة والسؤال الدائم، والأكثر أهمية أن سمية ودعتها باسمة سعيدة لسعادتها يكفيها رؤيتها على فترات.

أسندت رأسها إلى كتفه متنهدة: أنا مش قادرة أصدق اللي حصل دا، خصوصاً لما قالت حنان أنها على طول كانت بتنادي ميّ بمي مي .. وماما سمية قالت أنها في الأول كانت بتناديها باسمها "ميّ" اللي كان مكتوب على السلسلة ما كانتش بترد

أومأ حمزه: ونجلاء بقت تناديها باسم الدلع مي مي .. وسبحان الله كانت بتستجيب للاسم دا كأنه الاسم اللي اتولدت بيه فبقينا كلنا نناديها بيه ونسينا اسمه الحقيقي

نظرت إليه: ولا لما من صدمتها إنها بعدت عن مامتها فمابقتش تتكلم ! .. الدكتور قالكوا إيه عن الحكاية دي صحيح ؟

- قال أحياناً لما تكون فيه صدمة أو حالة فوق احتمالنا .. بيبقى الجسم رد فعله مختلف .. فيه مثلاً حالات مرت باللي هي مرت بيه وتاهت من أهلها وأكتفوا بالعياط وممكن صريخ .. على شوية رهبة وخوف من الأغراب .. وقال تقريباً إنها كانت مدلعة أوي عند أهلها فبالنسبة لها اللي مرت بيه دا صدمة عمرها .. ودا كان رد فعل عقلها ورفض أنه يخليها تنطق لحد ما مرت بظرف كان لازم تتكلم فيه وإلا ممكن تفقد حياتها .. يعني غريزة البقاء حيه هي اللي رجعت لسانها يتحرك وتتكلم تاني

- سبحانك ربي .. لا إله إلا الله .. وربنا جمعهم بعد السنين دي كلها

شدها من خصرها إلى أحضانه متمتماً بعشق: بأقول إيه .. إحنا بقالنا فترة مالناش سيرة غيرهم إيه رأيك نتكلم عن نفسنا شوية ؟

رفعت رأسها إليه وقد أرتسمت إبتسامة صغيرة على زاوية فمها: مالها نفسنا ؟

ضيق حدقتيه وقال بجدية: العفش وصل والشقة اترتبت وكله تمام .. يعني مش ناقص غير الفرح ونبدأ نكبر عشنا الصغير .. ناوية تحددي معاده إمتى ؟؟

أطرقت قليلاً: بس أنت شايف الظروف تسمح لفرح دلوقتي ؟

قطب جبينه: ليه مالها الظروف ؟

هزت كتفيها وأبتعدت عن نطاق ذراعيه لتستطيع رؤية ملامحه بوضوح: يعني نجلاء ومرضها .. مش نستنى لحد ما نشوف هيحصل معاها إيه ؟

- على فكرة بقى نجلاء أول واحدة سألتني معاد الفرح إمتى .. وبعدين المرض وشفاءها منه بإيد ربنا وحده .. وأكيد مش هنوقف حياتنا عليه .. إزاي بنطلب منها تعيش حياتها وتنسى مرضها وإحنا هنوقف حياتنا بسببه ؟

لوت شفتيها: إممم خلاص ماشي .. بس فيه كدا خطوط عريضة وشروط عايزاها وبعد كدا نشوف ..

غمزها جذلاً: أنت تؤمر يا قمر .. بس أقول شرطي أنا الأول ! .. هنعمل الفرح ف بيت والدك في سوهاج !

نظرت إليه غير مستوعبة ما قاله: بجد .. ليه ؟

وضع يديه على كتفيها: أولاً عشان إحنا أتجوزنا من غير ما أهلك يحضروا ويشوفوا فرحتهم بيكي .. ثانياً مافيش حد هنا يقربنا .. يدوب ماما وبابا ونجلاء وكام حد معرفة كدا وقرايب بعاد وصحاب .. وحنان وميّ هيبقوا يسافروا معانا مافيهاش مشكلة .. لكن الدور والباقي على العيلة وعيلة العيلة اللي عندكوا ف البلد .. تقريباً قرايبكوا أكتر من عدد الزرع اللي ف بلدكوا أصلاً هههه

شاركته ضحكته، بينما أضمر في نفسه السبب الرئيسي لقراره ذاك بعيداً عن الأعذار الواهية التي لفقها؛ فالسبب الأهم هو نظرة الناس لها، يجب أن تتزوج أمامهم حتى لا يبقى لمخلوق سبب يذكرها من خلاله بما يسئ أو يعيب .. فهي زوجته ويهمه ألا تُجرح من نظرة أو كلمة قد تمس كرامتها وتؤذي أنوثتها.

****

أغلقت الكتاب وتركته إلى جوارها ثم أعادت الغطاء ليخفي جسد صغيرتها بعيداً عن هبات الهواء الغادرة، تأملتها فيما تغط في سبات عميق والراحة تستكين فوق ملامحها.

لقد منَّ اللّه عليها أخيراً بأن تبيت فلذة كبدها بين أحضانها ولو كان الأمر عائداً عليها لأقتلعت أحشاءها ووضعتها مكانهم حتى تحميها وتبقى بقربها.

ظلت تعبث بجدائل ميّ حتى سمعت جدتها تدلف إليها وتسألها همساً: نامت؟

أومأت في صمت والإبتسامة لا تغادر شفتيها، اقتربت الجدة وجلست على طرف فراشها: مش هتقولي لخليل عنها ؟

اعتدلت في جلستها شاردة: مش عارفه

لامتها: لا يا بنتي .. أي نعم أنا مش بأطيقه ولا بأقبله بعد اللي حصل .. بس دي بنته ومن حقه يعرف برجوعها ..

لمعت عيونها شراراً: أه بنته .. بنته اللي راح جاب غيرها ونسيها .. اللي مابقاش يسأل حصل إيه ف قضية إختفاءها .. اللي بقت مراته وبنته التانية واخدين مكانها كله

أشارت لها حتى تهدأ: ولو يا بنتي .. إنتي بنت أصول وعارفه الأصول كويس .. كمان دا مش عشانه لوحده دا عشان بنتك كمان .. هي ليها أب ولازم تعرفه .. سبيهم يحددوا مع بعض التواصل بينهم هيكون إزاي .. أنا مش بأقولك إرجعيله .. أنا بأقولك عرفيه اللي جد

زفرت بحدة وأيدت رأي جدتها، ستخبره من باب الواجب ليس أكثر ولكن إن حاول أن يسحب ابنتها منها ستريه حقاً ما يمكن لمخالب المرأة أن تفعل دفاعاً عن صغارها.

****

لا يدري كيف استطاع الفكاك، يبدو أن عمراً أخر قد كُتب له وليست تلك هي النهاية، ركض حتى كاد قلبه يتوقف عن الخفقان وأوشكت مفاصله على الذوبان.

استراح في منزل مهجور يبدو أن أحداً لا يقطنه وأنه تعرض لزلزال، بعد إلتقاطه لأنفاسه عاد للهاث .. لهاث الإنتقام .. متذكراً وجه رئيسه الذي أثناء محاربته للاعبي كمال الأجسام ضغط على زر الإنارة بدون قصد فتجلت أمامه معالم وجهه ومنحنياته.

تمتم بصوت لم يسمعه سوى نفسه وشيطانه: لسه مش دي النهاية .. لما نشوف مين اللي هيكسب في الأخر يا باشا أنت ودراع الكلب بتاعك رامز .. وأوعي يا حياه تفتكريني نسيتك .. دا إنتي بداية حسابي معاكي

اتسع فمه الغليظ بإبتسامة زادته بشاعة .. حقاً .. الشر يضفي على صاحبه قبحاً وبشاعة بالإضافة إلى أنه يملؤه من الدخل بالكثير من الدناءة.

****

أغلقت الجدة الغرفة عليها وعلى ميّ التي انصرفت تلهو بألعابها في عالمها الملائكي، وقفت تسترق السمع إلى الحديث الدائر في الخارج إلا أنها أنتبهت لجلوس ميّ تنظر إليها ببراءة فأنبت نفسها وأتجهت تشاركها اللعب فأي مثال هي حتى تعلم حفيدة ابنتها هذه التصرفات التي لا تليق.

أطمئنت إلى إختفاء ميّ بالداخل، فجلست أمام خليل بعد أن قدمت له كوباً من العصير المفضل لديه، سألها مترقباً: طلبتي أجيلك ليه؟ .. هدى عملت حاجه ؟

هزت رأسها: لا أبداً، هدى ما شاء اللّه عليها شاطرة ومؤدبة .. ربنا يخليهالك

أومأ مرتشفاً من كوبه القليل: ربنا يخليكي .. أومال إيه الموضوع؟

تململت قليلاً ثم تنهدت: فاكر ساعة لما سألتك عن السلسلة اللي كنت عاملاها لميّ ؟

انتبه لحديثه وزاد تشوقه لمعرفة الآتي: أيوه ..

تابعت مبتلعة ريقها: أنا سألتك عشان شوفت بنت عمرها من عمر ميّ وكانت لابسه زيها بالظبط

أضافت بعدما لمحت دهشته واتساع عيونه: واسمها ميّ بردو

همهم بصوت بالكاد استطعت تفسير حروفه: وطلع مجرد تشابه ؟

هزت رأسها: لا طلعت هي نفسها ميّ بنتنا

شحب وجهه كأن أحدهم سحب الأكسجين من الهواء المحيط به، وبعد أن أفاق من صدمته استفسر عن القصة كاملة وكيف حدث ذلك .. أخبرته بما روته لها سمية وأحمد قبلاً بالإضافة إلى شكوكها واكتشافها الحقيقة.

تمتم أخيراً: عايز أشوفها

نهضت في صمت وغابت دقيقة عادت بعدها وفي يدها كف طفلة لطالما أشتاق لمرأها تكبر أمام عينه.

ضمها في شوق وظل يبثها لوعته وحبه دقائق بينما هي متسمرة بين ذراعيه لا تبادله أياً من عواطفه لكنه لم يأبه لذلك يكفيه أنها بين ذراعيه من جديد.

طفرت الدموع من عيون حنان وحمدت الله أن قلبها لم يطاوعها على إخفاء الحقيقة عنه وإلا لكانت تتلوى الآن على جمر من ندم.

****

طلبت نجلاء من زوجها أن يعرجا في أقرب فرصة على تلك السيدة الطيبة سحر، فقد استبد بها القلق عندما علمت من الممرضة أنه قد مرت عليها الجلسة الماضية دون أن تحضر.

وافق فادي على تحقيق رغبتها، توجهت إلى الممرضة من جديد تطلب منها عنوان سحر لأنها تحاول الإتصال بها لكن الهاتف مغلق وليس لديها طريقة أخرى لتحصل على العنوان، رفضت الممرضة أن تعطيها أي معلومات فهي مريضة وتلك من خصوصيات المرضى، لكن بعد إلحاح أخبرتها أن الطبيب سمح بذلك فستعطيها إياه عن طيبة خاطر.

ابتهجت وقررت أن تطلب من الطبيب وتلح عليه فهي بالفعل تشعر بالقلق على سحر، ولن تنكر لها جميلها وما فعلته منها بفطرتها السليمة.

****

هاتفت شقيقتها تخبرها بقرار حمزه أن يكون الزفاف في منزلهم، فرحت لذلك زهرة بشدة فقد استوحشتها وتريد رؤيتها في أقرب فرصة، انتهت المكالمة على أن تخبرها حياه بما ترغب وستقوم هي بالتنفيذ حتى تحضر خلال عدة أيام.

أسرعت تهاتف حنان وتخبرها بالجديد، ابتهجت لها حنان كأنها شقيقتها الصغرى وجعلتها تقطعت وعداً بطلب المساعدة في أي وقت تشاء.

كانت تشعر بفرحة لا مثيل لها، أخيراً ستبدأ حياة جديدة مع من دق له قلبها حقاً، في غمرة سعادتها لم تشعر بعودة حمزه من عمله ومتابعته لتحركاتها العصبية السعيدة وكلامها المرتبك.

ارتسمت على ثغره بسمة صغيرة سعيدة، تذكر ما مرت به؛ هو حتى الآن لم ينسى من هربت من أجله وأخذ منها ما هو من حقه الآن، الغيرة تنهش أحشاءه لكنه يُخفف روع نفسه بترديد أنها معه هو الآن بكامل إرادتها وبهجتها دون إجبار من أحد بل والأهم بموافقة عائلتها وتأييدهم للرابط المقدس بينهما.

اقترب منها بعد إقتلاعه للظنون من منحنيات رأسه، ابتسم سائلاً: فاضلك كام واحد ما كلمتهوش ؟؟

أجابته ونظرها معلق على الدفتر المدون به أرقام الهواتف: لسه كتير

جلس إلى جوارها: طب إختارتي شكل الدعوات ولا لسه ؟؟ ..

رفعت إليه عيون تشع لؤماً: بكره هأروح مع نجلاء نختار ..

رفع ذقنها بطرف أصبعه: مش عارف ليه مش مطمنلك ...

وضعت يديها على كتفيه ونهضت تقف أمامه قائلة بجدية كأنه تحدث طفلاً يسألها لماذا لا نرى الهواء: بص يا حبيبي .. أنا كنت زي أي بنت في الدنيا بتحلم بزفة وكوشه وفرح والناس تيجي تباركلها ويفضلوا يهروها بوس لحد ما خدودها توجعها وبعدين صحباتها يوجوا يقرصوها ف ركبتها لحد ما تورم عشان "يحصلوها ف جمعتها" ..

أضافت على عجل: بس طبعاً يكون فرح مختلف .. ماحدش عمل زيه .. حب الإنفراد بالمناسبات بقى .. عُقد بنات بعيد عنك .. عشان كدا ناويه أعمل فرح إسبشيل .. ف كل حاجه فيه .. من أصغر أصغر تفصيلة لأكبر أكبر حدث

جذبها من خصرها لتسقط جالسة على ركبتيه، همس لها بصوت عذب يحمل الكثير من الحنان: أصلاً هيبقى إسبشيل .. عشان إنتي العروسة .. لأنه مافيش عروسة ف جمالك ولا حلاوتك .. ولا فيه عريس هيحب عروسته قد ما أنا بأحبك

دق قلبها معلناً هيجانه على الكلمة التي سمعها للمرة الأولى من الشخص الذي يهمه، حدقت به صامتة لا تتحدث، أدرك ما فعلته بها تلك الكلمة لكنه أكتفى بشبح إبتسامة على زاوية فمه؛ مؤجلاً الحديث في هذا الأمر إلى وقتٍ لاحق.

****

وصل فادي إلى العنوان وركن سيارته على جانب الطريق، ترجلت نجلاء وانتظرت زوجها ليلحق بها ويصعدا سوياً.

أمام الباب الشقة المطابق رقمها للموجود في العنوان .. دقت نجلاء الباب وابتعد فادي قليلاً حتى لا يُفاجئ من يفتح الباب بوجوده خصوصاً وإن كانت امرأة.

فُتح الباب وظهرت المرأة التي كانت ترافق سحر إلى العيادة، ابتسمت نجلاء وسألتها: هي مدام سحر موجودة ؟

ظهر الأسى على ملامحها وقالت بهدوء رزين: مدام سحر أتوفت إمبارح الفجر

وقع الخبر على نجلاء كالصيحة التي أهلكت قوم ثمود ، ارتعش جسدها وخارت قواها حتى كادت تقع أرضاً وتُصاب بالإغماء لو ركوض فادي إليها وقد أسندها وأجلسها على أقرب مقعد داخل الشقة.

ركضت المرأة تحضر كوباً من الماء كما أمرها، لم تشعر به وهو يمسح وجهها بالماء وينثر بعضه الأخر علها تفيق، فكرها كان مع ذكرياتها مع سحر؛ المرأة التي أنقذتها من إرتكاب خطيئة كبرى تحرمها الجنة وتجحمها النار.

عادت إلى رشدها ونظرت حولها لم يكن هناك إلا عدة نساء لا يكملن عشراً، سألت المرأة التي فتحت لها الباب بصوت واهن: أومال فين الناس اللي بتعزي ؟

لوت المرأة شفتيها: حضرتك نسيتي إنها ماكانتش عايشه هنا ؟ .. ومرضها خلاها مش قادرة تعمل صداقات مع الناس .. ودول يا دوب الستات اللي ساكنين في العمارة دي واللي قصادنا

شعرت أنها تائهة: طب وولادها ؟

أجابتها ساخرة: ولاد إيه يا مدام .. إحنا ف عصر عقوق الوالدين .. كل واحد ملهي ف شغله وحياته .. مافيش غير بنتها الصغيرة اللي سألت فيها وجت أول إمبارح .. قضت مع مامتها أخر ساعات ليها في الدنيا

سألها فادي هذه المرأة: أومال هي فين ؟

أجابته: دخلت تصلي المغرب وجايه .. هأروح أشوفهالكوا .. عن إذنكوا

كانت نجلاء قد استجمعت الباقي من قواها عندما اقتربت إليها فتاة في منتصف العشرينات وعلى شفتيها إبتسامة باهتة .. شعرت نجلاء أنها موجهة إلى زوجها أكثر مما هي موجهة إليها.

رحبت بهما: أهلاً، إزيك يا أستاذ فادي؟ .. أكيد حضرتك مدام نجلاء

كان تقريراً أكثر منه سؤالاً، تساءلت متعجبة: هو إنتي تعرفيه ؟

اتسعت إبتسامتها: طبعاً

وجهت نجلاء بصرها إلى زوجها حانقة متوعدة إلى حساب واعر، لكن إكمال الفتاة لحديثها أنقذه من أنياب ضابط الشرطة داخلها: أستاذ فادي هو السبب إني قضيت أخر ساعات لوالدتي في الدنيا معاها .. بجد مش عارفه أشكر حضرتك إزاي ؟

تحركت حدقتيها بينهم في عدم فهم، قضبت محتارة: إزاي ؟ .. مش فاهمة حاجه

أوضحت لها: أستاذ فادي كلمني أنا وأخواتي عشان نيجي نزور ماما –الله يرحمها- بس تذاكر الطيران كانت أغلى من قدرتنا .. فحضرته قالنا أنه هيتكفل بالمصاريف المهم نيجي وما نسبهاش لوحدها ..

زفرت بقوة متحسرة: بس هما ما رضيوش .. كل واحد قال شغلي وحياتي .. أنا ما قدرتش بصراحة لأنها كانت وحشاني أوي بس ماكنتش قادرة أجي عشان المصاريف وكدا .. خصوصاً إني لسه ما أشتغلتش .. ولاقيت عرض أستاذ فادي دا نجدة من السما .. والحمدلله أديني قضيت مع ماما أخر ساعاتها .. فرحتها إني لسه جنبها وما نستهاش

برقت عينيها حباً تجاه زوجها، لقد ظلمته رغم أنه فعل ذلك ليسعد المرأة التي تحبها ليس لسببٍ معين سوى تعلقها الشديد بالمرأة الطيبة.

أضافت الفتاة: أنا ماعرفتكيش بنفسي .. أنا ريمان .. معلش الاسم ممكن يكون غريب عليكي بس هو مشهور في اليمن

صافحتها نجلاء في حبور، فريمان تملك نفس ملامح والدتها وسماحة وجهها مما جعلها تشعر بالحب نحوها فوراً وتمنت أن تصبحا صديقتان.

سألتها نجلاء عن خططها في المستقبل بعد إنتهاء أيام العزاء، أجابتها بصراحة: ماما كان نفسها ترجع تستقر هنا على طول .. ولولا بابا –الله يرحمه- ما كانتش سافرت أصلاً، وبعد موته كان أخواتي أسسوا حياتهم هناك فما رضيتش أنها تسيبهم وترجع لوحدها ففضلت معانا هناك .. ولما عرفت بالمرض الدكاتره نصحوها تتعالج هنا أفضل .. خصوصاً إن الأطبه هناك مش متمكنين في الأمراض الصعبة اللي زي دي وكمان

تكاليفهم عالية .. ولولا إني كنت مشغولة ف أبحاث وحاجات متعلقة بدراستي كنت جيت معاها ولما خلصتها كانت مصرة إني ما أجيش وللصراحة أنا ماكانش معايا فلوس تكفي .. بس لما جيت وشوفتها مبسوطة بالبيت دا قد إيه، قررت إني هأعيش فيه .. أنا ماليش ف اليمن حد غير أخواتي وكل واحد في دنيته ومش في باله حد تاني .. فالأحسن أسس حياتي هنا وأكمل أبحاثي هنا

سألها فادي: يعني مش هتسافري تاني؟

أجابته: لا هأسافر .. أجيب حاجاتي وأخلص ورقي هناك وأرجع أستقر هنا

تناولت نجلاء كفيّ ريمان وابتسمت مشجعة: ربنا يوفقك .. ولو أحتجتي أي حاجه ما تتأخريش .. أنا هأعتبرك ف مكانة أختي .. لو دا ما يزعلكيش طبعاً

شددت على يديها: لا طبعاً، دا يزدني شرف

جلسا حتى ما بعد أذان العشاء وعندما هما بالمغادرة وعلى عتبة الباب، أوقفتها الممرضة التي تبسمت في وجهها تطلعها: مدام سحر كانت بتحبك أوي .. كانت بتدعيلك ف كل وقت وكنت بأسمع دعاها ليكي

أومأت لها نجلاء وتبسمت بينما أخرج فادي مبلغاً ليس بالقليل وأعطاه للممرضة بعد عناء في إقناعها أن هذا عرفاناً بجميلها وعنايتها بالسيدة الطيبة.

***

مدت يديها من نافذة القطار لتتلقفها كفوف زوجها، تشبثت به مانعة الدموع أن تطفر من مآقيها، رسم شبح إبتسامة مشجعاً: واللّه لولا الشغل ماكنت سيبتك تسافري لوحدك

ضربته والدته على كتفه مؤنبة: أومال إحنا رحنا فين يا واد ؟؟

نظر إلى والدتها معتذراً: مش قصدي واللّه .. بس ..

أومأ له والده متفهماً: خلاص خلاص، أمك فاهمة بس بتحب تستعبط ساعات

قطبت سمية حاجبيها: إيه تستعبط دي يا أحمد ...

قهقه الجميع، هدأتها نجلاء: معلش يا ماما .. بابا بيهزر معاكي

ثم استدارت إلى حمزه: خلي بالك على فادي .. لولا بس إني عايزه أشوف أهل حياه وبلدها ماكنتش سيبته لوحده .. يخربيت الشغل اللي مانعكوا من السفر معانا دا

ألتقط فادي كفيها ضاحكاً ولثم كلاً منهما بقبلة مُلتاعة: هأخلص الشغل على طول وتلاقونا أنا وحمزه ناطين فوق دماغكوا .. يادوب بس هما خمس أيام ونحصلكوا

حمزه مستديرة إلى زوجته: أنا مضطرة أفضل هنا عشان الشغل .. لأن الخمس أيام قبل الفرح دول هنحتاجهم ف شهر العسل ..

سألته نجلاء بحماس: صحيح هتقضوا شهر العسل فين ؟؟

لم يزحزح نظراته عن حياه: المكان اللي تأمر بيه أميرتي ..

ابتسمت حياه بحنان: نأجله شوية .. كفايه مصاريف الشقة والفرح اللي ما رضتش حد يشاركك فيها ولا حتى بابا

أجابها بجدية وعبوس: الفرح معروف من زمان أنه ع العريس والشقة أنا كنت شايل فلوسها من زمان .. يعني كدا كدا عامل حسابي .. وإن ما صرفتهاش على بيتنا هأصرف على إيه ؟

أدارت كفه وقبلته بحب: ربنا يخليك ليا

أرتفعت صافرة القطار معلنة موعد الرحيل والتوجه إلى سوهاج، تحرك القطار ونجلاء تلوح مودعة زوجها بينما حمزه مازال متشبثاً بيدي حياه، يخطو مع حركة القطار من فوق الرصيف .. وهمس بصوت لم تلتقطه سوى أذن حياه: عارفه أحلى حاجه ف إني مش هأسافر معاكي إيه ؟

نظرت إليه بضيق: إيه ؟

ضحك لما رأى غيظها: إن مافيش حد هيقولي " التذاكر يا أستاذ " لما أعمل كدا ..

قفز قفزة صغيرة ولثم وجنتها قبل أن يفلت يديها ويحط فمه بكفيه صارخاً: لا إله إلا اللّه ..

أخذتها الدهشة مما فعل فلم تجد في نفسها قوة سوى لتهمس بصوت شديد الخفوت: محمد رسول اللّه .. في حفظ اللّه

ضحكت نجلاء وسمية كذلك أحمد على فعلة حمزه، سرحت حياه متخيلة شكل حياتها مع حمزه إذا ظل يعاملها بتلك الطريقة .. وإن تغير ستظل تتذكر تلك الأفعال الصيبيانية لتخفف من وطأة أخطاءه لديها لتسامحه فوراً.

****

هلل الجميع لعودة حياه، استقبل أهل حياه عائلة زوجها بترحاب لم يسبق له مثيل حتى أنهم ظنوا بأنهم من العائلة الملكية بالمملكة البريطانية ليتم استقبالهم بتلك الحفاوة.

شعر فاروق بالفخر والإعتزاز عندما لمس ذلك الإحساس لدى عائلة زوج ابنته فهذا مدعاة الفخر والعزة، فإكرام الضيف واجب مفروض.

انشغلت حياه مع شقيقتها ونجلاء وزوجة أخيها عائشة في ترتيب شئون العرس، فيما اعتذرت لها سلمى فقد انشغلت بزوجها وبعض المشاكل معه ولا تريد أن تعكر عليها صفو سعادتها بحزنها ولوعة قلبها.

حزنت حياه لعذاب صديقتها لكنها تيقنت من جلدها فما بعد العسر إلا أيسر اليسر.

****

دخلت حياه غرفة أنس لتحادث حمزه وتطمئن على أحواله؛ فهي حتى الآن أكثر غرف المنزل هدوء، وجدته يتحادث عبر الشات مع فتاة بما يتخطى أداب حديث بينه وبين فتاة أجنبية عنه.

انسحبت من الغرفة حانقة فقد يأست من الحديث معه؛ فما يدخل عبر أذنه اليمنى يخرج عبر اليسرى كأنه لم يكن .. وعبرت عن ذلك لحمزه عندما لمح في نبرة صوتها الضيق.

- إمممم .. قولتيلي .. خلاص ما تقلقيش أنا هأتصرف

- ما أقلقش إزاي بس يا حمزه ؟!

- يا ستي براحه شوية .. قولت أنا هأتصرف إهدي بقى .. ما تنشغليش بحاجه إلا فرحنا وبس .. إتفقنا ؟

- أوووف .. طيب

- المهم .. جبتي اللبس الشفتشي والمفتشي ؟

- إيه اللي أنت بتقوله دا ؟؟!

- إيه يا بت .. والله لولا إني بأكلمك في التليفون كنت جبتك من شعرك .. يا وليه أنا جوزك .. ما يغركيش الفرح اللي بعد كام يوم دا .. دا أنا عامله لعبة عشان عندي بدله مش لاقيلها مناسبة تتلبس فيها فقولت استغل الفرصة وأعمل فرح عشان ألبسها بدل ما تاكلها العتة !

- لا يا راجل ؟؟

- لا يا بت .. يا مدامتي

- إيه مدامتي دي ؟؟

- يعني مراتي .. بس من باب التجديد خليتها مدامتي

- هههههههه .. طب يا هاسبانضي

- إيه هاسبانضي دي كمان ؟

- يعني جوزي .. بس من باب التجديد خليتها هاسبانضي

- بصي يا بنت الحلال .. إنتي مش في بيت أبوكي دلوقتي ؟

- أيوه

- بس كدا .. الحمدللّه .. خليكي فيه بقى وما أشوفش وشك تاني .. أنا قطعت علاقتي بيكي .. قال هاسبانضي قال .. اسمها هاسبندي يا جاهلة .. قتلتي الأنوثة منك للّه

- يا نهاااااار .. بتدعي عليا يا حمزه ؟؟!

- هو أنا أقدر يا مدامتي ؟ .. إمووووواه .. سلام بقى ورايا شغل .. هتقطعي عيشي

ودعته وأغلقت ضاحكة .. وقررت أن تسجد سجدة شُكر للّه عقب صلاة المغرب؛ تحمده فيها على رزقها بزوج يعوضها عما عاشته.

****

في اليوم الذي يسبق العرس، وصل حمزه برفقة فادي إلى سوهاج واستقبلهم أخوة حياه بالترحاب والأحضان.

انفرد حمزه أخيراً بأنس بعد طول عناء، جلس معه في حديث لا يحدث إلا بين الرجال، بدأه بتنهيدة جعلها على قدر المستطاع تُظهر حسرة على ما كان، فسأله أنس في فضول عن سببها فأجاب: أصلي كنت بأحب واحدة قبل حياه .. لكن النصيب بقى نقول إيه

فزع أنس: نعم ؟؟ .. يعني أنت مابتحبش حياه ؟؟

نظر إليه حمزه دون أن يلحظ هو ذلك: دي بنت كنت بأكلمها ع النت .. بس ربنا فرقنا وبعدني عنها .. وأديني أهو بأتجوز غيرها ...

استفسر أنس حانقاً: وبعدت عنها وما أتجوزتهاش ليه ؟؟

- ما أنت عارف، أي حاجه بتبقى في معصية الله لا بتدوم ولا بتعيش .. وأقل نفخة فيها بتتهدد خصوصاً لما يكون الطرفين فيها قلب بنت وقلب ولد

تنهد بقوة متابعاً: هي كانت غريبة عني .. ما تحلليش .. وكنت عارف أنه كلامنا غلط بس بردو استمريت فيه .. وفي الأخر قلبي أنكسر لما قالتلي أنها مش هتقدر تكمل معايا وأنها هتشوف غيري يخاف عليها .. عشان لو كنت بأحبها بجد كنت حافظت عليها من نفسي قبل الناس .. وكنت بعدت الشيطان عننا

سأله يخالجه خوف من الإجابة: طب وليه ما راجعتش نفسك ورجعتوا لبعض ؟

لا يدري من أين أتت تلك الدمعة إلى عيونه لكنه شعر بقلبه يتمزق، لقد أتقن التمثيل حتى أنه نفسه تأثر به .. عقد النية على التواصل مع شركة اكتشاف الوجوه الجديدة ذات الموهبة في التمثيل لأنه سيكتسح بشدة الأجواء ويصبح نجماً لامعاً ينال العديد من الجوائز التقديرية .. أفاق على تكرر أنس لسؤاله فرد متظاهراً بالألم واليأس: الموت كان سبقني ليها

كاد أن يقع أرضاً من فرط الضحك عندما رأى دمعة تهرب من عيون أنس لكنه تماسك قدر الإمكان وتابع بأسى وقد أمسك إحدى كتفيه بقوة: بص يا صاحبي .. نصيحة من واحد أوعى منك ومر بتجربة قاسية جداً، لو حبيت ف مرة بنت .. أوعى تغلط غلطتي وتكلمها وتقرب منها .. غير ف الحلال .. وإلا ربنا هيحرمك منها للأبد .. أبعد عنها وأدعي ربنا يجمعك بيها في إطار الزواج .. دا أفضل ليكوا

بعد لحظات طرقت زهرة الباب ووجهت حديثها إلى حمزه: بابا عايزك ف مكتبه

نهض ليلحق بها وقبل أن يغادر الحجرة استدار إلى أنس بطريقة دراميه يبدو عليه التأثر وقال: أوعاك يا صاحبي .. تعمل زيي

ثم خرج وأغلق الباب غير قادر على كتم ضحكاته أكثر، ابتسمت زهرة لحالة الضحك التي أنتابته دون أن تعي سببها، تركها ودخل إلى مكتب فاروق بعد أن رسم الجدية على وجهه محل الضحك.

ضربت كفاً بكف محوقلة وهي تدعو له بالهداية، انصرفت عائدة إلى شقيقتها لتُنهي معها ما تبقى من إعدادت ولمسات نهائية قبل مجئ الفتيات للإحتفال بليلة الحناء.

وقف حمزه أمام والد حياه الذي أمره بالجلوس ووجهه جامد كأن هناك ما يشغل باله ويقلقه، سأله مترقباً: خير يا عمي .. حضرتك طلبتني ليه ؟

انتبه له فاروق كأنه لم يشعر بدخوله ثم سأله مقطباً: أنت شوفت كروت الدعوة بتاعت الفرح ؟

نظر له حمزه لا يدري أين المشكلة: لا .. حياه قالت ما أقلقش وكفايه عليا الشغل والكام حاجه اللي كنت بأجهزهم ..

مد إليه فاروق بأحد الكروت وهز رأسه مشيراً له: طب اقرا كدا وقولي رأيك ..

تناول حمزه الكارت وقد ساوره القلق فلهجة حياه لم تطمئنه في حينه كذلك الآن معالم وجه عمه لا تنبأ بالخير .. اتسعت عينيه بشدة وتبادل النظرات مع عمه غير مصدقاً لما رأته أعينه.

****

اندمجت نجلاء بشدة مع الفتيات ذات البشرة القمحية نتجة شمس سوهاج الشديدة، كان أغلبهن قريبات إلى القلب يتملكهن الخجل بسهولة، أرتدى الجميع الجلباب الفلاحي كطقس من طقوس الحناء .. هكذا طلبت حياه من زهرة لتشيعه بينهن .. فلا تخجل فتاة لا تملك ثياباً تليق بالمناسبة من المجئ .. فرحت زهرة بشقيقتها وتفكيرها في مشاعر الأخرين ولبت طلبها عن طيب خاطر.

تفاوتت الألوان فيما تشابهت شكل الملابس، سعدت نجلاء بهذا الجلباب كثيراً فلأول مرة ترتدي مثله في حياتها .. كان باللون الأزرق تتناثر فيه زهرات صغيرة مختلفة الألوان وحجابها كان بلون واحدة من تلك الأزهار.

هتفت نجلاء بسعادة: حلو الفستان دا أووي

ضحكت عليها حياه وزهرة فيما تبسمت سمية وشاع الغمز واللمز بين بقية الفتيات، علقت حياه ضاحكة: اسمها جلابيه مش فستان .. أدي أخرت المدارس الأفرنجي

نظرت لها نجلاء بعدم فهم: يعني إيه أفرنجي دي يا حياه ؟

حدقت بها حياه غير مصدقة بينما اقتربت منها زهرة ووضحت بهدوء: يعني أجنبي

أومأت متفهمة وقد سعدت بالحياة الجديدة التي لم تراها سوى في الأفلام وعبر شاشات التلفاز.

بدأت إحدى الفتيات تغني بصوتها العذب والبقية يصفقن مندمجين مع الكلمات، حتى نهضت إحداهن وربطت إحدى الشالات حول خصرها وبدأت في الرقص فعلىَ ضجيج التشجيع.

****

أرتمى أنس على سريره حابساً دمعة حزن من النزول، لقد أنهى كل شئ مع من أحبها وتعلق بها، هو من أصلح علاقتها مع والدتها التي نصحته حياه بالإبتعاد عنها فهو أحد أسباب تأثر علاقتها مع أبناءها .. مما أشعره بالذنب وجعله يبحث عن أبناءها يتحدث إليهم ويوضح شدة حبها لهم وتعلقها بهم .. تأثرت ابنتها بحديثه فأعادت علاقتها مع والدتها بينما الأخرين استمعوا له ثم تجاهلوه .. لكن علاقته بتلك الفتاة توطدت حتى تحولت حباً لكن حديث حمزه أثر به وقرر أن يحافظ عليها فما بقي إلا عدة أيام على ظهور النتيجة من بعدها سيدخل في الثانوية العامة ليأتي بمجموع كبير يمكنه من دخول كلية الهندسة كما تمنى ثم وقتها يفكر في الإرتباط أو الزواج .. أما الآن فأي شئ يفعله لا يسمى إلا بـ "لعب عيال" كما يسميه البعض.

انقلب على جانبه الأيمن وغطى رأسه بالوسادة ليمنع ضجيج الطابق السفلي من الوصول إلى مسامعه حتى ذهب في سبات عميق، راضياً بقسمته مهما كانت.

****

أتى يوم العرس على الجميع بالنشاط والحركة، محمود وفادي يقفان ويتابعان وضع الطاولات والمقاعد كذلك المنصة المخصصة للعروسين فقد قررت حياه أن يكون العرس في المنزل، بينما سمية تشرف على الطعام وتجهيزه.

حياه مع زهرة ونجلاء يعدانها لليوم المنتظر فيما انشغلت عائشة بطفليها التؤام فكادت تفقد عقلها من بكائهما المتواصل دون توقف.

جلس حمزه يحلق له مُسعد ذقنه في حين يمازحه هو وأنس وكذلك عصام شقيق حياه الذي عاد فجراً من سفره بلا نية في العودة.

نظر حمزه من طرف عينه إلى مُسعد: المُنشد وصل ولا لسه ؟

سأل مُسعد مستفسراً: هي الساعة كام دلوقتي ؟

أجابه أنس بعد نظر في ساعة معصمه: الساعة واحده

فرد مُسعد على سؤال حمزه: يبقى لسه ماجاش .. هو قال جاي الساعة تلاته

انفعل حمزه بشدة: إزاي لسه ماجاش؟ .. هو مش عارف إننا هنبدأ الساعة خمسه ؟؟

نظر له عصام متعجباً: أنا أصلاً أول مرة أشوف ناس تتجوز ف النهار .. ماله الليل مش فاهم أنا

أجابه أنس: أصلهم حاجزين تذكرة في القطر الساعة تسعة .. عشان هيروحوا الأقصر وأسوان يقضوا شهر العسل هههههه

اهتزت يد مُسعد وكاد يجرح حمزه الذي صرخ به: يا ابني ركز، هتشلفطني وأنا فرحي بعد كام ساعة !

مُسعد متأسفاً: معلش بس اتصدمت .. أقصر وأسوان إيه اللي هتروحها في الصيف دي يا باشمهندس ؟؟ .. أنت مستغني عن عمرك ولا إيه ؟؟ دا إحنا هنا ومفرهضين .. أومال هناك بقى ؟؟ ..

ضحك أنس معلقاً: هيبقوا زي اللي راحوا خط الاستواء الساعة ١٢ الضهر هههههههه

شاركه الجميع الضحك إلا حمزه الذي استبد به الغضب: أعملها إيه ؟ .. هي نفسها تروح هناك وتقضي شهر العسل فيها !

عصام مفكراً: يمكن عشان بابا وماما قضوا شهر عسلهم هناك .. بس دول راحوا ف الشتا مش ف عز الحر يا مجانين هههههه

دفع حمزه بيد مُسعد بعيداً: يا ابني فتح هتعورني .. روح شوف المُنشد دا جه ولا لسه .. أنا مش فاهم لزمته إيه أصلاً .. ما دام مش عايزه أغاني كنا شغلنا كام شريط وخلصنا لازم مُنشد يعني ؟؟

وضع مُسعد كفه على كتف صديقه مقهقهاً: ولا الدعوة .. يا خبرررر.. أنا ماصدقتش عيني لما قريت اللي فيها

لوى حمزه شفتيه: عشان كدا ما خلتنيش أشوفها وراحت وزعتها هي ونجلاء .. وأنا اللي كنت فاكرها دعوة زي الدعاوي بتاعت الأفراح .. إلا لازم تحط التاتش بتاعها

غمزه عصام عبر المرآة: بس ما تنكرش إنه تاتش جامد .. أنا لحد دلوقتي محتار إزاي أختارت الكلام وعرضته بالشكل دا .. ماحدش يقدر يمسك عليها غلطة

دفعهم العريس عن طريقه: طب أوعوا بقى خلوني أخد شاور عشان ألحق أجهز وأبص ع السريع على الحاجه .. واستقبل الناس

ضحك مُسعد وذكره مغيظاً: اللّه يرحم أيام ما كنت بتقعد أسبوعين من غير حموم ويوم ما تلاقي كوباية مايه كنت بتوفرها لتاني يوم تشربها لو المايه قطعت

قذفه حمزه بالحذاء ورفع أحد حاجبيه محذراً وهو يحرك سبابته في وجهه: اتجنبني يا مُسعد أنا مش ناقصك الساعة دي

غرق الجميع في الضحك لكنهم أبوا إثارته أكثر حتى لا يرتكب ما لا تُحمد عقباه في غمرة التوتر وإنشداد الأعصاب كأوتار العود.

****

وقف حمزه وسيماً ببذلته السوداء وربطة عنق أشد سواداً يستقبل المدعوين بإبتسامة سعيدة مرحبة، يقف إلى جواره صديقه وأشقة زوجته كل واحد فيهم يرتدي نفس شكل رابطة عنق العريس لكن بإختلاف الألوان ففادي يرتديها باللون الأخضر الفاتح .. مُسعد باللون السماوي .. أنس باللون الأحمر القاني .. عصام باللون الرمادي وأخيراً محمود نفس لون شقيقه عصام ولكن أشد حلكة.

لم تخلو التهنئات من التعليقات على الدعوات وما ورد فيها، منهم من أخذها بمزاح والبعض لامه على ما ورد فيها لكنه لم يهتم يكفيه فرحة حياه بفعلتها وفرحته هو بها .. فهي كل يوم تثبت له عن سابقه أنها نعم الزوجة ونعم رفيقة الدرب.

أخيراً أتت اللحظة التي وقف فيها حمزه أسفل درجات السلم داخل المنزل والناس تصطف على الجانبين فيما هو يراقب محبوبته تهبط الدرجات رويداً رويداً متأبطة ذراع والدها الفخور بها أشد الفخر .. على ضربات الدفوف وإنشاد المُنشد ومن معه.

كانت تخطو بهدوء وقد أحاطها قماش ثوبها الأبيض شديد الإتساع بأكمامه التي تتسع حتى تضيق عند معصمها على شكل إسوار مرصع باللآلئ والخرز، ينسدل فوق وجهها قماشة من القماش الشفاف والمطرزة في رقة بنفس تصميم المعصم .. ترى عبرها خطواتها المتمهلة.

وصلت لأخر سلمة حيث سلمها والدها إلى زوجها والدموع تكاد تطفر من عيونه، يوصيه بها ويشدد عليه أن يحرص عليها كما شدد عليها تحمل زوجها في كل أحواله وإمتصاص غضبه فهي أصبحت معلقة برقبته إلى يوم الدين.

انتقلت ذراعها لتتأبط ذراع زوجها بعد أن رفع الحجاب ليكشف عن وجه بالكاد لمسته مساحيق التجميل فقد اكتفت بالكثير من المسكات والأقنعة حتى تعطي وجهها بريقاً أفضل من ألف لمسة مكياج .. وقد لفت

الحجاب بطريقة تقليدية ليس بها تعقيد واكتفت بتاج صغير أحتل مقدمة رأسها مثبتاً جمالها الملائكي.

لثم جبينها وهمس في أذنها بصوت أبح: أخيراً جات اللحظة دي يا مدامتي ؟؟

اكتفت بإبتسامة خجلى وسار معاً في إتجاه منصتهما .. حيث جلسا يستقبلان التهاني والدعوات الطيبة بالخير ودوام السعادة والحب بينهما، مرت عينيها على جميع الحاضرين حتى تتأكدت مما بغت فاتسعت إبتسامتها معلنة شدة سعادتها.

دنى منها حمزه وهمس إليها بخبث: إيه؟ .. بتتأكدي من الدعوة وإنها عملت مفعولها ولا إيه؟

أخفت وجهها في حضن فاطمة والدة سلمى التي جاءت تبارك لها وتخبرها بإقتراب وصول صديقتها وتتأسف نيابة عنها عن التأخير.

تقبلت حياه ذلك ببشاشة فيكفيها أن ترى صديقتها في النهاية مهما طال غيابها، بعدما انسحبت فاطمة عاد حمزه يهمس لها بما ورد في الدعوة فقد ظل يقرأها طوال الليل حتى غلبه النعاس والإبتسامة لا تغادر شفتيه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ندعوكم نحن المهندس:- حمزه أحمد العربي وحرمه المصون:- حياه فاروق حسين إلى تشريفنا بحضوركم الكريم حفل زفافنا ولكن في هذه رسالة رجاء، ليست أمراً يُأمر فيُطاع.

لقد توجنا الرحمن

بفتح بيت ينضم إلى عائلات الإسلام .. إبتغاء منا مرضاة اللّه

لنُنشئ بيتنا أساسه رضا القدير وحجارته من مودة ورحمة كما أمرنا الرضوان

أثاثه الحب والتسامح يجعله يُشع نوراً ووئام

وننجب أبناءً ينفعون دين الإسلام ويرفعون رايته في عُلاه

ينشرون جمال الطاعة في رحاب المولى المتعالى

لكن كيف لنا إتمام ذلك إن بدأنا بمعصية الحافظ المُغني ؟!

فتكونون سبباً في هدم منزل حديث الإنشاء نازعين منه حجر الأساس.

تصبحون السبب إذا أتت آنساتكم وسيداتكم .. إن كن زوجات أو بنات بملابس

تخجل أن تقف بها بين يدي اللّه .. ورقصات يخجل أن يراها رسولنا الكريم وشفيعنا العظيم

هذا عدا .. أنغام تأتي على هوى الشيطان والجان .. فلو انكشف لنا الحجاب لرأينا منظر تنخلع بسببه القلوب وتتطير له العقول وقشعر منه الأبدان.

فإذا كرهتم لنا السعادة والرخاء .. البهجة في أسعد ليالي الحياة

وأن يطوقنا الرحمن من عُلاه بالرضا والحفظ وإحاطة الملائكة لنا في أجمل ليالي العمر

فلكم أن تفعلوا ما تحبون .. لكن أعذرونا إن رغبنا في حفظ زواجنا بعيداً عن غضب الكريم ونقمة الحميد ...

ولكم منا أبلغ التحية وأحر الأمنيات .❤

بلغنا اللّه وإياكم أعالي الجنان.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. "

ختم حمزه ذلك بتعليقه: عملتيها إزاي يا أروبه ؟؟ .. هو أي نعم فيه ناس ما عجبهاش وماجاتش وناس جايه كأنها مضروبة علقه وناس مبسوطة باللي عملتيه جداً .. بس جاتلك الفكرة دي منين؟ .. الكلام يخلي اللي يقراه مجبر ينفذه .. لأنه بدا بيثبت فعلاً حبه لينا ومشاركته فرحتنا

هزت كتفيها: مش عارفه .. أنا كنت عايزة أعمل فرح في نفس الوقت ما يحصلش فيه حاجات غلط ..

استفسر منها: طب ما كنتي عملتيه منفصل وخلاص ..

أجابته بهدوء: أولاً بيت بابا مش كبير للدرجة دي يعني .. الجنينة كبيرة عن جوا .. وخصوصاً أنه من جوا متقسم أوض ومش هيبقى لطيف .. كمان .. نجلاء أتحدتني إني لو عملت فرح فيه الرجاله والستات سوا مش هأقدر أعمل حدود وأمشي اللي ف دماغي ..

اتسعت إبتسامته وبحث بعينه عن شقيقته فوجدها جالسة برفقة زوجها يتسامران: يا بنت الإيه .. تصدقي إنتي وهي أسخم من بعض!

ثم عاد نظره إليها باسماً: بس بجد فخور بيكي .. قدرتي تعملي اللي ما حدش عمله، دا مافيش دراع واحد باين ! .. دا حتى اللي مش محجبات مدارين شعرهم بحجاب أي نعم شفاف ومبين كل حاجه بس أحسن من مافيش .. خصوصاً ف الحر دا هههههههه

نظرت له نظرة جانبية: طب لم عينك بقى .. وغض البصر

تنحنح في حرج مما جعل الإبتسامة تظهر على شفتيها، دخل رجل التنورة في فقرته وشد إنتباه الجميع .. وبعد إنتهاءه نهضت العروس برفقة عريسها يمرون على الطاولات يطمئنون إلى راحة الجميع وخصيصاً كبار السن.

أرتفع صدى أذان المغرب في الأنحاء، فأتجه إلى حيث يقف المُنشد واستعار منه الميكروفون هتف بصوت حماسي: يلا يا جماعة أدان العصر .. وبما إننا لو روحنا بأعدادنا دي كلها المسجد ممكن يفتكرونا خارجين في مظاهرة فخلاص نتصرف .. الشباب يزيحوا الكراسي على جنب شوية ويسيبولنا مسافة نصلي .. والبنات يروحوا يجهزوا مكان الصلاة جوا البيت.

ثم إلتفت إلى فاروق وأضاف: وبما إننا في بيت حمايا العزيز .. فهو اللي هيأمنا

هز رأسه رافضاً وهتف به بصوت عالٍ: لا أنت، دا فرحك ودي فكرتك

أنصاع لأمره وانصرف الجميع يفعل ما أمر، وقف أحد النصارى يمسك الميكروفون أمام حمزه فلم يجد ما يثبته به مما اضطره إلى ذلك وكان الرجل المسيحي هو من عرض عليه المساعدة فوقف أعلى مقعد جانبي حتى لا يقف أمامه أثناء الصلاة يحمل الميكروفون ويمده بأقصى ذراعه.

اصطفت النساء حتى ملأن حجرتين كاملتين ووقفت حياه في أخر صف على أقصى اليمين وقد أفسحن لها ما استطعن من مكان بسبب اتساع ثوبها وليسهل عليها الحركة داخله.

رفع حمزه يديه أمام أذنيه وقال بصوت جهوري قوي: اللّه أكبر ..

كانت حياه تصلي ودموعها تنهمر .. لقد ظنت أنه عندما يأمها زوجها في منزلهما ستكون أسعد لحظات حياتها .. لم تكن تدري أن يأمها ويأم الشاهدين على إرتباطهما برباط أبدي هو أروع مما تصور خيالها .. كأن هذه الصلاة توقيعاً لهذه الإتفاقية.

بكت كما لم تبكِ قبلاً شعرت أن هذه آية من ربها تؤيدها وتخبرها أن هذا هو زوجك الذي كان ربك يبغيه لكي ليس من ظننتي قلبك دق لأجله فأصابك في مقتل .. أحست بمباركة اللّه لما فعلته في عرسها وسعادته بها كأمته المؤمنة .. التي أرادت أن تبدأ حياتها بعيداً عما يغضبه فرزقها بعمل قد يكون أهم وأول أسباب دخولها الجنة.

بعد التسليم من الصلاة، رأين عيونها محمرة من البكاء، أسرعت بها نجلاء إلى الغرفة تعيد عيونها قدر المستطاع إلى سابق عهدها وقليلاً من صفاءها بلا دموع.

بعدما أنتهت وعادت تخرج، كان الشباب قد أعادوا المقاعد والطاولات إلى مكانها، ألتقت عينيها بعيون زوجها وغرقا في لحظة من لحظات الإلتقاء الروحي .. علمت أنه شاركها البكاء إبتهاجاً .. لقد شعرت في أخر ركعة خلال الصلاة بصوته قد تهدج وكأنه يمنع بكاءه من الخروج عبر حلقه .. لم يكن يدري أن تلك البحة قد أعطت صوته مزيداً من العمق وجعل كل من يسمع تلاوته يكاد يرتفع عن الأرض ليحلق بهم بين الملائكة في ملكوت اللّه.

أنتهى العرس بإنتهاء مرورهم على الجميع، وزعت نجلاء وعائشة الحلوى والبونبون على الأطفال وكذلك البلالين في حين انصرفت زهرة تتأكد من جمع ما فاض من طعام توزعه على أهل البلدة ومن يحتاج كما جرى الإتفاق بينها وبين حمزه.

توجهت حياه تبدل ملابسها لملابس أكثر راحة تسهل عليها مشقة السفر.

****

دلفت إلى الغرفة في الظلام، تحسس موضع مفتاح الإنارة حتى وصل إليه، فغرت فمها عندما رأت ما أعده من مفاجأت لها .. لقد رسم على الفراش قلب من أوراق الورود البيضاء والحمراء وفاحت من الغرفة رائحة المسك والعنبر فزادت جو الغرفة نقاء .. كما انتشرت الشموع في أرجاء الغرفة فأسرع يشعلها ثم يعود إليها مطفئاً الضوء.

تناول يديها ونظر في عينيها نظرة أغارت قلبها بين أضلاعها وسألها: أنا عمري ما قولتلك بأحبك قبل كدا صح ؟

هزت رأسها: لا قولت

تذكر فقال: أيوه .. ساعة ما وقعت في الكلام قبل ما تسافري ؟

كررت هز رأسها: تؤ

- أومال ؟؟

حدقت به بحب: تصرفات كانت بتقولها .. عينيك كانت بتقولها .. دقات قلبك كانت بتقولها .. لما تاخدني ف حضنك وأنام كنت بأسمعها .. مش شرط لسانك ينطقها عشان تبقى قولتهالي .. فيه حاجات كتير أهم من الكلام تهمني تقولهالي بيها

أحتوى وجهها بين يديه: بس دا ما يمنعش إني أقولهالك كمان بلساني ..

رددها ببطئ ليتمتع بحلاوة نطقها لزوجته وتستمع إليها بروية متأثرة: بحبك

تنهدت حالما أنتهى من قولها ورددتها من خلفه: بحبك

أسقط يديه عنها ووضع شريطاً في جهاز الكاسيت وبدأ تعلو في أرجاء الغرفة أنشودة شعرت أنها من أجمل ما تسمع بعد الكلمة التي قالها لها منذ لحظات.

تناول كفها وجذبها تشاركه الرقص عليها مستمتعاً بإحتواءه لها بين ذراعيه، يتمنى أن يخفيها داخل قلبه إلى الأبد.

حدثها: أنا مش عارف حبيتك إمتى .. كل اللي أعرفه إني كنت باسترخمك وبأحب أضايقك وأغيظك .. كنت عايز أستفزك بأي شكل .. ويوم ما طلبت منك نتجوز .. ما أعرفش قولتها ليه وإزاي ! .. وبعد الجواز فجأة لاقتني بأحلم بيكي وإنتي أم عيالي وسندي لما أكبر .. عندك تفسير يا ترى للي حصلي ؟

تبسمت: تعرف إني بردو استرخمتك أول مرة شوفتك فيها ؟ .. لما افتكرتني الخادمة .. نصيحة مني .. أوعى تطعن واحدة ف أنوثتها .. لأنها وقتها ممكن تقطعك حتت وترميك ف الزبالة

قهقه على حديثها العنيف وكأنها على وشك أن تفعل به ذلك: خلاص وعد مراتي الجايه هأبقى أخد بالي معاها

ضربتها على كتفه مغتاظة: دا أنا كنت كهربتك ودبحتك وصفيت دمك وبردو مش هتتجوزها

صدم جبينه بجبينها: دا على أساس أنه بقى فيا حاجه تتجوز أصلاً .. دا أنا بقيت شوية عضم إن ما دشتهوش ورمتيه على أرض بور عشان تنفع للزراعة هههههه

عادت إلى حديثها الأصلي: أضايقت منك وقتها بس فجأة لاقتني بأحبك .. وبأستنى رخامتك .. وكنت ساعات بأبين نفسي متغاظة عشان أشوفك ضحكتك

ابتسم في زاوية فمه: دا إنتي كنتي واقعة لشوشتك بقى

أومأت: جداً جداً، بس كنت واخده عهد بيني وبين ربنا إنه مهما حبيت عمري ما هأبين الحب دا إلا لجوزي ف الحلال ومش هأغلط غلطتي الأولى تاني .. وإنه ربنا لو رايدني أتجوز الشخص اللي بأحبه دا يرزقني بيه .. كنت بأفضل دايماً أتلمس أوقات إستجابة الدعاء وأدعي إنك تكون نصيبي وربنا يرزقني بيك الزوج الصالح اللي يهديني ويسامحني على أخطائي .. وفجأة لاقيت ربنا استجاب دعايا وطلبت مني الجواز .. بغض النظر عن الأسباب بس المهم النتيجة .. إني بقيت مراتك !

لثم خدها بخفة: مدامتي ..

قلدت صوته مستندة بجبينها على جبينه وهزت رأسها بمرح: أيوه مدامتك

تنحنح مُعيداً النبرة الجادة إلى صوته: إيه بقى اللي نفسك ف جوزك حبيبك اللي هو أنا يشاركك فيه ؟

تنهدت: أنا كان نفسي جوزي دا يبقى قدوتي .. مثلي الأعلى .. يشجعني أعمل خير أكتر وأقرب من ربنا معاه .. نعمل كل حاجه سوا .. شركا ف الحياة بكل معنى الكلمة

جلس على طرف الفراش وقال: ربنا يعيني وأقدر أسعدك .. وأكون زوج أحلامك

ابتسمت فيما جذبها بقوة لتسقط على الفراش بثقلها، اقترب من شفتيها هامساً: مش كفايه كلام إنهارده ولا إيه بقى ؟

دفعته بعيداً وهبت واقفة ثم قالت على عجل تخفي خوفها: إحنا لسه ما صليناش ولا نسيت ؟؟

نهض مضيقاً نظراته: ماشي .. بس بعدها مالكيش حجه تهربي بيها

هرولت مسرعة بعد أن تناولت ملابسها إلى الحمام، استحمت وتوضأت ثم عادت إلى الغرفة ليدخل هو يتوضأ .. ثم أمَّها في الصلاة كما كان قلبها يشتاق دائماً.

****

جلست على الفراش متوسدة قبضتها، تتأمل زوجها النائم، أتخذت قرارها بأن توقظه، همست باسمه فلم ينفع، قبلته قبلة سريعة أرتدت على أثره مخافة أن يحدث كالأفلام فيجذبها إلى أحضانها حتى تدوم القبلة إلى أبد الأبدين بلا جدوى.

صاحت به بصوت عال، فأنتفض مفزوعاً: إيه في إيه ؟؟

عقدت ذراعيها أمام صدرها: فيه إنك مش ناوية تصحى وشكلك هتقضيها نوم

دعك عيونه متسائلاً عن الوقت، أجابته متأففة: الساعة إتناشر إلا تلت، قوم يلا فوق نفسك وأفطر عقبال ما أدان الضهر يدن عشان نصلي قبل ما نخرج

حك رأسه مدعياً عدم الفهم: ليه هو إحنا رايحين ف حته ؟؟

نظرت إليه شذراً: هو أنت ناوي تخليني محبوسة هنا طول اليوم ؟

جذبته من ذراعه ليقف وبدأت في دفعة إلى الحمام تحثه على الإسراع.

أمَّا في صلاة الظهر كما فعل في صلاة الفجر، أخذها ليريها أشهر معالم الأقصر قبل أن ينطلقا بعد يومين إلى أسوان.

وقف متظللاً بظل أحد البازارات، تناول ثلاثة أرباع زجاجة المياه وسكب البقية فوق رأسه علَّه يخفف بذلك من حرارة الشمس التي لفحت رأسه، طلب منها العودة إلى الفندق حتى تغيب الشمس لكنها عاندت: أنا مش جايه هنا عشان أقعد في الفندق يا حمزه .. وإلا كان بلاها شهر عسل بقى وكنا قعدنا ف بيتنا

هز رأسه موافقاً: واللّه كان هيبقى عين العقل، مش فاهم أنا إيه اللي عايزة تقضي شهر عسلها في الأقصر وأسوان ف الحر دا !

ضحكت مغيظة إياه: مش أنت سألتني نفسي أقضي شهر العسل فين؟ .. خلاص بقى تمشي وأنت ساكت

ثم أضافت حانقة: وبعدين عاملي فيها باشمهندس وبتشتغل هنا وهناك وف الصحرا وبتاع .. وأنت خرع كدا .. مهندسين إيه دول ياخواتي؟؟؟

نظر إليها يكاد يفتك بها: أيوه بنشتغل في الصحرا وف الحر وكل حاجه .. بس مش مجانين عشان نشتغل تحت الشمس ف ساعة زي دي .. لأنه مش بعيد حد من العمال أو المهندسين تجيله ضربة شمس ودا هيعطل الشغل لأنك عقبال ما توصلي لدكتور هتضطري تستني العيان يخف عشان

يكمل أو الشركة تبعت غيره وحلني بقى .. ساعة زي دي يا ذكاوه هانم بنقضيها راحة ونعوضها ف ساعات الليل

هزت كتفيها وتابعت السير، سألها مستفسراً: يعني عايزه تقنعيني إنك مش حرانه ؟؟

نفت ذلك رغم تقذذها من شعورها باللزوجة والحرارة تطبق على أنفاسها، لمحت من بعيد فتاة أجنبية تحدق بحمزه وهي تغمز صديقتها وتلمزها، كانت شقراء شديدة الحسن، ملابسها تكشف الكثير من جسدها.

نظرت إلى زوجها لترى سبب إنجذابهما له إلى تلك الدرجة فرأت ثيابه تلتصق بجسده نتيجة الحر والمياه التي صبها فوق رأسه مبرزة جسده الرجولي، كما أضفت عليه حرارة الشمس لوناً برونزياً محبباً.

تطلعت إلى عيونه لتستشف إذا شعر بنظرات الفتيات له أم لا، وجدت عيونه معلقة على أحد البرديات في البزار الذي يقفون تحت ظله، باغتته قائلة: عايزه أرجع الفندق يا حمزه

نظر إليها رافعاً حاجبيه بشدة حتى كادا يلمسان شعره: مش كنتي لسه عايزه تلفي شوية ؟

غمزها مغيظاً: مش ناوية تعترفي إنك هتموتي من الحر بردو؟

هزت رأسها بسرعة تؤيد ظنه حلما رأت الفتاتين تريدان عبور الشارع إليهما، أمسكت يده وجذبته في الإتجاه المعاكس: أيوه .. اتحريت

ضحكاً منتصراً لكنها لم تهتم فيكفيها أنه لم يدر بنظرات الفتيات إليه وإلا نفش ريشه كطاووس يتعبد الجميع في محراب جماله.

****

السعادة تشع من عيونهم جميعاً فرحة بالخبر الأكيد، ضمت سمية ابنتها في حب باكية ولسان حالها لا يتوقف عن حمدالله والثناء على رحمته بهم.

سمية بفرحة لا مثيل لها: الحمدلله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك

ما تزال نجلاء لا تصدق صحة الوضع: أنا لحد دلوقتي مش مصدقة .. يعني خلاص كدا رجعت زي الأول وما بقاش فيه داعي للكيماوي ولا الجلسات ؟؟

أحاط فادي كتفيها بذراعه: وأحسن م الأول كمان .. الدكتور قال إنه كان صغير وف بدايته لكن كان ضاغط على منطقة حساسة في المخ وأي تدخل جرحي ف وقتها كان فيه خطر على حياتها فما كانش فيه حل قدامه غير الكيماوي والحمدلله جاب نتيجة

صاحت سمية بزوجها: لازم يا أحمد ندبح أضحية بسبب الخبر دا .. لازم نفرح الناس معانا

أومأ أحمد مؤيداً فكرتها: ما تحمليش هم، أنا هأتفق مع الجزار اللي كلمناه على أضحية العيد عشان يعمل حسابه ف عجل زيادة

ضحكت نجلاء: أول مرة أشوف ناس بتحجز أضحية العيد الكبير قبل العيد الصغير ما يجي أصلاً

نظرت لها أمها معاتبة: يا بنتي دا فاضل أربع أيام بس على رمضان .. والوقت بيفوت بسرعة .. كمان كدا أحسن عشان الجزار يدينا حاجه نضيفة مش أي حاجه والسلام ..

تناول فادي يد حماته مقبلاً إياها: كل سنة وإنتي طيبة يا ماما

ربتت على كتفه بحنان: وأنت طيب يا حبيبي .. عقبال كل سنة وإحنا متجمعين يا رب

بارك لأحمد كذلك قبل أن يعتذر هو ونجلاء التي بررت: معلش بقى مضطرين نستأذن عشان كنت واعده حياه أمر عليها .. أطمن عليها هي والبيبي ..

قهقه فادي على الذكرى: دا أحمد طلعان عينه من الوحم بتاعها .. ربنا يصبره

ابتسم أحمد بسعادة: ههههه كلنا لها .. هو لسه شاف حاجه .. التقيل لسه جاي

قطبت سمية حاجبيها: قصدك إيه يا أحمد ؟؟

تنحنح مستدركاً ما قاله: قصدي كل خير يا حبيبتي ..

نهضت نجلاء واقفة: كلها شوية وتعدي فترة الوحم .. هي لسه ف التالت

ساندتها والدتها فيما قالت ثم ودعتها تدعو لها بدوام الصحة والعافية، اقترح عليها أحمد أن تصلي ركعتين حمداً للّه الذي تتم بفضله النعم.

وافقته ونهضت تتوضأ ثم تصلي تدعو بقلبها قبل لسانها أن يسعد ابنتها وابنها، أن يسعدا ولا يشقيا في حياتهما ويظلون بقرب اللّه مهما كانت وطأة المصاعب ودهسات الحياة.

***

وقفت نجلاء بشرفة منزلها تحجب حزنها، لقد أخبرت جزءً من الحقيقة لعائلتها لكن قلبها لم يطاوعها بكسر فرحتهم بالبقية، يكفي أن قلبها يتصدع ألماً فقد أكد الطبيب بعد إنهاءه قراءة التقارير والتحاليل الطبية أن أي أمل لها في الإنجاب قد ذهب أدراج الريح.

اقترب منها فادي وضمها من الخلف صامتاً، استدارت إليه وبدأت الحديث مخفية تمزقها مما تقول لكن انجلى أوان الأنانية: عايز تتجوز؟ .. مش هأمنعك ولا هأقف ف طريق سعادتك .. أنا كنت الأول بأفضل أفكرك بأفضال بابا عليك علشان تفضل جنبي وتحس إنك مديون ليه وليا .. كنت بأعمل كدا وأنا كارهة نفسي بس كنت عايزاك جنبي بأي شكل .. لكن دلوقتي .. بعد ما عرفت أنه الحياة أقصر بكتير من إني أضيع عليك تعيشها أو تحقق أمانيك فيها .. فأنا بأخليك من أي وعد وعدتهولي قبل كدا .. هأفرحلك لما تشيل ابنك من واحدة تانية وهأتمنالك السعادة

لم تشعر بالدموع تهبط من محابسها، فيما استعر الغضب والغيظ بداخله، أمسكها من كتفيها بقوة: اسمعي الكلام دا كويس لإنه ماعادش عندي استعداد إني أعيده تاني .. أنا ما فكرتش أبقى أب أو يكون عندي ولاد إلا لما إنتي حبيتي الموضوع وكان نفسك فيه .. دا أنا حتى ما كنتش أتخيل نفسي هأبقى متجوز خصوصاً ف الوقت اللي إنتي ظهرتي ف حياتي فيه .. وأظن إنك فاكره كويس حالتي كانت إزاي .. وقد إيه أحوالي المادية والنفسية كانت زي الزفت .. بس ربنا وقتها بعتك ليا نجدة من السما .. لحد دلوقتي بشكره ف كل وقت عليكي .. والولاد ما فكرتش فيهم غير عشان إنتي هتبقي أمهم .. لكن لو واحدة تانية يبقى شكراً .. إنما لو حابه تخلصي مني وخلاص .. وعماله تدوري على حجه فكدا بقى موضوع تاني

ابتسمت ساخرة لبواقي الدمعات بالولوج إلى فمها: أتحجج ؟؟ .. أنت عارف قد إيه كنت بأموت من جوا وأنا بأقولك روح أتجوز وعيش مع واحدة تانية ؟؟ .. أنا قولتلك هأتمنالك السعادة وهأفرحلك بس دا كلام وقت ما خرج عرفت فعلاً إني مش هأقدر أنفذه .. بص أنا أبطل أنانية ف كل حاجه .. إلا فيك وف حبي ليك

أحاط كتفيها بذراعه ودفنت هي وجهها في عنقه تشتم رائحته المحببة إلى قلبها، همس لها مبعداً خصلات شعرها: يعني مش هنفتح الموضوع دا تاني؟ .. اتقفل خلاص؟

أومأت صامتة تستكين بين يديه، بعد فترة هدوء عذب: عارفه .. في حاجات أجمل من الولاد

نظرت له متعجبة: إيه الحاجات دي ؟

ضحك: الشيخ حمزه قالي عليها ف مرة .. قال اللّه –سبحانه وتعالى- "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا" .. يعني أه أحلى حاجه ف الدنيا الفلوس والولاد بس دول حاجات في الدنيا أكتر منهم ف الأخرة .. يعني الولد ممكن يطلع عاق .. وقتها مش هيبقى زينة لحياتك وممكن الفلوس دي تضيع ف لحظة .. لكن الباقيات الصالحات دي هتفضل موجودة لحد يوم الحساب

عضت شفتها السفلى قاطبة حاجبيها: أنا فاكرة إني سمعتها قبل كدا بس مش قادرة أفتكر فين .. هي إيه الباقيات الصالحات ؟

تخلل شعرها بأصابعه باسماً: دي أذكار زي .. سبحان اللّه، الحمدللّه، اللّه أكبر، لا إله إلا اللّه، لا حول ولا قوة إلا باللّه .. وغيرهم أو الأعمال الصالحة اللي بتعمليها

كأنها انتبهت فجأة، حدقت به بشك: أنت قولت حمزه هو اللي قالك الكلام دا ؟؟

أومأ ضاحكاً: يظهر أنه أخته استعجبت لحالته أكتر مني شخصياً ههههه

سرحت بنظرها بعيداً متمتمة: فعلاً حاله انقلب .. بقيت لما أشوفه ابتسم مهما كانت حالتي النفسية مش مظبوطة .. فيه حاجه اتغيرت .. بس ما أقدرش أنكر إنها للأحسن

وافقها بشدة: من ساعة جوازه من حياه وهو اتغير .. ويمكن من ساعة ما عرفها كمان

أضاف: دا كفايه حركة كارت الدعوة اللي عملتها دي .. عليت ف نظري جامد

حدقت في وجه زوجها لحظات قبل أن تنفجر ضاحكة، سألها متعجباً عن سبب تلك النوبة، أجابته: أصلي افتكرت الدبابيس والبينز اللي وزعتها في الفرح .. حاجه مسخرة الحقيقة هههههه

أمسكت معدتها التي ألمتها من قوة الضحكات: تصدق قابلت عمو عبد الرحمن من كام يوم لما روحت لماما وبابا .. قالي أشكرله حياه جداً على الدبوس بتاعه لحد ما يقابلها عشان هو بقى حاطه ف جيبه دايماً وكل ما يحط إيده فيه يطلع يقراه يضحك ويحمد ربنا

ابتسم فادي: هي كانت كتباله إيه ؟

قهقهت بشدة وقالت بصعوبة: كتبتله "إحمد ربنا لتجيك حاجه ف الكِله"

شاركها: أنا بردو شايل البين بتاعي وكل ما أشوفه أضحك .. كتبالي "ما تقولش والنبي دا شرك يا مفتري"

كادت تسقط أرضاً من الضحك، هتفت: دا على كدا بقى أنا عاملتني باحترام شوية ؟

سألها: وإنتي كتبتلك إيه ؟؟

انفجرت ضاحكة: "سيبي المواعين لبعد الصلاة يا فوزية" هههههه

مرت عليهم عدة دقائق لا يستطيعان وقف ضحكاتهما، وبعد مرور تلك النوبة وعودة تنفسهما للإنتظام قليلاً طلبت نجلاء من زوجها: أبقى فكرني لما نروحلهم المرة الجايه .. أخد منهم سي دي الفرح .. لما شوفته حبيته أوي .. خصوصاً الصور اللي أخدهالكوا بولا وأنتوا بتصلوا .. حلوة أووووي .. أنا أخدت منها نسخة للصورة دي وحطتها في الألبوم عندي

ضحك فادي: ولا التسجيل لجرجس وهو بيتكعبل في سلك المايك بعد الصلاة أما جه ينزل هههههه كل ما أشوفه أسخسخ على روحي م الضحك

تنهدت بقوة: يااااه، ساعات بأتمنى إني كنت أعرف حياه قبل ما أعمل فرحي عشان يبقى بالحلاوة دي

غمزها مغيظاً: خلاص نعمله من تاني .. بس ما أوعدكيش تبقي العروسة .. لازم تغيير بردو

ضربته بقبضتها الصغيرة في كتفه بقوة مما جعله يضحك، ضمها إلى صدره مقترحاً عليها أن يُسبح على عقلات أصابعها .. ذاكراً بعض الأذكار من الباقيات الصالحات، ثم تتناوب معه وتسبح على أصابعه هي الأخرى.

عندما رأى سعادتها باقتراحه وأنها أوشكت على القفز من السعادة تأكد من نصيحة حمزه له، إن طاعة اللّه وتشاركها مع من أحب تحول أصغر الأفعال إلى أفعال لا تُقدر بثمن .. لأن أجمل المشاركات دون مبالغة هي المشاركة في التقرب إلى اللّه ونيل رضاه.

****

استأجر الجميع باصاً صغيراً ينقلهم إلى سوهاج؛ فإن الأيام الأولى من رمضان تجعل القطار لا يطاق من شدة الزحام .. فهناك من يجلس أسفل مقعد وأخر لا يجد بُداً من الجلوس فوق حقيبة سفرك دون حتى طلب الإذن، هذا عدا الرائحة التي لا تطاق واستمرار الأطفال في ركضهم من عربة إلى أخرى متخذينه حديقة الأزهر دون مراعاة أن الناس إكلينيكياً بدأوا بالتساقط من فرط الإختناق وعدم وصول الأكسجين الكافي إلى أنسجتهم.

تتقزز من رائحة العرق التي تحاوطك، وفي تلك الأوقات لا يوجد فرقة بين الدرجة الأولى وعربة نقل البضائع .. والرجل الذي يقطع التذاكر يلتزم الصمت يكتفي بقطع التذاكر مدركاً أن أقل كلمة اعتراض ستتسبب في إلقاءه من نافذة القطار أثناء سيره.

المكيف .. ليس له داع، ففي تلك الأوقات مهما كانت قوته لن يؤثر في أعداد الأنفاس التي تتزايد ولا تقل، وكأنه يشعر بالإختناق فيكتفي باللهاث كل عدة دقائق.

فضل الجميع السفر سوياً مستأجرين الباص وأخذ استراحة على فترات أثناء الطريق، لقد أصر فاروق على دعوتهم جميعاً إلى الإفطار في اليوم الأول من شهر رمضان الكريم، كما أن قران زهرة سيعقد اليوم؛ فبعد طول إنتظار وصبر رزقها اللّه بمن أرضى نفسها.

أثناء الطريق أرتفع أذان المغرب معلناً موعد كسر الصيام وبل الريق بشق تمرة أو قطرات مياه، فيما تخرج سمية زجاجات المياه التي اشترتها من الاستراحة الأخيرة، كان هناك رجال يقفون بالطريق ويلقون بأكياس داخل السيارات المارة ويقولون مهللين "كل سنة وأنتوا طيبيــن".

كانت عبارة عن أكياس من مختلف أنواع العصائر، فكانت مجموعة تلقي بعصير البرتقال وأكياس بها ماء، وبعد مسافة تُلقى أكياس أخرى من مشروب التمر الهندي وعصير المانجو .. وأكياس من التمر الجاف.

ابتسم الجميع فرحين بتلك الأشياء الصغيرة، تركوا ما أحضروها جانباً وبدأوا في تناول تلك العصائر، أخبرهم السائق أن هذه هي العادة طوال شهر رمضان بالأخص في بدايته حيث يشق على البعض الصيام أثناء السفر ويصمونه البعض منصاعين لكن الخوف من عدم الحصول على الماء أو ما يشق الصيام كان يقلقهم فأصبحت العادة أن يقفوا على الطريق ويهبون تلك العصائر للمارين، عوضاً عن موائد الرحمن لمن لا يستطيع تحمل تكلفتها.

قهقه السائق متذكراً أن أحد السائقين لم يكن دينه الإسلام فتوقف وأعاد إليهم الأكياس لكنهم أبوا ذلك مبررين أنهم يمنحونها لمن كان صائماً أو فاطراً من المسلمين فما ضير غير المسلم .. ثم أخبروه أن هذا رزقه وتلك أخر الأكياس لديهم فليشربها هانئاً.

وصلوا إلى منزل عائلة حياه حيث استقبلهم فاروق بترحاب شديد كعادته، كان الجميع في إنتظارهم حتى يتناولون الإفطار سوياً كما

كانت في صحبتهم عائلة خطيبة عصام وخطيب زهرة الملقب بجلال وأسرته، مُدت الموائد في الحديقة وانفصل الرجال عن النساء في الطعام.

كانت طاولة النساء معهن الأطفال واقعة في الحديقة كذلك لكن جزء من جدار المنزل يحجبها عن طاولة الرجال بحيث يستطعن رؤيتهم والعكس غير ممكن.

أتخذت السيدة الكبار جانباً من الطاولة يتحدثون في شتى الأمور ما بين الأولاد ورعايتهم وزواج البنات الوشيك وخلافه من أحاديث، فيما طغى المزاح والمناوشات الصيبيانية بين الفتيات الأصغر سنناً في الجانب الأخر.

ضحكت خديجة خطيبة عصام: ياااه أنا مش مصدجة نفسي .. كلها كام شهر وألاجيكي بتمشي تدألپي

شاركتها نجلاء: هيبقى منظرها تحفة

ضيقت حياه عينيها بغيظ: ما تبس يا بت إنتي وهي .. دا إيه الاستفزاز اللي ع الفطار دا

سألتها عائشة: يا بنتي كنتي فطرتي أحسن .. الحمل لوحده وبيبجى متعب أنا كان طالع عيني .. إزاي مستحملاه ويَّا الصيام ؟؟ ..

ابتسمت لها حياه: أنا كدا مرتاحه والحمدلله الدكتور قالي عادي بس ما أرهقش نفسي زيادة وأقلل المجهود وقت الصيام وهأبقى تمام .. أضيع أجمل شهر في السنة ليه بقى ؟؟ ..

تدخلت شقيقة جلال الصغرى "سعاد" وقد كانت تعرف حياه من المدرسة رغم أنها تصغرها بثلاث سنوات: ما ممكن تعوضي الصيام دا ف وجت تاني بعد الولادة

ابتسمت لها حياه إبتسامة حالمة: دا جمال الصيام إنه بيبقى ف رمضان وسط اللي بتحبيهم وتجمعيهم وإنتي عارفة أنه الشياطين محبوسين والملايكة محاوطينك وبيدعولك

تمعنت بها شقيقتها: بس لونك مخطوف وشكلك تعبان ..

طمأنتها باسمة: ما تخافيش هو بس عشان طريق السفر مش أكتر وهأبقى كويسه

ابتسمت سعاد: ربنا يجومك بالسلامة

- الله يسلمك يا حبيبتي .. عقبالك

تعالت ضحكات نجلاء فجأة مما أدى إلى استغراب الجميع وسؤالها عن السبب فردت غير قادرة على إيقاف ضحكاتها: كل ما أتخيل شكل حياه لما بطنها تكبر شوية ما أعرفش ليه بأشوف شكل خِله بالعه زتونة

قهقه الجميع، علقت خديجة مازحة: أو عرسة عندها إنتفاخ بردو هههههه

أشارت عليها نجلاء بإبهامها: أيوه صح

دافعت عنها عائشة: حرام عليكوا .. هو بمزاچنا يعني .. دا حمل تَجيل وواعر جوي

كزت حياه على نواجذها: سيبيها يا عيشه .. أنا سايباها بمزاجي

ردت عليها نجلاء بغرور: ولا تقدري تعملي حاجه يا أوختشي

أخرجت لها لسانها: أوختشي؟ .. إنتي كنتي شغاله صبي رقاصة قبل كدا ولا إيه ؟؟

قهقه الجميع، ضيقت نجلاء حدقتيها: إيه الكلام اللي من أيام الحرب العالمية دا ؟؟

ردت سعاد هذه المرة ضاحكة: عالمية ولا عالتالتوميه

ضربات حياه كفها بكف سعاد مشجعة: حلوه دي هههه

غرق الجميع في نوبات من الضحك، استمر المزاح والمداعبات حتى رُفع الطعام وأعلن الأذان على موعد صلاة العشاء، قرر الجميع الصلاة في المسجد وعقد القران بالمسجد حيث ستصلهم الأصوات من مكبرات الصوت فالمسجد ليس ببعيد، ثم يتوجهون إلى صلاة التراويح.

فيما يتوافد الناس عقب الصلاة؛ النساء إلى المنزل والرجال إلى المسجد يحضرون العقد ويطلقون النيران في الهواء فرحين مهللين.

وقفت حياه بين ذراعي زوجها تعيد ضبط وضعية الجلباب فوق أكتافه والعمامة التي أكسبته مظهراً رجولياً لا تتخطاه العين، مضيفة إلى بنيانه قوة وإلى جسده جلد وقسوة.

همس لها باسماً بخبث: عارفه بأتخيل إيه ؟

ابتسمت: إيه ؟

نظر جهة بطنها وقال: لما الحمل يظهر وتبقي شبه البندا كدا وأجي وأقولك بكل رخامة وغلاسة وسماجة "إيه ياخواتي القمر ده .. أنا بايني أتجوزت فيل"

أغاظتها مزحته جداً لكنها قررت رد الكيل له ثلاثاً، داعبت صدره من فوق القماش قائلة بدلال: عارف ساعتها أنا هأقولك إيه يا حبيبي ؟

اتسعت إبتسامته متوقعاً رداً أشد غيظاً: إيه ؟

وضعت يدها فوق خصرها وضيقت عينيها متمتمة بغيظ: لو مش عاجبك طلقني !

ضرب يدها لتسقط عن خصرها وصفع رأسها من الخلف قائلاً بجدية وثقة: جاتك طلقة ف نفوخ اللي يكرهوكي ..

ثم غمزها بمكر: ما تجيبي بوسه أبت

غرقت في الضحك وقد استغرقهما المزاح حتى إنهما لم يشعرا بالجلبة التي حدثت من خلفهم، فجأة ارتفعت طلقات النيران في الهواء، تلتها جثة سقطت عند قدمي حياه، استقبلت سقوطها أمام عينيها بصرخة مدوية وغرقت الأرض بدماء الضحية.

ركض الغفر يلحقهم محمود وجلال ليلقوا القبض على من بدأ المهاجمة فلم يكن سوى شادي وقد أصيب إصابة بالغة أفقدته الوعي.

أسرع فاروق يأمر عائشة بالإسراع في طلب الإسعاف بينما أنحنى عصام بجوار الجسد الممدد أرضاً يفحصه ويتأكد بأنه مازال على قيد الحياة.

ترقب الجميع إقراره، ارتفعت التنهيدات فهو يتنفس وهناك أمل كبير لنجاته، بكت نجلاء تضم والدتها المصدومة وتقوم رغبة عينيها في النظر إلى جثة والدها المسطحة فوق الأرض بإنتظار وصول سيارة الإسعاف لتنجده.

****

حضرت أمام طليقها بملابسها القاتمة حزناً على موت جدتها قبل شهرين فيما تُكَذب حاستها السابعة المتنبأة بسبب مجيئه وطلبه الحديث إليها على إنفراد ، أطمئنت على انشغال ميّ بألعابها ثم عادت إليه مترقبة.

باغتته بسؤالها: كنت عايزني ف إيه يا خليل ؟

تناول رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه فوق الطاولة ثم تنحنح: أنا قررت أطلق منال ..

حدقت به رافعة حاجبيها: وليه كدا ؟

تخلل أصبعه بين عنقه وياقة القميص في توتر: مش مرتاحين وخناقنا زاد الفترة الأخيرة

استفسرت متوجسة الإيجاب: أوعى أكون أنا أو ميّ السبب ف دا !

هز رأسه بالنفي: لا .. هي اللي أتغيرت ف أخر فترة وكأنها أتحولت واحدة تانية

قوست شفتيها شفقة: ربنا يصلح بالكوا ويهدي سركوا .. اصبر وما تستعجلش .. يمكن تكون فترة وتعدي على خير وترجع زي الأول وأحسن كمان

قطب حاجبيه فلم يكن هذا رد الفعل الذي كان بإنتظاره، ظن أنها ستفرح لخبر إنفصاله، لم يتردد ودخل في الموضوع الأساسي لمجيئه: أنا عايز نرجع لبعض تاني يا حنان

أغمضت عينيها فقد صدق حدثها، بعد صمت فتحت عينيها وحدثته بهدوء: وأنت فاكر إني ممكن أرجعلك تاني بعد كل دا ؟

كز على ضروسه: وليه لا ؟

حدقت به متعجبة من شدة غروره، أيظن أن بعد ما فعله بها وتركه لها في أشد المواقف صعوبة أن تعود له عقب إنقشاع الغمة ؟!، أجابته محافظة على هدوءها: خليل .. أنت سبتني ف عز حاجتي ليك .. رمتني ورا ضهرك ولا أكني كنت مراتك ولا تعرفني .. كل اللي ربطنا كانت ميّ لما اختفت بعدت ولما رجعِت رجعت .. ما عملتش حساب للعشرة ولا للحب اللي كنت واهمني بيه .. يمكن ربنا ابتلاني بفراق ميّ عشان اكتشف حقيقتك .. أنت أسست حياة جديدة مع منال وجبت منها بنت .. ربنا يخليهالكوا

نظر إليها غاضباً: يعني بترفضيني يا حنان؟

أومأت بثقة: أيوه

اتهمها: عشان الدكتور اللي ساكن قصادك مش كدا ؟

تعجبت من مقصده فلم يحدث بينها وبين الطبيب أي إحتكاك يدل على أن هناك أكثر من الجيرة يجمع بينهما، أجابته محاولة إمتصاص غضبه: لا مش عشان حد .. بص يا خليل .. بعد ما أنت سبتني ف وقت لسه ما كنتش فوقت فيه من صدمتي بفقدان بنتي .. أنهرت .. بس لما فوقت لنفسي أخدت عليها عهد إن أيامي اللي جايه هتبقى عشان ألاقي بنتي وأيامي بعد أما ألاقيها هتبقى عشان أربيها وأعوض شوقي ليها، يعني لا أنت أو غيرك هأتجوزه ..

لوى شفتيه هازئاً: يعني قررتي تترهبني ؟

لم تعجبها نبرته لكنها لم تظهر ذلك فأجبته: أحسبها زي ما تحسبها .. بس دا قراري

عاد يستفزها: معقولة هتعيشي من غير جواز ؟

حدقت به تستشف هدفه: وليه لا ؟ .. ما أنا قبل ما أتجوزك كنت عايشه .. وبعد ما سبتني لحد دلوقتي لسه عايشه .. لا نقصت حاجه من غيرك ولا زدت حاجه بيك

عبر عن سخطه: طب وأما أنا وجودي زي عدمه ف حياتك كنتي إتجوزتيني ليه ؟

ابتسمت بثقة: عشان أجيب ميّ .. تقدر تقول قدر

رد بحدة: يعني ف رأيك الراجل مالوش لازمة .. وإن حياتك كاملة من غيره مش كدا ؟؟

إن ضيق أفقه لشديد فكيف لم ترَ ذلك قبلاً .. أجابته: لا أنا ما قولتش كدا .. بس عدم وجوده ف حياتي مش هيخليها معضلة .. هيصعبها شوية لكن مش هيدمرها .. وزي ما فيه بنات عايشين من غير أزواج فيه رجاله عايشين من غير زوجات ..

رجعت نبرة الاستهزاء إلى صوته: طب ما دام حضرتك تقدري تعيشي لوحدك .. والراجل يقدر يعيش لوحده .. كنا بنتجوز ليه .. ولا بنحتاج بعض ليه ؟

أجابته كما تجيب على أسئلة ميّ تماماً، هادئة مسيطرة: عشان استمرار الحياة والنوع ما ينقرضش .. دا كمان أمر ربنا إعمار الأرض .. بس فيه اللي ما بتتوفرلوش الفرصة دي فبيعيش لوحده من غير شريك .. الحياة وقتها مش بتبقى سهلة وبردو مش مستحيلة ..

انتبه لكلماتها وأرهف السمع: إزاي ؟

- الراجل ربنا خلقه بصفات معينة سواء جسدية أو نفسية .. الصفات دي بتساعده على التعامل مع الناس بره والشغل وإنه يشيل ويحط .. يستحمل البهدله والمرمطه .. يعني على طول تسمع إنه فلان كان بيشتغل مثلاً عامل في البنا وكان بيشيل طوب لحد ما وصل وبقى عنده شركة أو محل بيبيع أدوات بنا، لكن عمرك ما سمعت عن واحدة ست كانت بتشتغل شيال !

بس ف نفس الوقت الست ليها دورها وماحدش ينكره .. طعم الأكل من إيديها بيبقى ليه مذاق خاص .. لا تقولي شيف ولا نص شيف .. وبالدليل أنت لحد ما بتتجوز بتبقى بتدور على أكل مامتك .. وأنت مسافر بتبقى عايز تدوق الأكل من إيديها .. هو ما أقدرش أنكر إنه فيه رجاله فعلاً ما شاء الله عليهم نفسهم حلو أوي ف الطبخ .. بس مالهومش صبر .. إلا لو كان شغل ومجبر عليه .. وصاحب المطعم أو المطبخ اللي بيشغله كمان بيبقى مجبر عليه غالباً .. لإنه الست أصلاً طفشانه من بيتها بسبب الطبيخ لما تفكر تشتغل هتشتغل ف الطبيخ بردو ؟؟ .. ما أظنش .. هي ليها لمستها الخاصة ف كل حاجه، مش ساعات تدخل شقة تقول دي شقة عازب .. وتدخل نفس الشقة بعد ما صاحبها يتجوز وتشوفها مختلفة تماماً ؟؟

أومأ في صمت فتابعت: دي بقى لمستها كأنثى .. بتدي روح وبهجة .. بدل ما الترابيزة منورها الريموت وفوقيه بنطلون ما أتغسلش م العصر الحجري .. تلاقي مفرش وعليه بوبيونيرة .. أو فازة مليانه ورد .. الستارة لونها ماشي مع السجادة .. مش سجادة خضرا على ستارة تركواز .. بغض النظر إنك ممكن تلاقيها موضة اليومين دول عادي .. دا غير تربية الأولاد بقى والصبر على دا ودا والأسئلة اللي مالهاش أخر .. اللي بتبقى محتاجه صبر وطولة بال ..

أخذت نفساً عميقاً قبل المتابعة: الزوج أو الأب .. بيشيل حمل برا ومشاكله .. والأم أو الزوجة بتشيل أحمال جوا .. بس مش يا كله برا يا كله جوا .. اللي بيقولوا الراجل عليه كل حاجه برا والست عليها كل

حاجه جوا .. أو اللي يقولوا الراجل عليه نص برا (شغله) ونص جوا (بيته) والست كذلك، يبقى غلطان ومش فاهم حاجه .. هما الإتنين مسئولين عن برا وجوا بنسبة ما ينفعش تتحدد، اللي يقدر يحددها طبيعة الحياة بين الزوجين وصفاتهم .. يعني مثلاً واحدة عندها خادمين .. هيبقى النص اللي جوا طار ؟ .. طب والزوج العاطل إلى حين ميسرة بردو نصه اللي برا طار ؟؟ ...

"وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة" .. بتيجي منين عظمة الست ؟ .. في إنه لما يرجع مخنوق تبعد عنه العيال ومشاكلهم .. الكهربا اللي فاتورتها جايه عالية والزبال اللي ما جاش والواد اللي عايز درس .. وتطرطق ودانها وتسمع مشاكله بدون ما تديه حل .. أو تديه لو قدرت توصل لحاجه .. ساعات اللي برا المشكلة بيقدر يحلها أكتر من اللي جواها .. دا غير التشجيع والتحفيز .. القوة الداخلية اللي بتديهاله .. تحول له السور العالي لمنط صغير يقدر يعديه

نظر إليها محتداً: يعني أنتوا اللي بتعملونا بقى .. مش كدا ؟؟

ابتسمت بهدوء فسنوات تعليمها للأطفال بالمدرسة أكسبتها الجلد: بأقول "رجل عظيم" .. يعني هو أصلاً عظيم بس محتاج كتف تسنده .. أصل لو هو غبي ولا ما عندوش القدرة أنه يعدي عمره ما هيعدي .. أصلها "امرأة عظيمة" أيوه .. لكن مش ساحرة وسوبر ومان يعني ..

شرد بعيداً وتحدث لنفسه ولكن بصوت مرتفع: معنى كدا أنه حياتك كاملة ومرتاحة

زفرت: لا مش كاملة .. ماحدش حياته كاملة .. وإلا ما كانش الواحد أتمنى الجنة –اللي فيها الكمال الحقيقي- لكن لو قصدك الكمال الدنيوي اللي ما أقدرش أسميه كمال بالمعنى الحرفي فيمكن معاك حق .. ما أنكرش إنه حياتي هتبقى صعبة بس فيه ميّ هتصبرني عليها

باغتها بسؤال أعاد عليها الأوجاع: أنا عارف إنك بتحبي الأولاد معقولة هتكفيكي ميّ ؟؟ إنتي كان نفسك ف دستة ع الأقل من حبك فيهم

ابتسمت إبتسامة لم تصل إلى أذنيها شاردة: ربنا يخليلي الأطفال في المدرسة وميّ عندي بالدنيا

تحولت لهجتها للجدية الباردة: واللي أنت ما تعرفوش أنه مابقتش أقدر أخلف تاني

لاح الفزع على ملامحه بقوة كادت تُفجر عروق وجهه: إزاي يعني ؟

كادت أن تطبق على عنقه لتفتك به علّ ذلك يُثلج قلبها: بعد سنة ونص من طلاقنا .. الدكتور قالي أنه فيه ورم على المبايض .. بس كان بيطور بسرعة وكان فيه اشتباه أنه يتحول لورم خبيث .. الدكتور ساعتها اقترح عليا إننا نعمله استئصال .. بس لأنه كان كبير استئصلوه مع المبيض .. ومابقتش أقدر أخلف

زاغت عيونه بعيداً لا يدري ماذا يقول أو يفعل، فهمت سبب ذلك؛ هي تعلم أنه كان يرغب بالأطفال الكثر يحيطونه بعد وفاة أخيه الأصغر في حادث قبل لقاءها به بعدة سنوات وهي لن تستطيع تحقيق أمنيته فأراد التراجع عن عرضه.

لوت شفتيها اشمئزازاً: روح صالح مراتك وخليك مع بنتك هدى وميّ موجودة ف أي وقت تحب تشوفها أهلاً وسهلاً .. هأقوم أجيبلك حاجه تشربها عقبال ما تقعد مع ميّ شوية

نهضت وتركته متجهة إلى المطبخ إثر منادتها لابنتها حتى تُجالس أبيها، وجدت سعدية تقوم بغسل الصحون فهتفت بها مستنكرة: أنا مش قولتلك ما تعمليش حاجه ؟؟ .. ما بتسمعيش الكلام ليه ؟

هزت سعدية كتفيها مكملة عملها: دول طبجين بس يا ست حنان .. يعني مافيهاش تعب .. دي حتى چمايلك مغرجانه .. دي حاچه بسيطة يعني .. مش جد المجام

ربتت حنان على كتفها: معلش تعبتك وخليتك تسيبي عيالك عشان تيجي تقعدي معايا لحد ما يمشي .. هو بصراحة فاجأني أنه جاي ف الطريق وما كنتش عارفه أعمل إيه .. وأنا لوحدي كدا .. تيته -اللّه يرحمها- وفتون نقلت شقة مع ممرضة زميلتها في المستشفى اللي شغالة فيها

ابتسمت لها سعدية متفهمة: ما چراچش حاچه يا ست حنان .. دي كلها ساعة هيحصل فيها إيه يعني ؟؟

بان الأسى على ملامحها وهي تهزأ دخلها؛ إن تلك الساعة التي تستهين بها قضت على حلم أولادها الكثر وإجبارها على الإكتفاء بميّ، إن ساعة واحدة حرمتها من الأمومة مرة أخرى.

أعدت العصير وخرجت تضعه أمام خليل، كان يلعب مع ابنته بنصف عقل، كرهته لأنانيته بشدة ولولا وجود ميّ كرابط أبدي بينهما لرفضت رؤيته مرة أخرى بما أشعله داخلها من تقزز.

نبهته بنبرة قاسية ترفض النقاش: بعد كدا لما تحب تشوف ميّ أبقى استناها تحت أنزلهالك .. قضوا اليوم سوا برا .. عشان بقيت لوحدي وما يصحش تجيلي هنا

أومأ محافظاً على شروده ليس لديه الرغبة في المناقشة أو إرسال نظرة حنق، تنهدت حنان مترقبة وقت انصرافه على أحر من الجمر.

****

أرجعت رأسها للخلف تُسندها إلى ظهر الأريكة، تناولت زهرة كفها تربت عليه بحنان والشفقة تملئ عينيها، لا تقدر على قول كلمات لن تقدم ولن تؤخر فقط ستزيد عذاب قلة الحيلة إلى عذاب أختها.

تنهدت نجلاء بحزن: لسه حابس نفسه ف أوضة الضيوف ؟

ردت عليها حياه محدقة في السقف: زي ما هو، خمس شهور ع الحال دا لحد ما خلاااص حاسه إني بأتخنق بالبطئ وإن فيه حبل حوالين رقبتي كل يوم عمال يضيق زيادة

زهرة مواسية: جوزك يا حبيبتي ولازم تصبري .. أكيد هتفرج عن قريب

وجهت نجلاء حديثها إلى زهرة: هو صحيح اللي ما يتسمى دا مات ؟

تشهدت زهرة: أيوه .. مات .. الرصاصة دخلته ف غيبوبة مافاقش منها ..

أشاحت نجلاء بيدها: أحسن .. ربنا ينتقم منه .. ويكون مكانه النار ف جهنم

لامتها زهرة بهدوء: ربنا العالم باللي عملوه وهو العدل اللي هياخد الحق من الظالم ويرجعه لصحابه

ثم أضافت مخاطبة حياه: عرفتي أنه كان بيهرب أثار ؟

نظرت لها حياه وقد أتضحت أمامها معالم الأمر: عشان كدا كان عندنا ف سوهاج !

شهقت نجلاء: يعني مش قواد وقتال قُتله بس لا وكمان مُهرب .. ربنا ينتقم منه

اعتذرت حياه من شقيقتها: أنا أسفة أوي يا زهرة على اللغبطة اللي عملنهالك ..

ضحكت زهرة بهدوء وغمزتها: يظهر مش إنتي السبب ف عدم جوازي لحد دلوقتي زي ما محمود كان بيقول .. شكلي أنا اللي فقرية هههه

لم تقدر حياه على الإبتسام لكنها شكرت أختها لعدم تحميلها الذنب فيكفيها بل ويفيض تحميل حمزه عليها، انتبهت لبقية الحديث: ع العموم جوازنا كمان شهر ونص .. كل الحكاية بدل ما كنت هنكتب الكتاب وبعدين الفرح هيبقى كله في يوم واحد ..

سألتها نجلاء: إنتي وعصام هتتجوزوا ف يوم واحد ؟؟

ابتسمت لها زهرة: أيوه .. أخوات بقى وكدا هههههه

بادلتها نجلاء البسمة: ربنا يتمملكوا على خير

- آمين يا رب

سألت حياه عن حال سمية فأجابتها نجلاء حزينة: على طول ف أوضتها يا تعيط يا تقرا قرآن وهي بردو بتعيط ...

أشفقت على حال الزوجة المنكوبة: ربنا يصبرها

نهضت نجلاء: أنا هأروحلها بقى .. من ساعة ما مات بابا –الله يرحمه- وأنا قاعدة معاها في البيت وبأحاول أقنعها تيجي تقعد عندي بس مش راضية خاااالص .. وأنا قعدت البيت دي تعبتني .. شايفة بابا ف كل حته حوليا .. أعصابي مش قادرة تستحمل

طمأنتها حياه: مسيرها تهدا وتطلب بنفسها أنها تيجي معاكي .. أول ما تقتنع أنه مش راجع تاني

ودعتها الأختان، أبلغت زهرة شقيقتها أن عصام على وشك المجئ ليقودها إلى منزلهم فوالدها قد أختل نظامه ويرفض تناول الدواء كما أن الحمل زاد على عائشة كثيراً.

ألتمست حياه لها العذر وجلستا تتكلمان حيناً وتصمتان أحياناً، أتى عصام وجلس يطمئن على أحوالها وحاول رؤية حمزه ولكن لا حياة لمن تُنادي، عقب مغادرتهما قررت الإطمئنان على حال زوجها.

وقفت على باب غرفة الضيوف التي أنتقل إليها بعد العزاء؛ هاجراً إياها يحملها ذنب ما حدث، كيف لا وقد كان شادي بعد إصابته يلفظ بأنه كان يريد قتلها هي لما سببته لدمار في حياته، لقد دافع عنها والد زوجها، متلقياً الرصاصة عوضاً عنها وعن ابنها.

جالس على سجادة الصلاة يمسك مُصحفاً بين كفيه تالياً آياته في صمت، جلست أمامه على الأرضية بصعوبة لأن بطنها المنتفخ ذات الشهور الثمانية أو تتخطاها بعدة أيام قد أعاقت حركتها.

لم يلتفت أو يشعرها بأنه انتبه لوجدها، ألمها ذلك لكنها صممت على إنهاء هذا الوضع في هذه اللحظة بأي شكل ومهما كانت العواقب.

بدأت الحديثة محدقة به: حمزه .. أنا فاهمة إحساسك .. صعب أوي تكون متجوز وعايش مع واحدة تحت سقف بيت واحد وهي السبب ف موت والدك –الله يرحمه-، مش هأقول أنا ماليش ذنب .. لإني كفايه أوووي إني أنا اللي دخلته حياتكم بدخولي فيها، كان لازم أفهم إنه أنا غلطتي اللي غلطتها ف لحظة طيش غبي هتفضل لازقه فيا طول العمر وهأفضل عايشه ف نتايجها لحد ما أموت .. عايز تحملني الذنب أنا مش هأمنعك .. بس ما تعملش ف نفسك كدا .. حالتك دي بتوجعني أكتر من بعدك عني .. فوق من اللي أنت فيه .. لو عايز تطلقني أنا موافقة ولو عايز ترجعني لأهلي وتفضلي معلقني من غير طلاق بردو موافقة ولو عايزني أفضل هنا وأعيشخدامة تحت رجليك بردو موافقة بس ما تعملش ف نفسك كدا .. أبوس إيديك

تناولت كفه تقبله لكنه سحبه بعيداً، وضع المصحف جانباً وجذبها إليه يضمها ويمتص حزنها: أنا مش مشيلك الذنب .. أنا عارف أنه دا قدر ومكتوب لكن الأسباب هي اللي بتختلف، هو مكتوبله أنه يموت ف الساعة دي خلاص هيموت سواء بطلقة رصاصة أو عربية معديه أو أزمة تحصله فجأة .. أنا بعدت عنك مش لوم عليكي .. دا عشان تقصيري نحيتك

رفعت عينيها المملؤة بالدمع: تقصيرك إزاي؟ .. مش فاهمة

تنهدت مخرجاً ما اعتمر بداخله: والدي –الله يرحمه- هو اللي قدر يحميكي ويحافظ على حياة ابننا، عرفة يعني إيه كل ما أتخيل إنه لولا إنه أدخل كان زمانك وقتها واقعة بين إيديا غرقانة ف دمك وأخسرك إنتي وابننا من غير ما يكون ف إيدي حاجه ؟؟ .. صعب أوي إنك تحسي إنك المفروض راجل والمسئول عن حماية مراتك وابنك وف الأخر ما تقدرش تعمل دا ... حسيت إني بأموت

تحسست وجنتيه الخشنتين بسبب تركه لذقنه دون حلاقه لعدة أيام، قالت بحنان يغمره الحب: أديك قولتها .. دا مكتوب .. مكتوب إنه الحكاية دي كلها تحصل وأنا وابننا نكون بخير .. حتى لو جات فينا ما كناش هنتأذى لأنه ربنا لسه أمرلنا بعمر .. ما تلومش نفسك يا حمزه، أنت لو كنت تعرف عمرك ما كنت تتأخر ف حمايتنا أنت سيد الرجاله ف عيني .. أنا أصلاً ماعرفتش الأمان إلا معاك .. لما شوفتني أنا ومي مي لما كنا بنتخطف .. أنا كنت مرعبة بس لما شوفتك عرفت .. أطمنت، اتأكدت وقتها إنك مش هتخلي حد مننا يداسله على طرف وهتلحقنا ..

بعيداً إننا قدرنا نهرب .. وإني وقتها كنت لسه مش طايقاك بس دا كان موضوع مفروغ منه بالنسبه لي

ضمها أكثر إلى ضلوعه: ربنا رزقني بيكي .. ولحد دلوقتي مش لاقي طريقة مناسبة أشكره بيها

سحبت نفسها على مضض: هتاكل ؟ .. أنا جعانه أووي وابنك جعان خالص بس اتفقنا مش هناكل من غيرك

قهقه وتحسس بطنها شديد الإنتفاخ بالنسبة لوضعها الطبيعي: وأنا كمان هأموت م الجوع

نهضت مستندة على طرف الفراش متمهلة: بعد الشر .. دقايق ويكون الأكل جاهز

انصرفت فيما نهض هو يضع المصحف في مكانه ويطوي سجادة الصلاة بتأني، وصل إلى مسامعه صوت تحطم الأطباق تلاه صراخ عال من حنجرة حياه. أسرع راكضاً إليها وقد اعترتها حالة من الفزع لا مثيل لها.

وقفت مستندة إلى أحد الكراسي الموضوع في المطبخ تقبض عليه بشدة بينما يديها الأخر تمسك بطنها، كان هناك سائلاً يشبه المياه يتساقط من بين ساقيها، رفع عينه إلى وجهها جاحظاً عيونه: هو في إيه ؟؟

قوست شفتيها لأسفل وترقرق الدمع بمآقيها وتجعد وجهها مبدياً أنها على وشك البكاء: أنا شكلي بأولد يا حمزه ... عاااااا

وتلت الصرخات هذا التصريح، لم يتوقف إلا بعد خروج الطفل الصغير للحياة عبر والدته حياه، تمت تسميته أحمد ليصبح كالرسول الكريم – صلّ اللّه عليه وسلم- وكذلك ذكرى من جده أحمد الذي كان أكثرهم اشتياقاً لمقابلته وتعليمه كل ما يخص الحياة لكن شاء اللّه .. ألا يرى الجد حفيده.

****

لثم وجنتها سريعاً فقد شعر بتعجلها في الذهاب، ترجلت مسرعة ودلفت عبر البوابة، أخفض رأسه قليلاً يقرأ ما كتب على اللوحة المعلقة " جمعية أحمد العربي الخيرية " ثم ما كتب بخط أصغر أسفلها " صدقة جارية عن روح صاحبها أحمد العربي" اتسعت إبتسامته فخراً بزوجته، فلقد أنشأت هذه الجمعية بعد وفاة والدها متمنية أن تكون الولد الصالح الذي تركه والدها على الأرض فيكون سبباً بإرتقاءها إلى أعالي درجات الجنان.

وقفت مبتسمة في منتصف الحديقة حتى تجمهر حولها الأولاد منتظرين الحلوى التي تسببت في إنتفاخ حقيبتها كما اعتادت، بعد إنتهاءها من التوزيع توجهت إلى مكتبها تباشر عملها ومراجعة الملفات.

لقد شجعتها حنان على الفكرة بشدة فهناك في بلادنا العديد ممن يحتاجون العطف والحنان قبل المساعدة المادية، نمت في رأس نجلاء الفكرة بعد أن ذكرتها حنان بفؤاد أعمال الخير .. لكن ما جعلها تحزم

أمرها هو موت والدها فكررت أن تضرب عصفورين بحجر واحد وقررت أن تكون هذه الجمعية هي صدقة جارية عن روحها.

استغرقت في الملفات ودراستها حتى لم تشعر بوصول حنان وأفاقت منتفضة على نغمة حنان الرنانة في طرق الباب، شهقت فزعاً: حرام عليكي خضتيني

جلست أمامها قائلة: بعد الشر عليكي يا بطة من الخضة

سألتها عن الساعة، فأجابت: الساعة أربعه

ضربت جبهتها بمؤخرة كفها: يااااه .. دا الوقت سراقني

نظرت حنان إلى الأوراق المتكدسة أمامها: ربنا يعينك على عمل الخير كمان وكمان

- يا رب .. أومال ميّ فين ؟

- بتلعب برا مع صحابها الجداد .. ما شاء الله عليها قدرة غير عادية في تكوين الصداقات

- ربنا يخليهالك ويحميها .. وحشتني أوي .. وماما نفسها تشوفها جدااا

أشارت إلى عينيها: بس كدا؟؟ .. م العين دي قبل العين دي .. خلاص إحنا عازمين نفسنا عندكوا الجمعة الجايه .. بس هي مامتك عامله إيه دلوقتي؟

تنهدت مرتاحة: الحمدللّه أحسن من الأول .. كفايه أنها وافقت أخيراً تيجي تعيش معايا أنا وفادي في بيتنا .. بعد ما تعبت أعصابها في البيت بتاعها وذكرياتها مع بابا –اللّه يرحمه-

شاركتها حنان الأسى: مع الوقت هتقدر تفوق أكتر من كدا

ثم هتفت بحماس: صحيح البيه أحمد الصغير أخباره إيه ؟؟

ضحكت نجلاء على سيرته: اسكتي دا مطلع عينها .. دا أنا تقريباً ما بقتش بأكلم حياه عشان ما أسمعش عياطه وصريخها هي هههههههه .. ماما بتقول عليه نسخة طبق الأصل من حمزه وهو صغير سواء في الشكل أو في التصرفات .. وهو يسمع كدا من هنا وتبقى الأرض مش سايعاه م الفرحة

قهقهت حنان: وهو يهمه إيه ؟ .. مش بيروح يلاقي أكله جاهز وهدومه نضيفه ومكويه والبيت زي الفُل والواد نضيف وبيلمع

أيدتها نجلاء بشدة: فعلاً معاكي حق

تحولت نبرة حنان إلى الجدية: صحيح قبل ما أنسى .. فيه مأوى عندهم عدد زيادة ومش عارفين يودوهم فين لأنهم مش لاقين مكان فاضي .. لو عندك مكان زيادة ممكن نخليهم يجوا هنا ؟؟

تناولت نجلاء أحد الملفات من الدرج المجاور لقدمها وبعد أن درسته قليلاً أومأت موافقة: فيه أربع أوض لسه فاضيين .. وإن شاء اللّه على أخر الشهر

هنبدأ نحول الجزء اللي ورا المبنى اللي فاضي دا لجناح زيادة يوسع المكان

فرحت حنان بشدة لهذه الأخبار واستأذنت تحادث مدير المأوى ليرسل ما فاض لديه من أشخاص يحتاجون المساعدة، شعرت نجلاء بسلام داخلي، فقد عوضها هذا المكان عن فراغ يومها ومشاعر الأمومة الفائضة لديها ولن تستطيع إشباعها إلا أن تصبح أماً للذين فقدوا أمهاتهم كالأطفال الراكضين بالحديقة خارجاً.

****

في محافظة بعيدة وعلى وجه التحديد محافظة السويس .. وقفت بملابسها المعتادة التي تكشف مفاتنه وتبرزها، مالت قليلاً وسألت المساعد الأقرب إلى رئيسها: هو البوص فين يا رامز ؟

تأمل جسدها بجوع واضح لكنها لم تعره إهتماماً فقد أصبحت تلك النظرات بلا قيمة من كثرة ما تعودت عليها، أجابها بتمهل واضح حتى يجعلها تقف أمامه لأطول فترة ممكنه: هيكون فين يعني؟ .. جوا ف مكتبه

سارت بدلال وجسدها يتلوى كالأفعى التي يعزف لها صاحبها على المزمار لتخرج من مخبأها، دفعته بظهر كفها ليتنحى عن طريقها، طرقت بخفة على باب الغرفة ثم دفعته ودخلت.

حدقت إلى الرجل الواقف أمام النافذة يتابع حركة السفن فوق الميناء، اقتربت منه وعقدت ذراعيها حول خصره ووجنتها تستند إلى ظهره.

سألته مستفسرة: بتبص على إيه ؟

دون أن يتزحزح أجابها: بأبص ع الشحنة واتأكد إنها وصلت ...

بعد فترة صمت؛ انتصبت معتدلة في وقفتها وأدرته إليها تحدق في عيونه لتعلم صدقه من كذبه، سألته: مالك؟

تنهد وأجابها بصراحة وبدون مواربه: حياه ولدت

لوت شفتيها غيظاً: وأنت مالك ومالها ؟؟ .. ما تولد

رفع حاجبيه في استياء: مالي إزاي؟؟ .. إنتي نسيتي هي تبقى مين واللي جابته دا يبقى مين ؟

أومأت متفهمة ما يقول: لا أنا عارفه كويس هي مين .. بس اللي باستغرب له أنت واهتمامك الزيادة أوي بيها دا

وضع يديه في جيوبه وسألها بصوت بارد كالثلج: ممكن توضحيلي فين الإهتمام الزايد دا ؟

وضعت يديها فوق خصرها: خليت شادي يبطل يطاردها ويسيبها من غير ما تاخد العقاب اللي أنا وأنت عارفينه .. أمرتني إني أهربها وأهرب معاها قبل ما شادي يعمل معاها حاجه تانية .. وأخرهم ..

أشارت إلى نقطة ما في صدره وقد جعلت أصابعها على شكل مسدس: بوووم .. أخدت رصاصة ف صدرك وكنت هتموت .. عشان تفاديها وما تجيش فيها يوم ما شادي أتجنن وهجم عليكوا ف سوهاج ..

أنزل يدها بعيداً عن صدره: قولتلك مية مرة أنا عملت كدا ليه .. حياه دي تبقى مرات ابني وكمان كانت شايله حفيدي في بطنها .. عايزاني أسيب واحد متخلف زي شادي دا يموتهم بسهولة كدا ؟؟

لوت شفتيها باستهزاء: تقوم تعرض حياتك للخطر ؟؟

قابل استهزاءها بسخرية: ما سمعتش عن المثل اللي بيقول "أعز من الولد .. ولد الولد" ؟

عدلت ياقة قميصه بدون داعي متلكئة: يعني ولد الولد هو السبب ولا ...

نفر منها غاضباً عندما أدرك تلميحاتها الملتوية: إنتي أتجننتي باين يا نيفين !، دي مرات ابني .. بلاش الأوساخ اللي ف دماغك دي .. ابني أتجوزها يعني شرفها بقى من شرفي وشرفه

اقتربت تحاول إمتصاص غضبه بدلالها: معلش بقى يا دودوي .. ما أنت عارف يا أحمد أنا بأحبك قد إيه .. وأما صدقت خلصت من مراتك الأرشانه دي ..

أكتفى بأن أدار لها ظهره حانقاً لما لقبت به زوجته، هو يحب سمية بل ويعشقها لكنه متأكداً أنها إذا علمت بحقيقته البشعة ستبتعد عنه وتنبذه فقرر هو الإنسحاب محافظاً على ماء وجهه.

لقد تم حجزه في العناية المركزة لدخوله في غيبوبة امتدت يومان، أفاق طالباً من الممرضة ألا تخبر أحداً باستيقاظه وأعطاها رقم رامز حتى تهاتفه ليأتي إليه فوراً وذلك بالطبع مقابل مبلغاً من المال.

أتى رامز يُلبي نداءه بسرعة، اتفقا على أن يُشاع نبأ وفاته فلقد أتت أخبار مؤكدة ببدأ الشك فيه وأن الشرطة قاربت على كشفه وسيقضي ما بقى له من عمر في غياهب السجون.

سقط في الغيبوبة مجدداً فلم يستطع رامز فعل شئ سوى إنتظار إفاقته مرة أخرى، أفاق بعدها بحوالي عشرة أيام، أعطى مبلغاً لا يُستهان به إلى الممرضة لتصرف جميع من يربضون أمام بابه وتخبرهم في الصباح خبر وفاته، أحضر رامز جسد رجل يشبهه في العمر والبنية العامة بعد أن نقد أهله الأموال الكافية لإغلاق أفواههم، نُقل إلى مستشفى في السويس بواسطة عربة الإسعاف فيما عائلته تبكي منكوبة لفقدانه بسبب شخص لا يساوي شيئاً.

ظل في المشفى حتى قبل أسبوعين فقط، وأثناء غيبوبته قام رامز بدفع بعض الرجال لقتل شادي الذي أصابه طلق ناري نتيجة دفاع الغفير في منزل فاروق عن الموجودين .. يعلم أن شادي ذاك قد رأى وجهه قبلاً، ولمح نظرت الدهشة والذعر ممزوجتين داخل مآقيه فكان الحل الأسلم هو موته ليُبقي هو على حياته وحريته، لقد حاول التخلص من بإبلاغ الشرطة عنه وعن مقر الدعارة الذي يديره لكنه استطاع النجاة، فبدلاً من الإكتفاء بحبسه أصر على الموت ولفظ أنفاسه الأخيرة.

لقد أتجه إلى هذا الطريق ليوفر لزوجته المعيشة التي تليق بها، لكنها أبداً لم تكن لتتفهم ذلك فهي ستقبل أقل مستويات العيش مادام من مشاريع مُباحة وأموال مشروعة.

كان ما يقلقه دائماً هو تخيله لرد فعلها إذا علمت بوجهه الأخر، أُضيف إليها حفيده الصغير الذي أسموه تيمناً به، سخر من ذاته مفكراً .. إذا اكتشفوا بقاءه على قيد الحياة وخداعهم كل تلك السنوات سيصرون على إبقاء الصغير يحمل اسمه؟

أحمد الصغير .. حفيده، يجب أن يبتعد عن الأعين وألا يتم القبض عليه ليراه يكبر حتى توافيه المنية، أكثر ما يجعله متمسكاً بحريته وحياته الهاربة هذه هو ذاك الطفل .. قطع عهداً على نفسه أن يذهب ويراه في أقرب فرصة تُتاح له.

تزمرت نيفين من تجاهله لها، لكنها تدرك أيضاً أنه إذا غرق بأفكاره إلى تلك الدرجة فهذا لا يعني إلا أنه لن يفيق لنفسه أو لمن حوله إلا بعد مرور مدة طويلة ليس لها مدى فانسحبت من الغرفة بهدوء.

****

جلست تأخذ أنفاسها في راحة فقد تعبت حتى جعلت أحمد يستسلم للنوم، سحبت دفترها وقلمها من الدرج المجاور ومدت ساقيها على الفراش، لقد عقدت النية على كتابة أجمل اللحظات التي جمعتها مع زوجها حتى تكون شفيعاً له لديها وقت الخلاف.

لم تكن قد خطت فيه حرفاً زائداً عما قرأه حمزه قبل مدة دون علمها، أمسكت قلمها متنهدة تريد أن تكتب القليل قبل أن يعاود أحمد الاستيقاظ أو يقبل حمزه مطالباً بحصته من الطعام وخلافه من المتطلبات.

سمت اللّه وقبل أن تضع نقطة واحدة في الدفتر ارتفعت أصداء رنين الجرس معلنة وصول حمزه إلى منزله، انتضت ملقية الدفتر والقلم على السرير، تركض مسرعة لتفتح الباب وتسابق الريح التي ترسل صوت الرنين في أرجاء البيت قبل أن يصل إلى مسامع صغيرها فيستيقظ حينها وبلا شك ستفقد عقلها أو ما تبقى منه على الأقل.

فتحت الباب بملابس المنزل وشعرها متبعثراً حول صفحة وجهها، وجدت حمزه قد قطب جبينه حالما رآها، دخل وأغلق الباب ونظر إليها بعينيه اللتين تقدحان شراراً: إيه اللي إنتي عاملاه ف نفسك دا ؟؟

نظرت لملابسها لتعلم سبب إنفعاله، وجدت بقايا تجشؤ أحمد على كتفها إثر وجبته ونومه، أسرعت تبرر: معلش يا حبيبي يظهر وأنا بأنيم أحمد أتكرع على كتفي

لم يتحرك قيد أنمله قائلاً بغضب يوشك على الإنفجار: مش قصدي على كدا .. قصدي دا منظر تفتحيلي بيه الباب ؟؟

رفعت إليه رأسها وكزت على أسنانها غيظاً: معلش أصلي معرفش إنه جانبك عايزني أفرشلك الأرض ورد وألبسلك بدلة رقص

حاول عدم إظهار إنفعاله بسبب غضبه وأكتفى بقول: رجليك باينه وشعرك .. ودراعاتك كمان .. عرفت إنك بتربي عضلات، لازم كل اللي طالع واللي نازل يعرف يعني ؟

أدركت أن سر حنقه هو الغيرة من أن يراها غريباً بهذا الشكل، استدركت الموضوع وسألته بهدوء كأن شيئاً لم يحدث: أجهزلك الأكل ؟

أجابها متجهاً إلى الغرفة: لو مافيهاش مضايقه يعني .. هأغير هدومي وأجي

دخل إلى الحجرة وبدأ في نزع ملابسه حتى لاحظ دفتر مذكراتها الذي حفظ شكله عن ظهر قلب ملقى بإهمال على الفراش، استشفى أنها كانت تمسكه قبل قدومه ورمته بسبب رنين الجرس، قلب صفحاته فوجد أن حرفاً واحداً لم يكتب منذ أخر مرة قرأ سطوره فأعاده إلى مكانه على وعد بالعودة إليه في وقتٍ لاحق .. ألقى نظرة سريعة على ملاكه الراقد في سرير يجاور سرير والديه، ابتسم بحنان وأنصرف يزيح عنه عناء ومشقة العمل بقطرات من الماء.

وقفت تُعد له الطعام وتضعه في الصحون وإبتسامتها الجذلة لا تنزاح عن شفتيها، كلما غار عليها كلما اشتدت سعادتها ووثقت بحبه أكثر، تذكرت كيف كان وكيف أصبح الآن، إنه يحاول أن يصبح كالزوج الذي تخيلته دوماً إن لم يكن أفضل، لقد داوم منذ عادا من شهر عسلهما على قراءة الكتب الدينية متفقهاً في دينه ليكون قدوة لأولاده مستقبلاً.

كان يتلمس مواطن الخير ويفعلها بل ويشاركها فيها حتى لا يزيد أجره عن أجرها في شئ، كل شهر كان يبدأ في ممارسة عادة جديدة لتصبح من روتين يومه فأولاً بدأ بصلاة السنة التي كثيراً ما كانت تتكاسل عنها .. لحقها قيام الليل ومؤخراً شرعا في الحفاظ على صيام يومي الإثنين والخميس.

يقترب من الله خطوة ويرسخ أقدامه بها ثم يسحبها إليه حتى لا يهتز أحدهما، ليس هدفه أن يظلا سوياً لعدة أعوام بل أن يكملا حياتهما معاً في العالم الأخر بالفردوس حيث لا نهاية أو فراق، ظلت تردد الحمد على لسانها حتى أنتهى من طعامه وانصرف إلى كتابه يكمل قرأته.

تحججت أن وراءها بعض الأعمال المتعلقة برعاية أحمد وانسحبت إلى غرفتها، أمسكت دفترها لتخط بسرعة خواطرها؛ فهي تعلم إن لم تكتب ما في بالها الآن فلن تكتبه أبداً ..

" ربي غفرلي .. لا ورزقني

بالحب الصح .. حب بجد

زوج صالح بيصحى الصبح على أدان الفجر

يغضب مني لو مرة فاتت عني صلاة العصر

أو كسلت أصلي الفرض

يجبلي كل يوم مصاصه وبونبون

لو زي الشطار صومت معاه كل كام يوم

*

-هششششش

أوعى حد يقولوا مكان الشـــــ

-يا حيـــــــــاه

-أيوه يا سي حمزه

-فين خبيتي الشبشب ؟؟ فيه ناس نفسها تتشبشب

-ليه بس يا روح قلبي وضي عينا ونوري وشمسي

قوام خرجني من تحت الكرسي ومسك ودني وقالي:

-ليه ما قرتش الورد يافندي ؟؟؟

*

والرقية الشرعية

دي كل ليلة واجب مفروض

يقعدني قدامه زي الطالب المفروم

ويبدأ عليا شغل شيوخ .. يسرح ويعيش ف الدور

*

-طب والسبحه ؟!

-خلاص ماهو سابها

صوابعي عليها بقى بيسبح

*

كل ليلة أصحى على صوته بيدعي

إنه يعينه على حبي ويقدر يسعدني

فجأة ألاقيني بأبكي بعيني وأدعي بقلبي

ربي عنه ما تفرقني

*

-راحت فين ؟؟.. تاهت مني!

-إيه هي.. مالك يا بَدري!

-دي الطرحة السوده المنقطة زهري

-قصدك دي ؟؟

دي مش طرحة حبيبتي .. دي نقاب يا قلبي

روحي شوفي غيرها .. تداري شعرك مش منه تبين شعرة وخصلة!

*

-وإيه دا كمان ؟؟

-دا يا حبيبي فستان !!

-لا واللّه ؟؟ .. دا من غير كومام!

-هألبس عليه يا عيوني بوليرو

-يا قلبي دا ما ينفعوش لا شال ولا حتى كاب

-طب والعمل ؟

-روووحي غيري .. بدل ما أفتح دماغك الهباب

وأضربك بالقبقاب!

*

اللّه أكبر اللّه أكبر

تكبيرة الصلاة والوقت أهو أزف

لا .. دا مش مسجد .. دا حبيبي بينادي

أصله وقت القيام خلاص دنى

عن إذنكوا بقى أنا ..

ألحق أتوضا وأقف وراه قبل ما يبدأ يتلو القرآن

يرضيكوا يناجي ربنا لوحده ويسبني وحيدة مني للشيطان ؟؟

صحيح قبل ما أنسى ..

دا حلالي .. بعلي حبيبي

في الجنة قبل الدنيا هو شريكي "

أغلقت دفترها تلحق بصلاة القيام خلف زوجها، وبعد عدة ساعات عندما تأكد من نومها، فتش عن دفترها حتى وجده، فتحه ليقرأ الكلمات، تبسم في سرور وأمسك القلم الموضوع بجواره وكتب لها بخطه المنمق الجميل عبارة دق لها قلبها عندما رأتها بعدها بأيام عندما عاد بينهما الجدال والكثير من المناوشات فأسرعت تضمه تخبره عن حبها متناسية أنه هو من أخطأ في حقها .. فيكفيها أنه خَطَ لها ...

" إني رُزقتُ حبها "

تمت بحمد الله

١٧-٤-٢٠١٥

١٢:٠٣ PM

رُزقتُ الحلال

أول مرة قلبي يدق
طرت .. فرحت
توهت .. سرحت
بقى أنا عايشه ف قصة حب ؟!
لكن فجأة لاقتني وقعت
بابا رافض سيرة الحب ..!
غضبت وثورت
لكن بابا قاسي القلب
أخدت قرار ... وروحت هربت
لكن لاقتني ... رجعت ندمت
قولت يارتني ف يوم ما غضبت
واستحملت قسوة قلب
بكره مسيره عليا ... يحن !
يارتني سمعت
كنت ساعتها حفظت براءة قلب
عمره ما داق طعم الغدر ..

سارة محمد سيف